3

أ.د. زينب عبد العزيز

صليبية الغرب وحضارته

موقف الغرب من الإسلام

محاصرة وإبادة



اسم الكتاب :

موقف الغرب من الإسلام «محاصرة وإبادة»

اسم المؤلف :

أ. د. زينب عبد العزيز

رقم الايداع بدار الكتب المصرية :

٢٠٠٣/٢١١٢٩

الترقيم الدولي :

I.S.B.N. 977-376-030-8

تصميم الغلاف :

كامل جرافيك

اسم المطبعة :

دار القبس للطباعة ت: ٣٦٤٠٨٣٥ - ٥٢٤٣٣١٤

الطبعة الأولى

٢٠٠٤



دمشق - القاهرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي

هاتف ٢٢٣٥٤٠١ ــ ص.ب: ١٣٣٤٤ ــ فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧

مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ - تلفاكس: ٣٩١٦١٢٢

Email:darkitab2003@yahoo.com

موقف الغرب من الإسلام

محاصرة وإبادة

أ. د. زينب عبد العزيز

الناشر

دار الكتاب العربي

دمشق - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾ (آل عمران: ٦٤)

مقدمة الطبعة الثالثة

كلما مر الوقت، كلما ازداد تأكيد كل ما ورد بهذا البحث، فى مختلف النقاط التى تناولها، حتى لم يعد هناك من لا يدرك حقيقة أن موقف الغرب الصليبى من الإسلام هو موقف محاصرة وإبادة بكل وضوح.. ولعله ازداد وضوحا بعد تلك الحرب الاستعمارية الغاشمة على العراق، فى مطلع هذا العام، وإن كل ذلك يتم بتضافر جهود الغرب المسيحى المتعصب، مهما كانت الخلافات بين بلدانه، وبتنازلات جد مهينة ومتتالية من بعض أصحاب القرار فى العالم الإسلامى والعربى.

ففى مجال الإسلام

لم يكف الغرب المتعصب عن تشويه صورة الإسلام منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا، فى كافة المجالات من كتب تعليمية مدرسية، أو أدبية وعلمية، وفى ترجمات معانى القرآن الكريم، وفى كافة وسائل الإعلام.. حتى صار الكلام فى هذا المجال تكرارا ممجوجا.. وقد تناولنا هذه النقطة بالتفصيل فى كتاب «**حرب صليبية بكل المقاييس**» (١).

كما لم يكف ذلك الغرب المتعصب عن محاولاته لاقتلاع الإسلام، الذى بدأ حربيا باقتلاع المسلمين من إسبانيا، ثم محاربة الإسلام فى تركيا وفرض العولمة عليها واقتلاع لغة القرآن لفرض أحرف الهجاء اللاتينية.. ثم تواصل

---

(١) صادر عن دار الكتاب العربى سنة ٢٠٠٣

المسلسل حديثا بحرب البوسنة والهرسك بمباركة الجميع بالفعل أو بالصمت، ثم أفغانستان، ثم العراق، وهاهم يحاولون الإيقاع بسوريا وإيران وباقى بلدان العالم الإسلامى فى منطقتنا، بينما يتواصل نفس المسلسل فى جنوب شرق آسيا.

وتتزايد سرعة الإيقاع فى ضرباته الضارية، فقد أعلنت محطة «ايرو نيوز» الدولية فى ٢٠٠٣/١٠/١٦ عن إحياء جديد لمنظمة «حلف الأطلنطى» باسم NATO Response Force أى «قوة الردع لحلف الأطلنطى» المفترض فيها ان تكون «كاسحة» على حد تعبير الوكالة.

وقد بدأت بتسعة آلاف جندى، سيصل عددهم إلى عشرين ألفا فى عام ٢٠٠٦، ومهمتها المعلنة: إدارة الأزمات أو الرد على الأعمال الإرهابية. وهى تضم وحدات بحرية وجوية وأرضية قادرة على القيام بعمليات فى أماكن بعيدة فى أقل من خمسة أيام. أى أنها قوات سريعة الانتشار والاعتداء والردع! وقد ساهمت إسبانيا بأكبر عدد من الجنود وهو ٢٢٠٠ شخص، أما فرنسا ـ وعلى الرغم من انسحابها من البنية العسكرية لحلف الأطلنطى، فقد قدمت ١٧٠٠ رجل وكذلك عددا من الطائرات والمروحيات والبوارج. أما ألمانيا فقدمت ١١٠٠ جندى. وتقول الوكالة: إن هذه القوة الهجومية تمثل تغييرا جذريا فى عقيدة حلف الأطلنطى التى كانت سابقا قاصرة على الدفاع عن أراضى أعضائها فى مواجهة الاتحاد السوفيتى».

ولا يسعنا إلا أن نتساءل: وبعد أن اقتلعوا الاتحاد السوفيتى، أين سيتم استخدام هذا التحالف الجديد لقوى الشر التى لا ترتدع؟!

وفى المجال الكنسى

لقد وصل افتضاح حقيقة تحريف الأناجيل إلى درجة فى ذلك الغرب المتعصب، حتى أصبح السؤال المطروح حاليا يدور حول حقيقة السيد المسيح،

والتـأكيد على أن عيسى ابن مـريم أو المسيح التـاريخى شىء، والمسيح الإله المتجسد فى الإنسان فداية للبشر، كما يقولون، أسطورة من نسج التعصب الكنسى! ولا يسع المجـال هنا لتناول هذه النقطة تحـديدا، لكننا نكتفى بالإشارة إلى تزايد الإيقاع المحموم فى تنصير العالم واقتلاع الإسلام - رغم كل ما يلم بذلك الكيان المتعصب من فضائح متزايدة فى نصوصه، وفى قيمه الأخلاقية، وفى شذوذ بعض رجاله وانحرافهم المناقض للتعاليم الشرعية لكافة الأديان وخاصة لأناجيله..

ومع ذلك يتزايد إصراره بضراوة لاقتلاع الإسلام والمسلمين.

وفى القضية الفلسطينية

لم يعد هناك مجال لأى كلام، فقد تناسى الجميع انها أرض مغتصبة، وتناسى الجميع أن ذلك الكيان الصهيونى لم يلتزم بأى قرار من قرارات الهيئات والمنظمات الدولية، ليستولى على أرض لاحق له فيها، وأكبر دليل على ذلك «حائط العار» الذى لايدل إلا على جبن رخيص، جبن الجناة الذين يشيدون سورا من الأسمنت المسلح لحماية أنفسهم من حجارة الانتفاضة! وما يدور حاليا هو تنفيذ ذلك المخطط الصهيونى - الأمريكى لاقتلاع الفلسطينيين من قطاع غزة وتوطينهم فى العراق كما أعلنوها بكل صفاقة، وسط صمت مهين أو بين التشدق ببعض عبارات الاحتجاج أو الاعتراض.. كلمات صغيرة، لاقيمة لها ولا جدوى منها بينما المخطط يتم تنفيذه بكل إصرار ودأب..

والملاحظ أن أحدا لم يتحدث عن «حائط العار» هذا إلا بعد أن وصل طوله إلى ١٤٠ كيلو مترا وبعد أن أصر الكيان الصهيونى على مواصلة بنائه ليصل إلى ٦٠٠ كيلو مترا متوغلا فى أراضى الضفة، على الرغم من احتجاج الولايات المتحدة على ذلك..

ويبقى السؤال مطروحا لقادة سياسة الولايات المتحدة حول «كرامتهم»

التى يدهسها الصهاينة ولا يبالون.. بينما أخذتهم الشهامة لكرامة هم الذين أهانوها، بمسرحية افتعلوها، للتلفع بشرعية دولية مزعومة لضرب الإسلام والمسلمين..

أليس من الأكرم ضرب محور الشر الحقيقى واقتلاعه حتى يعيش العالم فى سلام؟!

زينب عبدالعزيز

ديسمبر/ ٢٠٠٣

مقدمة الطبعة الثانية

انقضت ثمانية أعوام منذ صدور الطبعة الأولى لهذا البحث، لتأتى الأحداث المعاشة بتأكيد كل ما أوردناه خلاله من نقاط وقضايا تتعلق بموقف الغرب من الإسلام.. فهو موقف يمكن تلخيصه فى كلمتين لا ثالثة لهما: محاصرة وإبادة.

فقد أثبتت الأيام أن التعصب الغربى ضد الإسلام أدى عبر العصور إلى حملات ترمى إلى اقتلاعه؛ وأن المصالحة التى تمت بين الفاتيكان والكيان الصهيونى وتبرئته من دم السيد المسيح (كما يقولون الآن) لم تكن إلا بغية الاعتراف بالكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة، واقتلاع شعب أعزل هو صاحب الأرض وصاحب الحق.. وإن ذلك العالم المدعو زعمًا «متحضرًا» ليس فى واقع الأمر إلا الركيزة الأساسية المساندة لذلك الكيان الصهيونى؛ كما أثبتت الأيام أن الشرعية الدولية التى يتم فرضها قهرًا أو بالتحايل منذ سنوات، ليست فى واقع الأمر إلا عملية محاصرة لمن فرضوا عليه: سبة «العالم الثالث» بكل ما فيه من مسلمين، وذلك بعد أن قام الغرب باستعماره وامتصاص طاقاته البشرية وثرواته.

وإن الدافع الحقيقى وراء موقف الغرب هذا هو ليس مجرد عدم اعترافه بالإسلام أو بأنه قد أتى مصوبًا لتحريف رسالة التوحيد بالله مرتين، أو بأنه جاء مكملاً وخاتمًا لها، بل لأنه يمثل فى الواقع الدليل القاطع على

❖ صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٩٣م، والطبعة الثانية عام ٢٠٠١م.

جريمة التحريف التى اقترفتها الأيادى العابثة فى الكنيسة بتأليه السيد المسيح فى «مجمع نيقيه الأول» عام (٣٢٥)، وعلى كل ما قامت به من تغيير وتبديل فى أناجيلها منذ قاموا بكتابتها حتى يومنا هذا.. فأى مجرم أو مخطئ أو آثم أهم ما يعنيه بعداقتراف جريمته هو محو أى دليل عليها! فلا عجب مما يكيله لنا الغرب بمتعصبيه.

إن المشوار الدامى الذى خاضه الغرب المتعصب منذ الحروب الصليبية وقبلها لا يزال مستمرًا.. فقد عايشنا بشاعته فى حرب «البوسنة والهرسك» و«كوسوفا» و«الهند» و«كشمير» و«الفلبين» و«الصين» ولا نزال نعايش..

وهنا لا يسعنا إلا أن نسأل ذلك الغرب المتحضر (!!؟) بمتعصبيه، والذى يحاول أن يتوج نفسه سيدًا على العالم، وعلى ذلك الجزء الذى اعتصره حتى الثمالة.. أين ذلك الحسم الباتر، القاتل ببطء ودأب، الذى يواجه به ظلمًا وعدوانًا كلاً من «ليبيا» و«العراق» و«السودان» و«أفغانستان» أخيرًا وغيرها من البلدان، لأسباب يقوم باختلاقها وعن غير وجه حق.. وأين هو من ذلك التخاذل الذى يقابل به عربدات الكيان الصهيونى المحتل لأرض «فلسطين» وانتهاكاته المتواصلة لقرارات الهيئات الدولية الرسمية؟!

وفى واقع الأمر، لا يحق لنا أن نسأل ذلك الغرب المتعصب الغائب الضمير والمغيب الأمانة والموضوعية، لأن جزءًا كبيرًا مما يقوم به يتم اعتمادًا على ما اتخذه من قرارات فى معاركه الاستعمارية - التبشيرية ومطالبته صراحة بضرورة «ضرب الإسلام من الداخل» وقراره بأن قطع الشجرة يجب أن يتم بمعرفة أحد أفرادها».. وضرب الإسلام من الداخل يعنى الاعتماد على أصحاب القرار، وعلى أجهزة محلية عميلة، تحت أى مسمًى، وعلى وسائل إعلام متواطئة، وعلى أفرادها ومؤسسات مختلفة ارتبطت مصالحها بمصالح ذلك الغرب المشين، سواء أكانت تبشيرية أم اقتصادية أم مدنية، فالمهم هو هدم الإسلام أخلاقيًا وعقائديًا وتشريعيًا وسياسيًا.

لذلك لا نملك إلا أن نتوجه إلى المسلمين والعرب أينما كانوا، وإلى أصحاب القرار منهم وصنّاعه.. إلى أولئك المسلمين الذين أفقدهم الغرب البصر والبصيرة بمصالح بلادهم وجرف ضمائرهم فى سلسلة مختطاته وزيف حضارته المنهارة وإفلاسه الذى يداريه بالتخفى وراء صفقات السلاح والمخدرات، والتى تبتلع أموال العرب والمسلمين وتحرث عقول أبنائهم وتطمس معالم حضارتهم.. لا نملك إلا أن نصيح بكل قوة: يا أصحاب القرار أفيقوا.. أفيقوا كفُّوا عن الانسياق والتبعية وراء لعبة المفاوضات والحوار المزعوم فليس الغرض منها إلا إضاعة الحق وكسب الوقت لمزيد من الاستيطان والتوغل، ومزيدا من الضحايا لأصحاب الحق.. يا أصحاب القرار جاهدوا لرؤية ما أنتم مساقون إليه.. فلم يعد أمامكم إلا توحيد صفوفكم وتكوين جبهة موحدة لاقتلاع الحق من مغتصبيه.. ليس أمامكم إلا ما فعله «عماد الدين» و«نور الدين» و«صلاح الدين» لفك الحصار المضروب حول الإسلام بعامة، وحول ثالث الحرمين بصفة خاصة.. فتحرير المسجد الأقصى لن يتم بقرارات ولقاءات ومؤتمرات لا تتمخض إلا بحبر على ورق.. أفيقوا واتحدوا وجاهدوا فى سبيل الله والحق قبل أن يجرفكم التيار..

فالقدس

أمانة فى عنق كل مسلم ومسلمة

حتى التحرير والتطهير

زينب عبدالعزيز

٢٠٠١

مقدمة الطبعة الأولى

حينما تتفاقم الأحداث بإصرار غاشم؛ لتندفع إلى حافة الهاوية، حينما ينذر البركان الثائر فى الأعماق الدفينة بحممه الجارفة، باقتلاع الكافة دون تمييز، فلابد من وقفة واعية، تتم فيها دراسة الأسباب الحقيقية - مهما كانت مرارة هذه الدراسة وآلامها..

فبعد كل ما كتب عن الفتنة الطاغية، والإشارة إلى العديد من أسبابها بل إلى معظمها.. أسبابها الخارجية والداخلية، تظل هناك نقطة أساسية، لم يتطرق إليها أحد هنا، وإن كانت هناك عشرات، بل ومئات الأبحاث التى تناولتها فى الخارج، ولا تجد من ينقلها إلى ساحتنا المحلية؛ ليقوم المختصون بدراستها.

ولعل ذلك يرجع إلى شدة حساسية الموضوع، إلا أن ما يمر به العالم اليوم من صراعات دامية، يحتم علينا أن نترك - جانبًا - كافة الحساسيات لبحث الموقف بإرادة واعية.

فلم يعد هناك أى إنسان يتابع مجرى الأحداث فى الساحة العالمية، بحياد وموضوعية، ولا يدرك أن القضية ليست مجرد فتنة هنا وهناك، بل - هى بكل أسف وكما تشير هذه المراجع وتثبته بالوثائق: أن جمهرة من المتعصبين لا يعترفون بالإسلام، مستندين إلى أقوال مرسلة لهذا أو ذاك، ومن قبيل ما كتبه ميشيل لولنج: «إن الكنيسة تعتبر المسيح خاتم الرسالات؛ لذلك فهى لا تعترف بنبى الإسلام - الذى أدانه المسيحيون بصورة سلبية،

تهجمية وعدوانية.

والمؤلفات العديدة - بكل أسف - تشهد على ذلك: «ما أنزل الله نصوصًا من القرآن والإنجيل» صفحة ٦٧. ويوضح موريس بوكاى فى مقدمة كتابه: (الإنجيل، القرآن والعلم): «أن المسيحية لا تأخذ فى الاعتبار أية ديانة بعد المسيح ورسله، وبذلك فهى تستبعد القرآن».

ولا يتسع المجال هنا لعرض كافة آراء الباحثين، فى محاولة منهم للتقريب بين الديانتين إلا أن معظمهم أو على الأقل بعض الأبحاث الحديثة منهم - كلها تنطلق من فترة مجمع الفاتيكان الثانى، الذى يعتبرونه نقطة تحول جذرية فى موقف الكنيسة الكاثوليكية. وهو المجمع الذى تم فيه اتخاذ قرارين أساسيين، فيما يتعلق بالديانات غير المسيحية، وهما:

- مبدأ التحاور مع الإسلام.
- وتبرئة اليهود من دم السيد المسيح.

مع الاعتذار شفاهة للمسلمين (وفقًا لما هو مكتوب فى مصادر عدة) والاعتذار والأسف كتابة لليهود، فى نفس البيان، عن كل ما بدر من أحقاد واضطهادات.

وقد أهاب المجمع بالجميع أن ينسوا الماضى، و«أن يعملوا باجتهاد صادق سبيلاً للتفاهم فيما بينهم، وأن يتماسكوا من أجل جميع الناس لحماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والحرية».

وعلى الرغم من أن نفس هذا البيان، والصادر فى أكتوبر عام ١٩٦٥، يؤكد أن الكنيسة تستنكر كل تفرقة وكل عنف يقع على الناس بسبب الجنس أو اللون أو الطبقة أو الدين لأن ذلك يخالف روح المسيح، إلا أن المرء يصاب بالهلع إذا ما استعرض كافة الحروب العنصرية، ومختلف أنواع التعصب التى وقعت منذ ذلك التاريخ وحتى يومنا هذا - وخاصة مجازر الإبادة فى البوسنة

والهرسك!!. وكلها تحت اسم الدين.

ومن الواضح فى هذه المؤلفات أنها تمثل خطوطًا متفاوتة الاتجاه. فمنها ما تناول التعصب ومحاربته للإسلام منذ بداية انتشاره، خاصة فى الكتب والمراجع والموسوعات، ومنها من تناول الحروب الصليبية المتواصلة فى شكل حملاتها الثمانية - تلك الحروب التى امتدت لمدة قرنين، وبدأت بقرار من البابا أوربان الثانى عام (١٠٩٥م) الذى نادى فى مجمع كليرمون - تحت زعم تحرير القدس - بأن المسلمين يغزون بلادهم، ويهدمون الكنائس.. وأن الرب هو الذى يناشدهم لإنقاذ إخوانهم المسيحيين، من براثن المسلمين. وطالب بضرورة طردهم، إذ أن المسيح هو الذى يأمر بذلك.. ثم وعد كل الذين سيقومون بتلبية هذا النداء أو يصابون أو يموتون وهم يحاربون همج الكفار.. ستغفر لهم ذنوبهم، ولهم الجنة.. وذلك بموجب السلطة التى خولها له الله!!.. (جورج تيت: **الشرق أيام الحروب الصليبية**، ١٩٩١م).

ومن هذه المراجع من راح يجمع كل ما قيل من سب وفريات؛ بغية تحقير الإسلام والمسلمين ورسولهم، من قبيل كتاب شانتال دراجون: **عرب، أتقول عرب؟** (١٩٩١م). ومنها نصوص ترجع إلى القرن الخامس عشر.

إلا أن ما يلفت النظر أيضًا فى حشد من هذه الدراسات إنما هو تلك السلسلة الطويلة من الأبحاث، التى تؤكد كيف أن الإنجيل قد تم تزييفه وتحريف آياته وإصحاحاته؛ حتى يتفق وما تريده الكنيسة الكاثوليكية فى روما. ويوضح جيرار ميساديه فى كتابه: **الرجل الذى أصبح إلهًا**، (١٩٨٩م)، كيف أن هناك فى الولايات المتحدة قرابة ثلاثة آلاف باحث فى «جمعية الكتابات الإنجيلية» يقومون بالتحقيق فى الحقائق الكامنة فى الإنجيل، وأن أبحاثهم لا تظهر إلا فى المجلات الشديدة التخصص، وبالتالى فهى بعيدة عن متناول الجماهير العريضة.

ولعل ذلك الموقف الممتد منذ المجامع الأولى حتى يومنا هذا هو السبب

فى موجة الإلحاد التى تسود المجتمع الغربى، خاصة وأن هذا الاتجاه الكاشف قد بدأ بشكل مكثف مع عصر التنوير، الذى قام ضمن ما قامت عليه أسسه على مناقضة الترجمات المغلوطة، وعمليات التعتيم وتفشى سلطة رجال الدين، ومنها محاكم التفتيش وصكوك الغفران المعروفة - وإن كان هذا الخط قد تزايد بعد مجمع الفاتيكان الثانى حتى إن هناك أبحاثا مثل كتاب، بولتمان: **تاريخ التراث الكنسى**، (١٩٧٣م)، وغيره كثير، يوضح عمليات التحريف الأساسية خاصة فى مجامع القرون الأولى، ففى مجمع نيقية الأول، المنعقد عام (٣٢٥م) تم خلاله تأليه السيد المسيح، وذلك على عكس أقواله هو شخصيا فى الكتاب المقدس، ثم يجىء مجمع القسطنطينية الأول عام (٣٨١م) ليتم خلاله تأليه الروح القدس - وذلك على عكس الوصف المخالف له فى نفس نصوص الإنجيل بعهديه، وفى مجمع أفيزا عام ٤٣١ تم تحديد الأمومة الإلهية للسيدة العذراء، وجعلها أم الله! وفى مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م، تحددت طبيعة السيد المسيح مرة أخرى بأنها تتضمن طبيعتين فى شخص واحد، كما تم استبعاد الكنائس الشرقية المعترضة على ذلك..

وهناك العديد من المراجع التى تناقش بدعة الثالوث الذى قامت الكنيسة بنسجها وتعتبرها سرا من أسرارها - علمًا بأن السيد المسيح قد فرق فى أحاديثه بين شخصه وبين الله (مرقص ١٠/١٧ - ١٨) و(يوحنا ١٤/٢٨)؛ كما فرق بين شخصه وبين الروح القدس (متى ١٢/ ٣٢) أى أنه - بأقواله - ليس جزءًا من الثالوث اللاهوتى، ولا مساويًا لله، ولا للروح القدس. ويعد فوسيوس، بطريرك القسطنطينية من عام (٨٥٨م إلى ٨٦٧م)، والذى كان يعتبر استبعاد كنيسة الإسكندرية أكبر غلطة ارتكبتها كنيسة روما، من أقوى الذين هاجموا تأليه الروح القدس فى كتاب معنون: «**سر أسطورة الروح القدس**»، وهو أول رفض تفصيلى لتحريف النص اللاتينى للعقيدة، وقد قام مجمع القسطنطينية الرابع، المنعقد عام ٨٦٩ بإدانة فوسيوس وإقالته.

وهذه كلها مجرد شذرات مما اعترى المسيحية من تغيير وتبديل، وليس الغرض من هذا السرد الغوص فى تفاصيل تخرج عن نطاق هذا البحث، وإنما لتوضح كيف أن هناك جمهرة من العلماء والباحثين يؤثرون الحقيقة - أيّا كانت مرارتها - والكشف عن الزيف؛ لتداركه، وعدم الاستمرار فيه. وذلك للشعور العارم لديهم بضرورة وقفة واعية أمينة، يعاد فيها تحديد أمور عدة..

ومن ناحية أخرى هناك خط آخر من المراجع الشديدة الأهمية والمتعلقة بدراسة الاكتشافات الحديثة فى منتصف هذا القرن تقريبًا، مثل «**أناجيل نجع حمادى**» و«**مخطوطات البحر الميت**» التى تم العثور عليها فى منطقة «قمران». وتكمن أهمية هذه المخطوطات الأخيرة فى أنها تكشف عن أصول المسيحية، وارتباطها بعبادات أخرى سابقة عليها لدى الأسينيين.

ومن أهم هذه الكتب البحث الذى أجراه الأب دانييلو: **مخطوطات البحر الميت وجذور المسيحية** (١٩٥٧م) و(١٩٧٤م) وكتاب: «**ثلاثون عامًا من الأبحاث فى مخطوطات البحر الميت**»، بقلم ديبون سومر، عام (١٩٧٧م)، وكتاب الأب رولان دى فو: «**آثار البحر الميت ومخطوطاته**» (١٩٧٣م). بل ومن بين هؤلاء الكتاب من تناول تباين أقوال السيد المسيح فى الأناجيل الرسمية، مثل شفايتزر فى كتابه: «**السر التاريخى لحياة يسوع**».

وهناك أكثر من ذلك، العديد من المراجع التى تناولت موضوع الأناجيل المحتجبة، أو تلك التى استبعدتها المجامع على مر العصور، وخاصة فى القرون الأولى.. ومنها كتاب دانييل روبس: «**الأناجيل المحتجبة**» والذى يشير إلى أن هناك العديد من العادات الطقسية التى تمارس حالياً، ولا وجود لها البتة فى الكتاب المقدس، وإنما هى مأخوذة عن الأناجيل المستبعدة، ومنها الاحتفال بيوم القديس «بواكيم» والد السيدة مريم العذراء فى ١٦ أغسطس، ويوم ٢٦ يوليو كعيد للقديسة آن والدتها، ويوم تقديم السيدة العذراء للمعبد فى ٢١ نوفمبر، وذلك بخلاف ما فرضته المجامع، مثل مجمع «لاتران الرابع»

المنعقد عام (١٢١٥م) والذى أجبر الكاثوليك على مبدأ «الاعتراف» دوريًا، وعلى «المناولة» سنويًا.

وكل هذه الأبحاث والمراجع تتضمن حقائق يؤدى إخفاؤها إلى العديد من التساؤلات، مثلما حدث للقديس «أندريه» شقيق القديس «بطرس» والذى حاول منع الجماهير من تسليم السيد المسيح، وهرع إلى الصليب، حيث ظل يحتضر لمدة يومين!! وهناك «برنابا»، الحوارى الوحيد الذى باع كل ما لديه ليتبع السيد المسيح، والذى اختاره الروح القدس شخصيًا، ليقوم بالدعوة مع شاؤول (بطرس) (أعمال الرسل ١٣/٢-٣).. ومع ذلك فقد تم استبعاد إنجيليه؛ لأنه يبشر بمجئ سيدنا محمد ﷺ.

أما أهم خط فى كل هذه المراجع، على الرغم من أهميتها جميعًا، فهى تلك التى تتناول التنبؤ بمجىء سيدنا محمد فى الإنجيل بعهديه، ومنها: «**محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن**» للسيد إبراهيم خليل أحمد، وكان قسًا قبل أن يسلم، وكتاب الباحث الهندى عبدالصمد صارم السهوارى: «**البشائر**»، وكتاب: «**هكذا بشرت الأناجيل**» بقلم بشرى زخارى ميخائيل، وكتاب الأب دانيال بنيامين كلدانى الذى أسلم وعنوانه: «**محمد فى الإنجيل**»، وتتفق هذه المراجع وغيرها - حتى وإن لم تستخدم كلها نفس الاستشهادات التى تبشر بمجئ رسول يأتى من بعدى اسمه أحمد، فإنها تتفق جميعها على أن كلمة «برقليط» التى تمت ترجمتها إلى كلمة «مواس» أو إلى كلمة «الروح القدس» إنما تعنى أحمد. وهو لفظ ثابت فى إنجيل يوحنا الذى يعد أحد الأناجيل المتداولة الأربعة. وتم التحريف من «بريكليتوس» وتعنى «أحمد» إلى «برقليط» أو إلى «مواس»!

ولم نتناول كل هذه الآراء بتشعباتها وتنوع موضوعاتها - والتى تشير جميعها إلى تحريف مقصود يتفق وأغراض المتعصبين - إلا لتطرح ما يخرج به قارئ هذه المراجع، علمًا بأننا لم نشر إلا إلى الجاد والعلمى منها، ألا وهو:

إن التعصب قاد حملات شعواء ضد الإسلام. وها قد تمت المصالحة بين هذا التعصب وبين اليهودية؛ ليشتد الموقف عداءً من الإسلام - على الرغم من مطلب مجمع الفاتيكان - وأوضح صورة له كما أشرنا من قبل: والتى تعد حرب الإبادة فى البوسنة والهرسك مجرد جزء منها.

وإذا ما خرجنا من ذلك كله بأن المسيحية تؤمن بكافة الرسل والأنبياء حتى السيد المسيح، وتتوقف عند ذلك على الرغم من الوثائق التى تشير إلى مجىء محمد ﷺ، وأن الإسلام يعترف بالديانتين الوحدويتين السابقتين: ألا يستدعى الموقف الحالى وكل ما تتعرض له مصر والشعوب العربية والإسلامية من ضغوط وألاعيب، ألا يستدعى هذا، حقنًا لمزيد من المجازر، أن يتكاتف رجال الدين فى مصر من أقباط ومسلمين كرجال يؤمنون بالله الواحد وباليوم الآخر، أن يتكاتفوا لدراسة كل هذه الوثائق أو إعادة النظر فيها، والخروج منها برؤية هدفها الحقيقى، بعيدًا عن التعصب، مما قد يؤدى إلى تصويب ما تم تزييفه عبر القرون، وليس المطلوب من أحد أن يغير عقيدته ولا دينه وإيمانه، لكن المطلوب هو أن يعيد المتعصبون النظر فى موقفهم بسماحة عقل وبقلب رحيم، وأن يأخذ كل صاحب حق حقه!

ألا تستحق كل هذه الأحداث الدامية، التى تخرج بكل - تأكيد وثقة - عن تعاليم السيد المسيح، ألا تستحق أن تأخذ الكنيسة المصرية مبادرة إيجابية لإدانة هذه الأشكال المتعصبة التى لا تستند - يقينًا - إلى المسيحية السمحة، وأن تضرب المثل الأعلى بنفسها فى التمسك بالحق، - بكل الحق -، بدلاً من التواطؤ صمتًا وخاصة أن هؤلاء الصرب الذين يقيمون مجازرهم التى تتنافى وأى بعد إنسانى، واكتفى العالم المتحضر بإدانتهم كلامًا فحسب، هم للأسف يزعمون أنهم أرثوذكس.. نظنه اختيارًا واجبًا شرعًا وإنسانيًا.

ليغفر لنا الله جميعًا، فكلنا شركاء بالفعل أو بالصمت، وليعاوننا على أن نسلك طريقًا جديدًا لصالح البشر أجمعين، وأن نتعاون - لا من أجل

مساندة لمسلمى البوسنة والهرسك فحسب - وإنما لنبذ التعصب وحروب الإبادة فى كل مكان، فدين المسيح الحق قائم على الحب والتسامح والعطاء، وكلنا عابرو سبيل، وسنلاقى وجه الله يوم الحساب.. فتلك الشرعية الدولية التى يتم فرضها قهرًا باسم الدين هى سياسة اقتلاع وإبادة لا يقرها أى شرع فى الوجود.

لذلك آثرنا أن نتناول فى هذه المقدمة «موقف الغرب من الإسلام» بشكل عام قبل أن نتعرض لأهم النقاط الأساسية فى فصول مستقلة، لنعرف حقيقة الغرب المتعصب وحقيقة موقفه من الإسلام والمسلمين والعرب.

زينب عبدالعزيز

١٩٩٣

تمهيد

فى أواخر القرن العشرين وفى زمن تكشفت فيه كل الحيل والألاعيب التى تستخدم من أجل الإطاحة بدول وحكومات وأفراد، فى زمن أصبحت فيه الأحداث كاشفة، تتحدث عن نفسها دون الحاجة إلى مستندات لإثباتها، لم يعد خفيًا على أحد - اليوم - أن القضية الحقيقية ليست مجرد صراع العالم الغربى ضد العالم العربى فحسب وإنما هى بكل أسف صراع التعصب ورياحه ضد الإسلام.. إنها قضية تعصب دينى / سياسى بعيدة المدى، متعددة الأشكال استخدم فيها الغرب كل ما يمكن وما لا يمكن تصوره من وسائل لتحقيق أغراضه.

ولن نبدأ بسرد كل ما تعرض له الإسلام منذ بداية انتشاره من حملات تشويهية فى مختلف المجالات، وصلت إلى الترجمات المغلوطة لمعانى القرآن. إذ إن معظم ما قام به الغربيون من ترجمات، محرف وملىء بالمغالطات التى تتمشى مع حملة التشهير للحد من انتشار الإسلام، ولا نشير هنا إلا إلى آخر ما ظهر منها وهى ترجمة المستشرق جاك بيرك.. ولن نتناول كل ذلك الدس الفظ للنَّيل من مكانة سيدنا محمد ﷺ وكلها حملات امتدت طويلاً ولمَّا تزل قائمة بل إنها تتضاعف فى يومنا هذا، ويكفى أن نشير إلى ما طالب به مجمع الفاتيكان الثانى ليكف الغرب عن حملات التشويه المغرضة القديمة الأزل والمسؤولة عن الصورة الباطلة للإسلام فى الغرب.

لا .. لن نتناول تلك المحاولات الدؤوب التى بدأت منذ ظهور الإسلام للحد من انتشاره، ويكفى أن نضرب مثلاً لموقف الغرب المتعصب بآخر الأحداث التى تشغل الساحة العالمية وهى:

● غرس الكيان الصهيوى فى فلسطين المحتلة.

● حرب الخليج المفتعلة.

● حرب الإبادة الدائرة فى البوسنة والهرسك.

فعلى الرغم من مضى أكثر من خمسين عامًا على احتلال أرض فلسطين وطرد الفلسطينيين والعمل على طمس معالم وجودهم لم يتخذ الغرب أى موقف حاسم فعال لطرد غزاة متعصبين ومنعهم من إقامة دولة عرقية / دينية - حتى وإن كانت إقامة هذا الكيان تناقض ما تنص عليه تعاليم الإنجيل الذى يتبعه الغرب، بل حتى وإن جاء ذلك على حساب المسيحيين فى الشرق الذين يحاول الغرب «امتصاصهم» فى الكنيسة الغربية طمسًا لعملية الانشقاق والخلافات الدينية القديمة، والذى يحاول استخدام المتعصبين منهم فى فتن طائفية داخلية.

إن الكيان الصهيونى فى فلسطين ليس مجرد تحقيق لوعد سماوى مزعوم، وإنما هو نتيجة لصراعات المصالح الاستعمارية فى المنطقة ودرءًا لما يطلقون عليه «عقدة الذنب» التى شعر بها الغرب - أو التى تشعر بها الكنيسة البروتستانتية حيال الكنيسة الكاثوليكية، كما أن هذا الكيان الصهيونى هو بمثابة الحربة التى يوجهها الغرب فى قلب الشرق الأوسط بمساندة كاملة من الولايات المتحدة الأمريكية، فلم يعد خفيًا على أحد أن الصهيونية السياسية تستخدم الإنجيل كدعامة أيديولوجية لتنفيذ أغراضها.

وقد أصبح الشعب الذى طردته شعبًا بلا اسم ولا أرض، وتم إخفاء العملية برمتها تحت غلالة مفضوحة من العصرية والديمقراطية والعدالة - فلقد تم

حذف فلسطين من المعاجم الجغرافية الحديثة، كما تم حذف اسمها من الطبعات الجديدة من الكتاب المقدس راجع الطبعة الحديثة من Pierres Vivantes.. وبعدما كان الحديث يدور حول تحرير يافا والضفة فقد توارت يافا فى طى الكتمان ولا تتناول المحادثات حاليًا سوى موضوع الضفة.

فهل يدرك الغرب فداحة ما يقترفه ضد المسلمين والعرب، بل وضد العقيدة التى يعتنقها، وخاصة أن هناك من بينهم قلة مازالت تعترف بالحق، وبعضهم من رجال الدين المسيحى فها هو الأب جان لاندوزى، وهو واحد من رجال اللاهوت يؤكد كيف أن إقامة دولة إسرائيل المزعومة فى العهد القديم تناقض ما ورد فى العهد الجديد وأنه بوفاة المسيح قد أصبحت الأرض المقدسة ملكًا للجميع(...) وأن حق الملكية قد انتقل إلى كل الذين يعيشون عليها وكانت هذه النقاط الرئيسية التى تناولها مؤتمر «المسيحيون فى العالم العربى» المنعقد فى باريس فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٧.

رغم ذلك للأسف يستمر الغرب فى نشر مغالطاتهم السياسية والدينية ويتمادى فى تطرفه لدرجة تكوين حركة فى سويسرا باسم «المسيحيون الصهاينة» بل ويستمر فى مساندة دولة عنصرية حتى وإن كان فى ذلك إنكار لحياة السيد المسيح ولمعنى تجربته على الأرض.

لقد كتبت الأديبة سيمون فيل Simone Well قائلة: «لا يمكننى أن أكون مسيحية لأن الديانة المسيحية مازالت تعبد إله إسرائيل» ولم يرد عليها ليفند رفضها هذا أىٌّ من رجال اللاهوت (**خطاب إلى أحد رجال الدين**)..

إن الحركة الصهيونية - بعد مؤتمر بلتيمورا عام ١٩٤٢ - قد تلفعت بالعصرية والحداثة بنفس المنطق الذى استخدمه «منبوذو أوروبا» لغزو القارة الأمريكية وانتزاعها من أصحابها الهنود الحمر، تحت زعم العصرية والحداثة ويستمر الصمت فى الغرب إخفاءً لجرائم تتكرر ولا يتصدى لها أحد طالما أنها تدور مع «الآخر» مع من يطلقون عليه «العالم المتخلف» الا

يبدو الأمر وكأن الحركة العنصرية تقول للولايات المتحدة الأمريكية: «لقد صمت العالم على فعلتك وعليه أن يصمت على فعلتى» وذلك تحت شعار «الأمريكانية = الصهيونية» المعلن آنذاك؟!

ولا يتسع المجال هنا لتناول حرب الخليج بتفاصيلها وكيفية نسج خيوطها وتنفيذ مخططها اللاإنسانى تلك الحرب التى انتقمت فيها أمريكا لفضيحتها فى فيتنام، فالمجتمع العالمى يعرف كيف استخدمت الولايات المتحدة الأمريكية حكومة العراق لضرب إيران، ثم للتواجد فى لبنان ثم لتحتل الكويت وكيف تذرعت الحكومة الأمريكية بذلك التدخل «المرسوم» لتسحق جيش العراق وتضرب الشعب العراقى والمنشآت المدنية العراقية فى سرعة وبانتقامية لا رحمة ولا منطق فيها سوى منطق «رعاة البقر» الذى نشأت عليه.. ويتضافر الغرب ليشارك فى لعبة التعتيم والترويج الإعلامى الذى قام بدور رئيسى فى هذه الحرب.. ويزداد الصمت صمتًا طالما تم تنفيذ المطلوب.. والمطلوب هو: ضرب القوى العسكرية فى العالم العربى لإضعافه وتقسيمه وبذر الشقاق بين أبنائه واستنزاف أمواله والتحكم فى ثرواته النفطية والمعدنية والبشرية، وباختصار: استعماره بشكل عصرى متحضر! على أن يتم ذلك كله على حساب العرب بأموال العرب وبأيدى العرب!!

أما حرب الإبادة الأخرى فى يوغسلافيا والتى شنها الصرب ضد شعب البوسنة والهرسك، فإن متابعة أحداثها ومظاهر التعصب فيها تغنى عن أى تعليق ويكفى أن نذكر كيف سارع الغرب بالتدخل لإيقاف الصراع فورًا عندما كان الأمر يتعلق باستقلال كرواتيا الدولة المسيحية.. وكيف أن نفس ذلك الغرب - بكل ما يلوكه من شعارات الحرية والعدالة والمساواة قد تلفع بالصمت والتواطؤ عندما أصبح الاستقلال يتعلق بشعب البوسنة والهرسك المسلم.. وذلك لأن استقلالها سيؤدى إلى وجود دولة إسلامية فى قلب أوروبا، وهو ما يرفضه الغرب ويتكاتف للحيلولة دون وقوعه.. وللغرب موقف سابق

مماثل تقريبًا إذ أن واقعة تركيا ليست ببعيدة عن الأذهان..

فأولى بوادر إمكانية إنشاء أمة إسلامية عربية موحدة سياسيًا من الإمبراطورية العثمانية إلى بقية البلدان العربية قد لاحت فى العقد الأول من القرن العشرين تقريبًا وسرعان ما تضافر الغرب، لضرب هذه المحاولة، وتقسيم العالم العربى بأيد عربية أيضًا. فقد أغرى الشريف حسين بن على حاكم مكة آنذاك تحت زعم إقامة أمة عربية موحدة ليعلن الحرب باسم العرب على الدولة العثمانية ودخل الحرب إلى جانب الحلفاء لتحقيق ما لوّحوا له به.. ولكن، سرعان ما أزاحه نفس ذلك الغرب ليتقاسم المنطقة، وهذه هى الحيلة التى استخدمت لتوقيع اتفاقية سايكس / بيكو، التى أدت إلى تقسيم العالم العربى بين إنجلترا وفرنسا.. وتم ضرب الدولة العثمانية لتتحول تركيا إلى دولة علمانية غربية، تستخدم الأحرف اللاتينية بدلاً من اللغة العربية التى هى لغة القرآن وشعار إسلامها.. وما أن تم إعلان فصل الدين عن الدولة حتى سارعوا بإلغاء وزارة الأوقاف وكافة المدارس الدينية.. وفرض الأحرف اللاتينية بدلاً من العربية.

إن اختفاء السلطنة العثمانية عام (١٩٠٩) وسقوط الإمبراطورية الذى أعقبه إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ محا بالتدريج ذلك الإطار الذى كان الفكر الإسلامى يتحرك بداخله، خاصة وأن الإمبراطورية العثمانية كانت تمثل ملجأ - حتى وإن كان رمزيًا - لكل الذين كانوا يعترضون فى مصر على النظام البريطانى والسيطرة السياسية والهيمنة (جورج كوران: **أوروبا والغرب**).. إن القرار المفاجىء بوقف استمرارية المؤسسة السياسية الإسلامية قد أدى إلى موقف لا سابقة له فى أرض الإسلام.. ولاشك فى أن قرار مصطفى كمال أتاتورك «ليس إلا نتيجة غرس الأفكار العلمانية فى أرض الإسلام وهو قرار يأتى فى امتداد توسع الغرب وثقافته (...) وبذلك أزيح القانون الدينى / السياسى للإسلام ومحيت شرعيته» (جوزيف مايلا: **المثالية**

والعنف) وابتلع البعض طعم «لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين» كأنهم يرددون ما لقيصر لقيصر وما لله لله!! وأصبحت تركيا أول دولة مسلمة يمتصها الغرب تحت زعم الحرية والعصرية والمدنية.. لقد امتصها لدرجة إدخالها عضوًا فى السوق الأوروبية المشتركة! وها هو الغرب يحاول تكرار نفس اللعبة تحت زعم مبادئ العصرية والحداثة والتحضر والتقدم ويواصل الغرب لعبة الطرد أو الابتلاع.

إن ما قررته فرنسا بالنسبة للمهاجرين العرب وخاصة المغاربة والجزائريين هو بعينه الامتصاص أو الطرد ويكفى مراجعة تقرير وزيرها لوبين Le Pen.. والهدف ليس بجديد على حد قول محمد قاسمى «فالإنسان العربى لم يعد يثير قضايا عرقية فحسب، وإنما يثير قضايا ثقافية كاشفة للغرب تؤدى إلى الرغبة فى رفضه أو استبعاده».. وليست كل محاولات الردع التى يكيلها الغرب الممثل فى حلفائه الثلاثة، إلا تحالف من أجل تحقيق هدف واحد.

وتطالب فرنسا حاليًا، على لسان وزيرها ذاك، بطرد ثلاثة ملايين مغربى أو إرغامهم على ترك دينهم، ولغتهم، والذوبان فى الجنسية الفرنسية، مع إصرارهم على رفض منحهم حق المواطنة الكاملة، ورفضها حتى إقامة مساجد، يؤدون فيها الصلاة.. والغريب أنها فى نفس ذلك الوقت، تنتقدهم لقيامهم بالصلاة فى الأزقة والأماكن المتدنية، ثم تعلن: «إنها غير مستعدة لترى مناظرها الطبيعية ترشق بالمآذن». (اتيين برونو: **الإسلام الراديكالى**).

وتُكثف فرنسا جهودها لافتعال الحجج لضرب المسلمين، وانتقادهم فى أراضيها، حتى فيما يتعلق بالزىّ، ولا نجد ما نرد به على تلك الحملة التى تفجرت بسبب طالبة محجبة إلا أن نسأل: هل هناك صورة واحدة للسيدة مريم بلا حجاب؟! لماذا إذن يطارد الغرب الحجاب بعد أن خلعه؟ إلا أنه أصبح رمزًا من رموز الإسلام؟! بل ان الحجاب فرض فى اليهودية وفى المسيحية!

ولا حصر لمختلف أنواع الاضطهاد التى يمارسها الغرب، ذلك لأن الصورة المزيفة التى كونها على مر العصور من الاستعمار الفكرى والثقافى والعسكرى، جعلته يرى العرب بأقلام كبار كتابه ومفكريه على أنهم: «شعب من الرعاع» (مونتسكيو)، «أمة سفاح» (دى جوبينو)، «تكرس جسدها وروحها للانتقام (بلزاك) و«أن الإسلام هو الإنكار الكامل لأوروبا. فالإسلام فى زعمهم هو احتقار العلوم، وإلغاء المجتمع المدنى، وهو الغباء القاتل للعقل السامى، والذى يدفع العقل الإنسانى إلى الضمور، ويغلقه أمام أية فكرة رقيقة، وأمام أى شعور مرهف وأى بحث عقلانى، ليضعه أمام شمولية خالدة هى: الله هو الله».. (١٥) ومن المؤسف أن يأتى هذا الاستشهاد الأخير على لسان أحد كبار مفكرى القرن التاسع عشر فى فرنسا، هو القس آرنست رينان Ernest Renan ليضيف آخر، «إن شريعتهم الملعونة التى أعطاها لهم محمد تأمرهم بإيذاء الآخرين الذين لا يدينون بإيمانهم»، ويزايد آخر: ويقولون إنهم من سلالة إسماعيل ابن هاجر، خادمة هذا النبى».. (جان جانيه) ويشهد سفر التكوين بأنها كانت زوجته.. وهى سبة لا يزال الغرب يتناقلها كنوع من التحقير والتدنى لأصل العرب. بل إنها أحد أسباب التزييف الذى قام به التعصب لاستبعاد إسماعيل - أبى العرب أجمعين - من نسل إبراهيم وسلبه شرعيته كابن بكر له ضعف ميراث إخوته. وهو ما سنتناوله بالتفصيل فيما بعد.. بل ها هو جوستاف فلوبير كواحد من كبار أدبائهم يحسم الأمر قائلاً: إننى أطلب باسم الإنسانية أن يسحق الحجر الأسود، ويلقى رماده فى الريح، وأن تهدم الكعبة وأن يدنس قبر محمد، إنها الوسيلة الوحيدة لإحباط التعصب»!!..

أما عن الحجاج المسلمين، فيقول أحدهم: إنهم يفقأون عيونهم بعد مشاهدة قبر الرسول حتى لا يروا أى شىء دنيوى بعد ذلك» (اجريبا دوبنييه) وينتهى الأمر بأن يصبح اسم العرب سبة فى الأدب الفرنسى.. (الفريد جارى).

ذلك هو ما تتشربه الأجيال الغربية بأقلام كبار مفكريها على مر العصور..

فمن يا ترى هو المتعصب؟! وإلى جانب هذه الصورة المريرة دأب الغرب على تحريف الأسماء العربية التى قام على أكتافها بالفعل عصر النهضة الأوروبى، وذلك لطمس جهود العرب وفضلهم على الغرب.. وتحولت الأسماء إلى كلمات غريبة الإيقاع، من قبيل Albumazar, Avicenne, Averoes بدلاً من ابن رشد وابن سينا وأبى معشر!.. بل ومازال الغرب مصرًا على هذا التحريف وخاصة تحريف اسم سيدنا محمد ﷺ Mahomet بالفرنسية و Macometto بالإيطالية.. وليس الغريب أن يستمر الغرب فى هذا التحريف حتى يومنا هذا فحسب، وإنما الغريب أن يقع بعض المثقفين العرب فى هذا المخطط دون تصويبه، ومواصلة تكراره تمشيًا مع ما يظنونه عصرية!.. ومن الطريف أن يجيد كتاب الغرب كتابة اسم محمد صحيحا حينما يتعلق بأى فرد إلا النبى - صلوات الله عليه -..

ولم يكتف الغرب باستبعاد العرب عن أصل الحضارة، وإنما يتهمهم من ضمن ما اتهمهم، بأنهم السبب فى حرق مكتبة الإسكندرية بأمر من الخليفة عمر: (بولا فيلبيه) وأنهم قاموا بتسخين مياه حمامات الإسكندرية طوال مدة ستة أشهر بمحتوياتها (ديدرو).. فى حين أن الخليفة عمر، ليس بريئًا من هذا الاتهام فحسب، بل ها هو واحد من رجالاتهم يؤكد بعد بحث دقيق: «أن مكتبة الإسكندرية والسيرابيون الملحق بها قد حرقها المسيحيون فى القرن الرابع الميلادى، وقاموا باغتيال «هيباتى» الشهيرة، فى الشوارع، وكانت فيلسوفة وعالمة رياضيات. لاشك فى أن هذا يعد تطرفًا منهم لكن لا يمكننا أن نلوم الدين عليه، ويجب أن نغسل وصمة الجهل عن هؤلاء العرب المظلومين الذين احتفظت لنا ترجماتهم بروائع الفلسفة والطب والعلوم اليونانية إلى جانب أعمال تبعث بأشعة حيوية فى ظلمات عصور الإقطاع» (جيرار دى نرفال)

ولا داعى لإضافة أن هذا الكاتب مثله مثل «فان جوخ»، قد اتهم بالجنون لمجرد خروجه عن السائد المألوف.

ولا نذكر هذا الاستشهاد إلا لاتفاقه مع ما هو مكتوب فى المراجع الكنسية التاريخية، ومع ما قامت به كنيسة روما بالفعل آنذاك، من خلال مجامعها، من عمليات حرق وإبادة أو احتجاز لوثائق تدين تدخلها لتحريف بعض الوقائع والمستندات الدينية لاستبعاد كنيسة الإسكندرية عام (٤٥١) من الساحة السياسية العالمية، مثلما قامت بعد ذلك بقليل بحسم معركة الأيقونات لصالحها للحد من الإسلام الآخذ فى الانتشار آنذاك (برهييه: **معركة الأيقونات**).. وها هو اليوم يأتى رد القضاء البريطانى فى قضية «سلمان رشدى» استمرارًا لنفس الموقف حين أعلن: «إن القانون يحمى العقيدة النصرانية وحدها من التطاول، أما إهانة الإسلام ونبيه فهى خارج الموضوع». (جريدة «المسلمون» ١٩٩٢/٥/٢٩).

ولا يتسع المجال هنا لتناول الحروب الصليبية التى كانت سلاحًا ذا حدين، للحد من انتشار الإسلام، وانتعاش التجارة والاقتصاد معًا، إلى جانب أنها كانت أكثر الوسائل فعالية لجمع العناصر المسيحية المشاغبة فى الغرب تحت سيادة البابا للقيام بمهمة جريئة شاسعة هى الاستيلاء على الأماكن المقدسة» (جورج تيت: **الشرق والحروب الصليبية**)، وإنما سنشير إلى الصلات الحديثة بين الغرب والشرق، الممثلة فى حملة نابليون عام (١٧٩٨م) – تلك الحملة التى يُرجع إليها البعض بداية «النهضة» فى مصر والعالم العربى، وذلك على الرغم من أن نابليون قد أعلن من ضمن ما أعلنه أنه قد أتى لتحرير العرب، وقلبهم ضد الأتراك (راجع: **العرب والإسلام وأوروبا**).. أى إنها كانت حملة سياسية إلى جانب كونها حملة صليبية جديدة، مقنعة بفريق من العلماء يحمل لافتة «عصر التنوير».

بل إنها فى حقيقة الأمر كانت تمثل جانبًا سياسيًا أكثر أهمية، ذلك أن

احتلال مصر آنذاك يعنى فى نظر الغرب الفرنسى إمكانية تمهيد الطريق إلى الهند عن طريق البحر الأحمر والخليج الفارسى.. مما سمح لفرنسا بعد ذلك الحصول على مواقع تجارية متينة فى الشرق الأوسط، وتعويض ضياع جزر «الأنتيل» التى احتلها البريطانيون.

وقد بدأت هذه الحملة الصليبية الفلسفية فى أواخر القرن الثامن عشر تحت حماية علم الثورة الثلاثى الألوان، باسم الحرية والمساواة والإخاء.. كما أن التوسع الاستعمارى فى القرن التاسع عشر قد تم أيضًا تحت اسم مثاليات الحرية والتطور وتقدم أوروبا الغربية.. (المرجع السابق).

وفى واقع الأمر أن هذا التوسع الاستعمارى لم يبدأ بحملة نابليون فحسب، وإنما بدأ بالفعل عقب معاهدة باريس عام (١٧٦٣م)، التى وضعت حدًا لحرب السنوات السبع، وحرمت فرنسا من ركيزتين بعيدتين هما كندا والهند.. فاتجهت إلى السياسة التوسعية بناء على تقارير شوازول Choiseul وتاليران Tallayrand لاحتلال الأراضى القريبة منها من شمال أفريقيا. وقد تم ذلك تحت شعار «الحماية» قبل أن تكشف فرنسا صراحة عن تعبير «الاستعمار».

وليس الغرض من هذا السرد الخاطف للأحداث والوقائع إلا توضيح أنه على الرغم من كافة عمليات التورية والتعتيم، وعلى الرغم من المظاهر البراقة أو حتى المهينة منها، فإن الغرب لم يكن أمينًا أبدًا فى موقفه من الإسلام والمسلمين، وإنه منذ البداية، ومع انتشار الإسلام، لجأ الغرب إلى حروب صليبية مختلفة، تنوعت مسمياتها ومجالاتها لكن هدفها لم يتغير.. فحرب الأيديولچيات وحرب الثقافات، وحرب الإعلام وحرب القيم والأخلاق، وحرب التجسس والتعذيب، بل وحرب الميكروبات والمجاعات والمخدرات على سبيل المثال لا الحصر، باتت من الأمور التقليدية المفضوحة التى يستخدمها الغرب سواء مباشرة أو عن طريق أجهزة معينة أم حكومات عميلة، ويكفى أن

نقرأ آخر ثمانية كتب ظهرت فى فرنسا فى شهر مايو وحده من عام (١٩٩٢م)، وكلها تكشف تواطؤ الإعلام الغربى فى حرب الخليج.

أما عن حرب المعلومات، ولا نذكر منها غير نموذج واحد من المعاجم على سبيل المثال: (تلك المعاجم والموسوعات التى يلجأ إليها المثقفون والباحثون والطلبة يتناقلون عنها دقة المعطيات)، فماذا نقرأ عن المسيحية فى واحدة من أكبر الموسوعات هى Encyclopedia Universalis: أن المسيحية انتقلت من العالم الرومانى إلى البرابرة، وامتدت فى الغرب خاصة، ثم منذ القرون الوسطى فى الشعوب السلافية، وإذا ما تراجعت فى المناطق التى هزمها الإسلام، **فهى لا تكف عن إرسال المبشرين إلى المناطق النائية انطلاقًا من الغرب**: تجاه آسيا وأمريكا اللاتينية فى القرن السادس عشر، وتجاه الأمريكتين فى القرن السابع عشر، وتجاه أفريقيا فى القرن التاسع عشر».. وإذا ما تناولت نفس هذه الموسوعة النصوص الإنجيلية تقول: «إنها ممتازة حتى إذا لم يمكنا التأكد من صحة مضمونها الكتابى فى كافة النقاط (...) إن الأناجيل ليست كالقرآن، عبارة عن سيرة ذاتية أملاها الله للنبى بأعجوبة، وإنما هى تقول كلام الله نفسه بأسلوب إنسانى (...) وعلى خلاف الكتب المقدسة للديانات الأخرى، فإن الأناجيل ترجع إلى نفس قرن المسيح».. والنص غنى عن أى تعليق سواء من حيث دوره التبشيرى أم من حيث إن القرآن ليس سوى سيرة ذاتية للرسول، وإنه لم ينزل عليه فى حينه، ولا من حيث إن الأناجيل الثابت تزييفها وتحريف محتوياتها تقدم على أنها ممتازة حتى إذا ما لاحظ القارئ تضاربها وتناقضها!..

وتستمر لعبة الألفاظ والإسقاط على الآخر.. والمغالطات.

إن حججًا وتعبيرات من قبيل «التعصب» و«التطرف» المقرونة بالإرهاب والتى يفرضها الغرب على العرب تماثل فى جوهرها حجة الستار الحديدى قديمًا ذلك الستار الذى زعم الغرب أن الاتحاد السوفييتى كان قد أحاط به

نفسه، ثم تكشف مع الوقت أن الغرب هو الذى فرضه من حوله.. والنتيجة التدميرية التى آل إليها الاتحاد السوفييتى بأيدى زعامته العميلة ليست بخافية على أحد. وليس المجال هنا مناقشة هذا الموضوع الذى كشف عنه الغرب بالتفاصيل الفاضحة لأكبر المتواطئين فيها، وإنما المجال لفت الأنظار إلى أن الغرب لم يغير من المخطط الذى وضع منذ القرن السابع إذ يصنعون ستارًا من صنعهم يبررون به محاربة الإسلام ونبيه «الذى يصفونه بالمحتال» فى زعمهم ومحاربة العرب لارتباطهم بالإسلام الذى أتى مكملاً ومصوبًا لنفس العقيدة التوحيدية. فعلى حد قول «نابليون بونابرت» - وبالرغم من موقفه الاستعمارى - إلا أنه أدرك: «أن الديانات الثلاث التى نشرت معرفة أن الله دائم غير مخلوق، سيد وخالق البشر، قد خرجت من بلاد العرب. إن موسى، وعيسى المسيح، ومحمد: عرب ولدوا فى ممفيس، وفى أريحا، وفى مكة (**الحملة الفرنسية**)... إلا أن كنيسة روما قد جاهدت لتعتيم هذه الحقيقة، وحجبت ما حجبت تمسكًا بالسلطة وطمعًا فى السيطرة.

إن ما حدث فى الدين المسيحى من تحريف مخطط أشبه ما يكون بما حدث فى لعبة الفن الحديث فى مطلع هذا القرن.

ولن نشير هنا إلى العديد من المراجع التى تناولت هذا الموضوع، وإنما سنكتفى بالإشارة إلى إنجيل يوحنا، وهو أحد الأناجيل الأربعة المعترف بها، والذى يتضمن بوضوح أن السيد المسيح فى العشاء الأخير، قد أعلن عن مجىء «رسول» Periklytos آخر سيكمل الرسالة من بعده، وأنه سيوحى بها إليه عن طريق السمع وينقلها هو بالكلمة. إلا أن علماء اللاهوت قد حرفوا معنى كلمة Periklytos اليونانية القديمة إلى كلمة «الروح القدس» وهو مالا يتفق والمعنى الواضح فى الإنجيل وسوف نتناولها بالتفصيل فى فصل تال.

وإذا كان أمر استكمال الرسالة بهذا الوضوح فى إنجيل يوحنا المعتمد رسميًا، فما عسانا نجده فى الأناجيل المحتجبة التى يطلق عليها رجال

اللاهوت Apocryphes، أى المحفوظة سرًا أو المشكوك فيها؟!

ولا يسعنا المجال هنا إلا لنسأل: لماذا لا يتحدث الغرب عن الحكومة الاندماجية المسيحية لفخامة الأب لوفيفر Mgr. Lefebvre فى فرنسا وطمس هوية مسيحيى الشرق وأقباطها؟ لماذا لا يتحدث عن التوسع الجامح للأصولية البروتستانتية فى الولايات المتحدة الأمريكية، ولا يصب حربه إلا على الإسلام بعد أن وصمه بالتعصب والإرهاب؟!

وخلاصة كل هذا القول من جهة أن الغرب الذى قامت نهضته وحركة تنويره - ضمن ما قامت - على مواجهة الكتاب المقدس والسلطة البابوية ومناهضتها، ها هو يتقبل الكتاب المقدس بعهديه، القديم والجديد، بكل ما أجراه فيهما من تعديل وحذف ليصر على توقف الرسالة عند السيد المسيح، بكل ما فى ذلك من تحريف ثابت تاريخيًا ووثائقيًا. ومن جهة أخرى، فإن الإسلام يعترف بالديانتين السابقتين ويستكمل المسيرة ليتمهما. وهذا التعنت فى الرأى لا مخرج منه بالنسبة للغرب إلا بأحد أمرين:

إما محاربة الإسلام واستبعاده. وإما الاعتراف به وقبوله.. أما عن استبعاد الإسلام من الساحة العالمية، فقد بدأه الغرب بالفعل منذ القرن السابع، بل لايزال هناك من يواصلون محاربته بمزيد من العنف لحسم الموقف، مثل القس السابق جان كلود بارو Jean Claude Barreau الذى صدر كتابه فى شهر ديسمبر عام (١٩٩١م)، وحصل على جائزة أدبية لنفس ذلك العام، إذ يقول بعد أن زايد فى تجريح الإسلام طوال كتابه:

«إنه لابد من إعادة صياغة القرآن والحديث والسنة خلال عقد أو اثنين، بمفاهيم عصرية، أو على الإسلام أن يختفى»..! (**عن الإسلام والعصر الحديث**) وهو ما يتمشى مع ما «وضعه الغرب من مخططات لاستبعاد المسلمين من البلدان العربية وإذابة هويتهم وتحطيم انطلاقتهم، وإلغاء عروبتهم لامتصاصهم أو إذابتهم فى دولة اندماجية» (راجع: **أقباط العالم العربى**).

وأما عن الاعتراف بالإسلام وقبوله، فكيف يتفق هذا مع كل ما وثقناه فى بحثنا - وهو قليل من كثير - ورغم ذلك ليس أمام الغرب إلا أن يتخلى عن أنانيته ومخططاته التى لابد أن تنعكس آثار مدمرة لها عليه، إلا إذا أدرك أنه يمثل جزءًا مكملاً فى عقيدة توحيدية واحدة، لا تقتصر على الأنبياء الثلاثة فحسب، وإنما تمتد جذورها فى أعماق مصر القديمة، حاملة مشعل الحضارة، والتى عاش فيها موسى وتشرب حكمتها. وإنما ترجع إلى أخناتون الذى كان أول من هاجم الوثنية، وتعدد الآلهة، وأقام عبادة الإله الواحد الأحد الذى خلق الكون ولم يخلقه غيره أحد..

ومع هذا السرد الخاطف، لابد أن نشير إلى أن هذا التوجه العام للغرب من الإسلام والعالم العربى، لم يخل من بذرة من علماء ورجال دين كانوا أمناء فى فضح موقف الغرب هذا، بل وناصروا الإسلام وموقفه الحضارى، وكشفوا حقيقة دور الغرب.

وبإزاء ذلك كله لا نملك إلا أن نقول: لا، لا لكل الألاعيب الخفية والأيادى العابثة، التى لا تضمر لنا - مسلمين وعربا - غير التعصب من أجل تأكيد زرع الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة، وتقسيم العالم العربى، وضياع هويته وتحويله إلى دولة علمانية عميلة أو تابعة للغرب - على أحسن الفروض - وخاصة بعد نشر بذور التحريف فى عقيدتنا وتراثنا بل وقرآننا، باسم العصرية حينًا والحداثة وما إليها حينا آخر. وذلك كله حتى نفقد هويتنا وأصولنا.

إن على الغرب - ونقولها بلا تجريح أو تعصب - أن يعيد النظر فى كل ما اقترفه من تزييف فى نصوصه الدينية؛ لتشويه صورة الإسلام وأن يلتزم بالمبادئ التى يتشدق بها، مبادئ الحرية والعدالة والمساواة، وأن يكف عن حروبه الصليبية المستمرة، والمختلفة تجاه العالم الإسلامى والعربى، والتى يجد فيها متنفسًا ليحقق أطماعه وسيطرته وترويج تجارة سلاحه واقتصاده بعامة،

وأن يكف عن تقسيم العالم والمجتمعات لسادة وعبيد وشمال وجنوب، وليته هنا يلتزم بالتعاليم الإنسانية، التى بقيت لديه من أقوال السيد المسيح، وأن يلتزم بما جاء فى حديث العشاء الأخير الذى بشر فيه بمجىء سيدنا محمد ﷺ. ومع رفض ذلك كله من جانب الغرب، فليجاهد علماؤنا ومفكرونا فى مشروعهم الحضارى على فضح دور الغرب، وأن نعمل على أن يدرك المواطن الغربى أن الدين لله والأرض للجميع، وأنه لا إلا إلا الله، وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام هم رسل الله لتحقيق ديانة وحدوية واحدة لصالح البشر أجمعين، وأن نعمل على أن يكون لنا مخططنا الفكرى والثقافى العام، القائم على إلقاء الضوء على الجذور الفكرية والثقافية والفنية، لحضارتنا واستلهامها فى بناء أى مشروع حضارى حتى نمحوَ عن جبيننا الفكرى الحضارى وصمة التبعية للغرب، وأن تعود لنا شخصيتنا المستقلة المتميزة.

وقبل أن ننهى هذا التمهيد يجب أن نشير إلى أن المسيحيين فى الشرق أصبحوا يمثلون جزءًا متداخلاً من نسيج الأمة العربية، كما أنهم يمثلون حلقة وصل بين الشرق والغرب، لذلك يتعين عليهم التضافر مع المسلمين والعرب بعامة للحد من الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين لدى الغرب، وتصويب هذه الصورة التى يعرفون تمامًا تفاصيل تزييفها والغرض من ذلك التزييف.. وبدلاً من التواطؤ مع الغرب صمتًا أو الاستعانة به وزعم الاستنجاد به لتدخله وكأنها دعوة صريحة لاستعمار البلاد كما فعل بعض أبناء المهجر المنساقون فى مخطط الغرب، لا نذكرهم فقط بعبارة «مكرم عبيد» حين قال: «إننى مسلم وطنًا مسيحى الديانة»، وإنما نطالبهم باتخاذ موقف فعال لا لحماية الوطن فحسب، وإنما للحد من ذلك التعصب الذى يجتاح العالم متلفعًا بستار الدين.

الفصل الأول

محمــد ﷺ والإســلام

فى عيون الغرب

محمد ﷺ والإسلام

فى عيون الغرب

نتناول فى هذا الفصل ما قام به الغرب لمهاجمة سيدنا محمد ﷺ والإسلام والمسلمين، موجزين ذلك فى خطين أساسيين هما: المجال الأدبى من جهة، وترجمة معانى القرآن من جهة أخرى. والمجال الأدبى هنا يشتمل على استشهادات من الرواية والشعر والمسرح، ومن أدب الرحلات، والأبحاث التاريخية والاجتماعية واللغوية والقواميس والموسوعات - وكلها مؤلفات تتم وفقًا لمخطط واحد وتوجيه بعينه، وهو التشويه والتجريح لهدم الإسلام، أو تساهم فى هذا الهدف ولو بجملة عابرة.

أما فى القسم الثانى من الفصل، فنتناول فيه ترجمات الغرب للقرآن وكيف أنه منذ أول ترجمة تمت فى القرن الثانى عشر، بناء على طلب «بطرس المبجل»؛ رئيس دير كلونى بفرنسا ليهاجم بها الإسلام مواكبة للحرب الصليبية واستمرارًا لها حتى آخر ترجمة طالعناها، كلها تتخذ نفس الخط السابق الإشارة إليه: التشويه للهدم مرورًا بالتشكيك فى نزوله وتثبيته، وصولاً للمطالبة بفرض الدراسة العلمانية على القرآن لفصل الدين عن الدولة. وقد تناولنا ترجمة المستشرق الفرنسى «جاك بيرك» كنموذج لهذا الموقف.

فى المجال الأدبى

عندما يتأمل المرء هذا الحشد من الأباطيل والمغالطات، التى تعج بها المراجع بأقلام كتّاب فقدوا نور الموضوعية، وتاهوا فى ظلمات التعصب،

لا يملك أى باحث عن الموضوعية - إن كانت كذلك - إلا أن يدرك أن الأمر ليس أمر موضوعية فحسب، بل هو الغرض المريض! ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).. وها هى بعض هذه الأقوال المسمومة التى تحتاج لأكثر من وقفة:

«من بين كافة الأنسقة السياسية والدينية التى بُليت بها البشرية، لا يوجد ما هو أكثر تكبيلاً للحرية من الإسلام» (الأب جيوم رينال G. Raynal **التاريخ الفلسفى والسياسى للهند**، 1770).

«لقد ظهر محتال في بلاد العرب، وارتجل الأكاذيب باسم السماء، واستطاع أن يفرضها علي جزء من مواطنيه، وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة، وانتشرت بالسلاح في آسيا وأفريقيا وأوروبا، ويسمحون لمتعصبين طموحين أن يغزوا كل الأرض ويروونها بالدماء.. إن شريعة محمد ﷺ أقيمت بالسلاح، وهي تطيح بالعروش؛ لتقيم الطغيان الإسلامي علي أنقاضها» (هولباخ Holbach: **الأخلاق العالمية**، 1776).

«الإسلام: دين أتى به محمد الذى ولد عام (٥٧١م) بمكة، إحدى مدن شبه جزيرة العرب السعيدة، تحت حكم الإمبراطور موريس.

«لقد كان شديد الذكاء بحيث تعلم العهد القديم والجديد، وتخيل منهما ديانة أقامها نقلاً عن ظهر قلب، وقسمها إلى مائة وأربعة عشر فصلاً مليئة بالروايات والأكاذيب. وهى عبارة عن فريات مجنونة، لا رحمة فيها، ولا نظام. إن هذا الكتاب يعد من يقرؤه ألف مرة بحورية فى الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح»! (**قاموس الفنون والعلوم، ١٧٣٢م**).

«الإسلام يعنى: الله هو الله. إنه دين التوحيد، وليختفى الإنسان، وليختبئ الجسد.. لا صور فيه ولا فن لأن هذا الرب الغيور يغار حتى من رموزه. إنه يستحوذ على الإنسان ولابد له من أن يكتفى به.. فالأسرة قد

تهدمت تقريبًا وكذلك القرابة والقبيلة.. واختبأت المرأة فى الحرملك.. لقد سمح بأربع زوجات، لكنه أقر محظيات بلا عدد.. إن العلاقات قليلة بين الإخوة وذويهم.. ولا يوجد لديهم مسيح، ولا أى وسيط ولا إله إنسان.. إن هذا السُّلم الذى منحتنا المسيحية إياه، والذى يصعد إلى الله عن طريق القديسين والعذراء والملائكة ويسوع، قد ألغاه محمد، كما ألغى أى تدرج إلهى أو إنسانى» (الأب ميشليه: Michelet: **تاريخ فرنسا**، الجزء الرابع، ١٨٦١م).

أما ذلك الفيلسوف الفرنسى الذى يدعى بونو دى كونديلاك B.de Condillac، صاحب المذهب الحسى، فقد كتب عن سيدنا محمد ﷺ قائلاً: «لقد كوّن مشروعه بمحض الصدفة، وسانده بفضل جرأة احتياله، واستطاع أن يتمه؛ لأن الظروف قد ساعدته على ذلك، ولقد كان مصابًا بالصرع، وذات يوم فاجأته زوجته «كاديج» فى إحدى النوبات وتخيَّلت أنه فى حالة وَجْد، واستغل محمد سذاجتها، وأكد لها أنه يرى الرؤيا، وان الله يحدثه خلالها عن طريق الملاك جبريل.

«وقامت «كاديج» بنقل ذلك لنساء أخريات، معلنة أن زوجها نبى، وانتشر الخبر، وتراكمت النبوءات مع تراكم الكلام وتزايده.. فقامت الجماهير باتباع ذلك الرجل الملهم الذى أقنعهم بسخاء خياله».. (**التاريخ الحديث** ١٧٦٧م).

وكان هناك أب وأديب يدعي لويس موريرى L. Moreri، قد كتب قبل ذلك بقرن تقريبًا قائلاً فى: «**القاموس التاريخى الكبير** (عام ١٦٧٤م): «محمد: نبى مزيف، عربى الموطن، ولد عام (٥٧١م) وفقا للتقدير العام.. فقد والديه وهو طفل، وقام عمه أبو طالب بتربيته. ودفعه الفقر ليخدم عند أحد التجار العرب، وعند وفاة هذا التاجر قام بإمتاع أرملته المسماة «كاديج» لدرجة أنه تزوجها، وأصبح وريثها الوحيد. فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته.. وبعد ذلك شارك كلاً من باتيراس، وهو هرطقى يعقوبى، والأب سرجيوس، وهو راهب نسطورى، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع

قرآنه. وبذلك أصبح دينه مكونًا جزءًا من اليهودية وجزءًا آخر من أحلام هرطقية، واستسهالات جنسية لطبيعة منحرفة.. وقامت جماعة من اللصوص، الذين لا يعرفون الله، ولا الدين باعتناق هذه الديانة».

ولم يكن ما كتبه الأب موريرى هذا فى قاموسه بغريب، ذلك أن الأديب الفرنسى بييربيل Pierre Bell، والذى يعد واحدًا من السبّاقين على العصر الفلسفى فى القرن الثامن عشر، كان قد كتب عام (١٦٩٧م) فى قاموسه المعنون: «**القاموس التاريخى والنقدى**» قائلاً عن محمد الرسول ﷺ: «إن الملاك جبريل قد علمه وصفة «طبيخ» تمنحه قوة فائقة للاستمتاع بالنساء، وكان يتباهى بأن وصفة هذا «الطبيخ» التى تعلمها من الملاك جبريل تقوى الكلى. وعندما أكل منها أول مرة كان من القوة بحيث هزم أربعين رجلاً، ومرة أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب»!!.

ولم يكن هذا الوصف لسيدنا محمد بغريب أو جديد، إذ إن عالم الإنسانيات الفرنسى «دومنيك بودييه» D.Baudier، كان قد كتب قائلاً: «إن محمدًا، الغارق فى الملذات المنحرفة، نظرًا لميوله الطبيعية، لم يخجل من أن يقول فى قرآنه إن الله قد حباه من قوة الكلى قوة أربعين شخصًا من أضخم ماجنى الدنيا»!! (**التاريخ العام للأتراك**، ١٦٣٢م). ويواصل نفس المؤلف فى نفس الكتاب قائلاً: «إن المعجزات من علامات الأنبياء، وبما أن محمدًا لم يكن بوسعه أن يقوم الناس بالتأكد من معجزات، فقد استعان بالخدع والخرافة؛ ليسوق أفكار شعبه الفظ الجاهل ويفرضها على كل العرب. وفى محاولة منه لاستتباب الشرع بمعجزات جديدة اخترع ما يلى: كان يجمع الشعب فى الميدان العام؛ ليكون شاهدًا على أن روح الله ينزل عليه، وبينما هو منساق فى اختراع الأقاصيص الجديدة، كانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان ما قرب منكبيه، وتلتقط الحب الذى كان يضعه لها فى فتحة أذنه، موهمًا العرب بذلك أنها كانت تمليه إرادة الله وكلمات شرعه».

بينما كان الأديب «بيير برانتوم» كاتب المذكرات التاريخية الفرنسى الشهير يقول: «هناك كتاب بالعربية عنوانه «**من عادات محمد الطيبة**» يمتدح قواه الجسدية ويتباهى بأنه كان يمكنه أن يضاجع إحدى عشرة امرأة تباعًا، وأن يكرر الجولة فى ساعة واحدة.. عليه اللعنة ذلك الحقير»! (**حياة نساء مستهترات**، ١٦١٠م). ولعل هذه اللعنة ووصفة التحقير هذه وما تضمنته المؤلفات التى لا حصر لها فى كافة بلدان الغرب، فى عصر ظلماته الظالمة هى التى ساعدت المؤرخ الفرنسى وعالم الإنسانيات «دومنيك بوديبه» أن يكتب عن سيدنا محمد ﷺ قائلاً فى نفس كتابه المذكور آنفًا: «إنه لم يكتف بإقامة مَبْغَى فى الأرض، فأقام مَبْغَى آخر فى السماء»!!

وإذا ما تساءلنا عن سر هذه الصورة القاتمة المريرة المهانة التى نطالعها فى المراجع العلمية والأدبية فى الغرب منذ آماد طويلة لم يتوقف نعيقها، نرى الإجابة فى مقدمة كتاب شانتال دراجون Chantal Dragon الصادر عام ١٩٩٠ بعنوان: «**عرب، هل قلت عرب؟**» حيث نقرأ: «إن صورة الإسلام هذه قد تطورت أساسًا بدافع من الكنيسة صبيحة الحروب الصليبية ولم يتعرض لها أحد فيما بعد أو يناقضها بل ظلت الإطار المرجعى الوحيد الذى استمرت الفلسفة والآداب تنهل منه حتى مطلع القرن التاسع عشر».

ولم تكن هذه الرؤية ناجمة عن الدافع أو التيار الدينيين المتعصبين الناجمين بوضوح أكبر بعد هزيمة الحروب الصليبية وإجهاضها فى مهمتها الرئيسية، خاصة وأن الإسلام كان قد تحدى التعصب فى معاقله، أى فى كل من القدس والقسطنطينية فحسب، وإنما لأن العرب - الذين اتخذوا مكانة ثقافية ومكانة روما عسكريًا قد قاموا بنقل حضارتهم إلى الضفاف الغربية ذلك أن انتشار الإسلام قد واكبه ازدهار متألق فى علوم الطب والجبر والبصريات والفلك وغيرها، وفى نفس ذلك الوقت قام العرب بدراسة وترجمة المؤلفات اليونانية ومنها أعمال كل من أرسطو وبطليموس.

لذلك لم يكن الغرب يرمى إلى صد الإسلام والحد من انتشاره عقائديًا فحسب، وإنما طمس معالمه وآثاره أو تشويهها فى كافة المجالات.. وهو ما نراه واضحًا فيما كتبه الأب ارنست رينان كتبرير لتلك الحملات التشهيرية: «إن هذا العلم العربى وهذه الفلسفة لم تكن إلا ترجمات ركيكة للعلم والفلسفة اليونانية. فما إن استيقظت اليونانية الأصيلة حتى أصبحت هذه الترجمات الهزيلة بغير ذات موضوع. لذلك قام فلاسفة عصر النهضة بشن هجوم عليها فى شكل حرب صليبية حقيقية» (**عرب، هل قلت عرب؟** صفحة ٢٠).

وهو استشهاد لا يتضمن إيضاحًا لدلالة ذلك الهجوم العلمى الممثل فى «حرب صليبية حقيقية» أخرى، إنما يؤكد فى الآن نفسه تلك الحملة التى قادها التعصب من قبل بداية الحروب الصليبية العسكرية. إذ لا يمكن لأحد أن يغفل أو ينكر كيف تعرض الإسلام لهجوم منظم منذ بداية انتشاره بأقلام المؤرخين البيزنطيين وعلماء اللاهوت من أمثال يوحنا الدمشقى، وتيودور أبى قرة، وإيليا أو عبدالمسيح الكندى - ذلك الجمع الذى انضم إليه رهبان أوروبا ابتداء من القرن الثانى عشر حتى يومنا هذا.. ولا يمكن هنا أن نغفل ذلك الدور الذى لعبه جمهرة من المستشرقين لتغذية هذه الحملات، حتى من بين أولئك المتلفعين بالعلم والمناهج العلمية من أمثال الكاتب الأسكتلندى أدوين موير (١٨٨٧ - ١٩٥٩) والقس لامنس، وبرتولد، وبرتلز أو ولهاوسن وساشو.. ذلك أن حشدًا ممن قام منهم بزعم الرد على افتراءات الحملات المغرضة السابقة موضحًا بعض الحقائق أو منصفًا، فإنما قاموا بهذا الدور ليتمكنوا من توجيه ضربات أرادوها أشد وطأة كما سنرى.

وغنى عن القول بأن أغلب هذه الحملات قد بدأت حتى بتشويه اسم سيدنا محمد ﷺ لبلبلة القارئ وعدم استقرار اسمه الكريم فى الأذهان، وياله من تعصب! فمن قائل مافوميه Maphomet وبافوميه Baphomet، وماتوموس Mathomos وماكوميتس Macomites، وماكومتو Macometto

ليستقر فى الفرنسية إلى «ماأوميه» Mahomet، تحت زعم أن ذلك هو نسخ اسمه فى الفرنسية!!، ومن الغريب أن نرى كافة كتاب الغرب وخاصة فى فرنسا حيث بدأت وانتشرت واستقرت هذه البدعة «ماأوميه» فإنهم جميعًا يعرفون كيف يكتبون اسم محمد ﷺ صحيحًا حينما يتعلق بأى فرد آخر سوى الرسول عليه الصلاة والسلام.

وسرعان ما أصبح اسم ماكوميه أو باكومتو أو أىّ منهما يعنى فى هذه المؤلفات الموجهة مرادفًا لكلمة ساحر وماجن منحل، وسارق للجمال، وخاطف للنساء، ودجال، ومحتال، بل وكردينال لم يتمكن من أن يصبح واحدًا من البابوات فاخترع دينًا جديدًا ينتقم فيه وبه من زملائه.. بل حتى اسم خديجة عليها السلام قد تم تحريفه ليصبح «كاديج» Cadige حينًا، كما رأينا آنفًا، أو «كادريج» Cadrige أحيانًا أخرى!!

ولا يتسع المجال هنا لتناول كل الذين ساهموا فى هذه الحملات التشهيرية المغرضة، مما قد يتطلب مجلدات ومجلدات.. إلا أن أسطورة الغرب المعروفة ضد سيدنا محمد ﷺ، أو تلك التى «تضفى» عليه صفة الاحتيال قد بدأت تكتسب شكل الإصرار المريض والملح بدءًا من القرن الثانى عشر الميلادى، ونذكر منهم الأب جيبير دى نوجان (١٠٥٢ - ١١٢٤) والأب بيير كلونى Pierre Cluny المتوفى عام ١١٥٦، وجاك دى فيترى J.de Vitry (المتوفى عام ١٢٤٤) الذى أكد أن الشيطان قد زود الرسول عليه الصلاة والسلام بسادة ومعاونين من الشياطين، ومارتيه بولنكو M. Polonco (المتوفى عام ١٢٧٤) الذى «أضفى» عليه صفة رئيس عصابة متحالف مع الشيطان الذى أملاه ديانته، وفنسان دى بوفيه (١١٩٠ - ١٢٦٤) V.de Bouvais صاحب الموسوعة المكونة من أربعة أجزاء والمسماة سبيكولوم Speculum، أى المرآة والتى تناول فيها سيرة «ذلك الأفاق واحتيالاته» فى زعمهم، وبيير بسكازيو (١٢٢٨ - ١٣٠٠) P. Pascasio الذى

ابتدع قصة ذلك الذى حاول أن يصبح كردينالا وفشل فابتدع عقيدة جديدة انتقامًا. وهى فرية تناقلتها الأقلام طويلاً. ومنها توماسو توسكو T.Tosco، والراهب الدومنيكانى ريكالدو مونتركروتش (١٢٤٣ - ١٣٢٠) R.Montecroce وما أكثر عدد الرهبان الذين تناولوا هذا المعطى السخيف والمبتذل معًا.

وفى القرن السابع عشر واصلت الجمعية الرهبانية المكلفة بالدعاية للإيمان بتكليف العديد من الآباء مثل بونا فنتورا مالفوزيا B.Malfozia، وفيليب جوادانيول Ph.Guadennol، الذى يقول عنه همفرى بريدو H.Prudeau إنه «استقى كل توجيهاته ومعلوماته من البابوات ومن المجامع» فى كتابه المعروف باسم: **حياة محمد المحتال، كما رآها المؤرخون العرب والفرس واليهود والكلدانيون واليونانيون واللاتينيون، مصحوبًا بموجز تقويمى يوضح الزمن الذى عاشوا فيه وأصل وطابع كتاباتهم**، باريس عام ١٦٩٩!!! ويا لها من دقة فى التحديد والمعطيات!!.

وتكمن أهمية همفرى بريدو هذا فى أنه كان من أوائل الذين بدأوا يستعينون بالمراجع العربية وغيرها للدلالة على مصداقيتهم العلمية كما راح يدين بعض الفريات الموغلة فى لا معقوليتها. وإذا ما اعتبر البعض المستشرق الهولندى أدريان ريلانت (١٦٧٦ - ١٧١٨) من أوائل الذين أخذوا يتشدقون بالأساليب العلمية والدراسة الدقيقة والإبحار العلمى إلا أنه سرعان ما ينكشف لنراه يندد بذلك الطبع لدى المسلمين، الذين ما إن تبدأ النقاش معهم حتى يسارعوا بالاستشهاد بالقرآن، ثم يضيف قائلاً: «ومع ذلك بقى أن نناقش معهم نفس حجة القرآن ومصداقيته، وإذا ما استطعنا أن نصل إلى هذا، فليس من الصعب عندئذ أن نستخرج لهم من هذا الكتاب بعض الأشياء التى توضح أنه ليس منزلاً» (**دين محمد**، الجزء الثانى، صفحة ١٣٨ - ١٣٩) ثم ينساق فى فريات ضد الإسلام أشد وطأة من فريات من سبقوه.

وفى الإهداء الذى وجهه لأخيه، قبل مقدمة هذا الكتاب، يتساءل آدريان ريلانت قائلاً: «هل من المعقول أن دينًا بمثل عبث الإسلام كما يصفه لنا المؤلفون المسيحيون يمكنه أن يجد ملايين من البشر الذين هُرعوا إليه؟.. فلا يوجد أى دين من الأديان قد هوجم أو افترى عليه مثلما افترى على الإسلام ومع ذلك لم يقم واحد مثل الأب ماراتشى Maracci بعد أن لاحظ اعتناق العديد من اليهود والمسيحيين للإسلام، بتفسير هذه الظاهرة الغريبة بأن المسلمين قد استعاروا من المسيحية الكثير من جوانبها؟ من الضرورى إذن ألا نحارب الإسلام دون أن نعرفه تمامًا، وفرصة هذا الصراع المحكم تتزايد يومًا بعد يوم بسبب العلاقات المتزايدة بين الأوروبيين ومسلمى تركيا وأفريقيا وفارس والهند الهولندية حيث نرى للأسف الكثير من المسيحيين يلطخون المسيحية بالعار. ولا شك فى أن فرصة انضواء المسلمين إلى الإيمان الحقيقى هى أن نظهر لهم العطف والتفاهم فى المناقشات الدينية معهم، بدلاً من أن نسبهم ونكيل الفريات بكل سذاجة..» ثم يطالب المسيحيين المقيمين فى الشرق بألا ينعزلوا وإنما يتعين عليهم التداخل للتعرف على خصومهم من الداخل.

ثم راح يندد بتلك الفكرة القائلة - فى الغرب - بأنه لدينا الكثير من الكتب التى تدين الإسلام أو تحيطنا علمًا به. قائلاً: «إن معظم هذه المؤلفات التى حاربت الإسلام لم تحارب سوى الأشباح التى خلقوها، فهى أشبه بالانتصار على العدم» ودليله على ذلك تزايد انتشار الإسلام - ومن ثم راح يطالب بضرورة تعلم اللغة العربية وضرورة معرفة آدابها التى هى جزء لا يتجزأ من الدين. وها هو أخيرًا يتناول الهدف الذى دفعه إلى هذا العمل الضخم قائلاً: «إن هدفى لم يكن الدفاع أو تنميق ديانة أبغضها، فما أبعدنى من أن أقوم بعلاقة دفاعية وهجومية. إن من يتخذ مثل هذا الحكم يؤذينى ويضر العدل والعدالة. إن اضطرارى إلى الدفاع عن هذه الطائفة من الأشياء

التى أدين بها عن غير وجه حق، وإلاّ لكنت أهنت الحق بمساندة الأكاذيب والفريات وإذا ما كان هناك من يفضل مساندة هذه الأكاذيب وترديدها التى لا تستند إلى أية سلطة شرعية ويكيل للمسلمين تلك الصفات مثل: أفظاظ، حمقى، وحمير وحشية، ومجانين، ومخبولين، وأتباع الشيطان، بدلاً من أن يصوب هذه الفريات فذلك يوضح لى كيف أن العالم يؤثر أن يتم خداعه وأن تحكمه الأفكار المسبقة» (صفحة ٧٠ - ٧١).

إن هدف المستشرق أدريان ريلانت من هذا الكتاب ليس الدفاع عن محمد ﷺ وعن المسلمين، وإنما يرمى إلى تفنيد الأكاذيب والفريات والأفكار المسبقة التى كالها الغرب ضد محمد ﷺ والإسلام والمسلمين لكى يتمكن من محاربتهم بشكل أفضل، حيث يقول: «لكى نأخذ الحيطة، نحن المسيحيين وأن نتناول خلافاتنا معهم بطريقة عقلانية بحذر ولباقة وأن نحاربهم من الآن فصاعدًا بمزيد من الوضوح والعمق وليس بعدد الاتهامات والإنكار» (١٧٤ - ١٧٥) أى أن يحاربوا الإسلام بالكيف وليس بالكم!.

ولقد آثرنا أن تكون لنا وقفة مسهبة هنا حول هذا الكتاب لنوضح خط سير هذه الحملة المبيتة ضد الإسلام والمسلمين وكيف أنها لا تكل ولا تهدأ ولا تمل وإنما تأخذ أشكالاً ومظاهر مختلفة. وإذا ما كان هذا الكتاب يرجع إلى مشارف القرن الثامن عشر، فإن آخر ما سنتناوله من هذه القائمة التى لا حصر ولا عدد لنفثات سمومها، إنما هو كتاب الأب جان كلود بارو J.Cl.Barreau عن الإسلام والعصر الحديث والذى صدر فى باريس فى شهر سبتمبر عام ١٩٩١ وعنوانه: **عن الإسلام عامة والعصر الحديث بصفة خاصة.**

ويبدأ الأب جان كلود بارو كتابه باتهام المستشرقين الذين بدأوا يميلون للشرق فى كتاباتهم بأن دافعهم إنما هو الخوف من أن يحرموا من زيارة أصبحت شبه تقليدية لكل الذين يعملون فى المجال الثقافى بمختلف مجالاته أما الموضوع الرئيسى أو الدافع لكتابه هو ذلك الدور الذى يلعبه الإسلام

حاليًا على الساحة العالمية والمكانة التى يحتلها فى فرنسا بصفة خاصة أو أنه يمثل الديانة الثانية من حيث عدد الأتباع. وأول ما يصب عليه جام غضبه تلك الأسطورة الذهبية القائلة بأن الإسلام دين تقدمى ودين تسامح، والرد على ما يسميه بالزعم القائل بأن الإسلام قد أنجب حضارات كبرى.. وهو يبدأ بتفنيد نزول القرآن وتدوينه أيام الرسول ﷺ محاولاً بذلك أن يطرح على القرآن الكريم كل ما أصاب الكتاب المقدس بعهديه من إضافات وتحريف. ثم ينتقل إلى الأمة العربية مشيرًا إلى الخلافات القائمة بينها وأنه لا يربط بينها سوى لغة القرآن ليجزم بأن: «فكرة وجود أمة عربية مجرد خرافة».

وبعد إدانة جان كلود بارو لمصداقية نزول وتدوين القرآن، منددًا بمقولة استحالة ترجمته، مشيرًا بترجمة ذلك المستشرق الآخر المدعو جاك بيرك (والذى نتناول ترجمته للقرآن فى الجزء التالى)، كتب يقول: «إن القرآن أقل بكثير من الكتب الدينية الأخرى كالإنجيل أو البجاماجيتا أو حتى الإلياذة! فالقرآن بالنسبة لهذه الأعمال الجليلة كتاب بالى شديد الملل، ولعل ذلك الملل هو الذى جعل المستشرقين يأنفون من ترجمته»!!. ويالها من كلمات ونعوت تصدر عن رجل دين مبجل!! واعتباره كل ما فى الإنجيل بعهديه من تزييف وتحريف من «الأعمال الجليلة».

ثم تناول السُّنة التى يعرفها بأنها المكملة للقرآن «حيث إن هذا الكتاب لم يشرِّع لأى شىء».

ولا يسع المجال هنا لعرض هذا الكتاب لكنا سنشير إلى الموضوعات التى تناولها وهى: الإسلام دين منقول وليس منزّلاً؛ الإسلام دين رأسى بلا وسطاء؛ الإسلام دين سياسى، أى أنه قائم على السلاح والجهاد، وليس على التأمل، وأن محمدًا ﷺ «ذلك الهارب المُهان» لم يقم بأى إصلاح؛ الإسلام دين تقليد متحجر يدفع على الخبث والرياء؛ وأن الإسلام دين ذاتى لا صلة له بالديانتين التوحيديتين الأخريين ولم ينبع من نفس الأصل؛ وأن الإسلام دين كبير عددًا ومساحة فحسب!.

وهو يكتب فصلاً عن الإسلام والعصرية أى الحداثة ليزعم فيه أن القرآن ضد أى تقدم كما يرفض العصرية وأن «الديانات التى ترفض العصرية مصيرها الزوال إذ أنها تمحى من الوجود».. ثم ينتقد أن المسلمين لا يستطيعون تناول القرآن ولا حياة الرسول بأسلوب نقدى، ثم يدين حقوق الإنسان فى الإسلام وحقوق المرأة، والعمل، وينتهى به المطاف ليدين حضارة الإسلام. ولست فى حاجة لأشير إلى أن أى منصف بَعُد عن الهوى والغل والتعصب المقيت الذى يخشى فى أعماقه سطوة الحق والحقيقة يستطيع أن يدحض كل هذه الأغاليط والترهات التى تناقض صحيح ما أتى به الإسلام عدلاً وصدقًا وحضارةً.

وآخر ما يتناوله هذا القس، الذى عميت بصيرته، من قضايا: هو الإسلام فى فرنسا وأنه يتعين على الحكومة أن تعمل على امتصاص تلك الملايين الثلاثة التابعة للإسلام وعدم الرضوخ لمطالبهم الدينية والعمل على ضرورة إعادة تكوينهم واستيعابهم.. وهو يختتم سمومه وكل ما بثه من تحريف ومعاضلات ممجوجة ومليئة بالسخف المفضوح «بأنه يتعين على الإسلام أن يتأقلم ويمتزج بالعصرية أو أن يختفى»!!.

ويكفينا هنا تعليق أحد المثقفين الفرنسيين من أنه «أقذر ما كُتب عن الإسلام والمسلمين فى الآونة الأخيرة».. لذلك فهم يتداولونه سرًا.. ولا تعليق لنا عليه سوى كلمة: عار.. عار على من فى مثل هذه المكانة أن يكون أسلوبه بمثل هذا الإسفاف، وأدلته وبراهينه بمثل هذه المغالطات والفريات.. عار على الأب جان كلود بارو الذى يشغل منصب «رئيس مكتب الهجرات الدولية»، و«رئيس المعهد الوطنى للدراسات الديمغرافية»، إلى جانب وظيفته الرئيسية «كمفتش عام للتعليم القومى» أن يكون بمثل هذه الانحطاط العلمى والأخلاقى..

إن هذه الفريات - كما رأينا - ليست بجديدة، وإنما تمثل مددًا متواصلاً يمتد منذ بداية انتشار الإسلام فى حقبه الأولى حتى يومنا هذا..

لكنه إلى جانب هذا يكشف يقينًا عن ذلك المخطط الذى لا تمثل فيه الحرب فى البوسنة والهرسك إلا حلقة صغيرة فى سلسلة طويلة.. نقرأ مداها فى ذلك التعبير الذى قاله بيير جوزيف برودون المُشرّع الاشتراكى الفرنسى فى مذكراته عام ١٨٤٦: «ما أن يتم تحرير أفريقيا من محمد وكل الهمج – على أيدى الشعوب المسيحية – حتى تصبح حرة ومستقلة؛ ونفس الحال بالنسبة للهند والصين: إن ذلك لهو حق الشعوب الجديد».

ويزيد آرنست رينان الأب المستشرق الفرنسى من وضوح هذا المخطط قائلاً فى كتاب له عام ١٨٦٣ عن: **حياة يسوع**: «إن الشرط الأساسى لكى تنتشر الحضارة الأوروبية، هو هدم ذلك الشىء الشديد السامية، أى هدم السلطة الإلهية للإسلام. هنا تكمن الحرب الخالدة، الحرب التى لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أبناء إسماعيل من الفقر أو أن يتم دفعه رعبًا إلى أعماق الصحراء»!!.

كما قال وليم جيفورد: «متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذٍ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه».

فإلى كل من لا يزال منساقًا وراء الغرب – جهلاً أو عن عمد – أهدى ما تقدم من شذرات علها تعاونهم على اتخاذ الطريق الصحيح.. وهى شذرات أو قطرات من بحر لجِّى آسن، أو هى بمثابة حبيبات رمل وسط صحارى من الأكاذيب والفريات والمخططات المبيتة.. فهل نستيقظ ونعى؟!

سؤال لا أظنه بحاجة إلى تعقيب..

فى ترجمات القرآن

يقول الأب روبير كاسبار «إن الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبدًا، بل ولم يحاول ذلك مطلقًا.. وحتى خيرة المسيحيين القلائل، الذين كانوا يعيشون على مقربة من الإسلام، من أمثال يوحنا الدمشقى وتيودور أبى قرة وبولس

الصيدونى، فلم يتمكنوا من إدراك جوهر الإسلام وعظمته وهى: التصعيد إلى الله الواحد الأحد، ولعل ذلك يرجع أساسًا إلى أن الغرب المسيحى قد اكتفى لمدة قرون طويلة بتلطيخ الإسلام ومؤسسه بأسخف الأقوال، دون أن يكلف نفسه حتى عناء دراسة هذه العقيدة. فأول ترجمة لاتينية للقرآن لم تظهر - كما سبق القول - سوى فى القرن الثانى عشر أى بعد خمسة قرون من ظهور الإسلام، وقد تمت بناء على مبادرة من «بطرس المبجل» وتحت إشراف أسقف دير كلونى. ولابد لنا هنا من إضافة أن هذه الترجمة وكل الترجمات التى تلتها لم يكن لها أى هدف آخر سوى أن تكون الأساس لتوجيه المزيد من الإدانات ضد القرآن، تلك الإدانات، التى امتدت سلسلتها على مدى قرون تتناثر عليها بعض أشهر الأسماء. (**فاتيكان اثنين، صفحة ٢٠٩**).

وتمر الأيام، من منتصف القرن الثانى عشر حتى القرن العشرين، من تلك الترجمة الأولى لمعانى القرآن من أجل زيارة البابا لإسبانيا فيما بين عامى (١١٤١م)، (١١٤٣م) وتتغير المسميات والأسماء، لكن الغرض يظل واحدًا.. فها هو المستشرق الفرنسى «رجيس بلاشير» يقول فى مقدمة كتابه عن القرآن، عن هذا البابا المبجل: «وكان طلبه لترجمة القرآن استمرارًا لروح الحروب الصليبية، ومن جهة أخرى لحاجته إلى ما يمحو أية آثار مازالت عالقة بذهن الإسبان المسلمين الذين تم تنصيرهم حديثًا. ويبدو أن الترجمة التى تمت فى مدينة «توليدو» لم تكن أمينة بالمرة وغير كاملة» (صفحة ١٠).

والنص ليس بحاجة إلى تعليق، فما تم آنذاك من «غسيل مخ» لمن نجوا من المذابح الصليبية فى إسبانيا، هو بعينه ما كان يدور لنساء البوسنة وأهلها، الذين تأخذهم الجمعيات الكنيسية وغيرها وتفرض عليهم الارتداد عن الإسلام، وإن كانوا حاليًا ليسوا بحاجة إلى مزيد من تزييف النصوص، فالقهر والاغتصاب يكفى!!

ثم توالت الترجمات، وكلها تندفع من نفس المنطلق حتى كان القرن السادس عشر، وبدأ يظهر الاستشراق والاهتمام بدراسة اللغة العربية بغية

مزيد من التوغل ومزيد من الهدم والتجريح، وفى القرن السابع عشر قام أندريه ربيه (١٥٨٠م - ١٦٦٠م) قنصل فرنسا فى مصر عام (١٦٣٠م) بعمل أول ترجمة كاملة للنص العربى نشرت عام (١٦٤٧) وكانت أول محاولة أمينة نسبيا فى ابتعادها عن الصراعات. لكنها ما كادت تظهر حتى تبعتها ترجمتان إحداهما بقلم جرمان دى سليزى والأخرى بقلم لودفيكو ماراتشى لتعودا بترجمات القرآن إلى حظيرة التعصب وحلبة الصراع التى بدأها القس بطرس المبجل «والتى تم خلالها تفنيد الدين الإسلامى ورفضه من خلال تعاليم القرآن» (بلاشير، **القرآن**، صفحة ١١).

وتتربع ترجمة المستشرق الألمانى نولديكه مكان الصدارة بكل ما تحمله من تحريف يتلفع بأعلى المستويات العلمية اللغوية. أليس هو القائل فى وصف القرآن وسيدنا محمد ﷺ إنه «صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الأسلوب»!؟ وهى الترجمة التى يتذرع بها بلاشير ليقول عن القرآن: «ذلك النص الغامض عادة والذى يصعب فهمه فى سياقه الذى لا يتفق - ونصر على ذلك - مع المراحل الأربع المتتالية لنبوة محمد فى مكة والمدينة» (المرجع السابق صفحة ١٣).

ولم يكتف بلاشير بالإصرار على تجريحه بقضية ترتيب الآيات المعروفة، ولو رجع لكتب الفقه والتراث الدينى لعرفها، وإنما ها هو يرمى بضربته الأخرى قائلاً: «إن الرغبة فى فرض نص ثابت لا يتغير تبدو من ذلك الفعل الدنس أو انتهاك الحرمات الذى تم بإبادة كل الأشياء التى تم تسجيل الآيات عليها بأياد ورعة قامت بجمعها من فم الرسول»! (صفحة ٢١).

فعلى الرغم من اللباقة واستخدام الألفاظ المغلفة والمنمقة من وجعه وتباكيه على ضياع الأصول، إلا أن فحوى خطابه يتضمن التلاعب وإبادة الأصل لعدم الكشف عما تم من تحريف.. وهى ليست إلا عملية إسقاط لما قامت به الكنيسة فى أناجيلها ومجامعها وطرحها على القرآن الكريم الثابت

نزوله وتثبيته بلا أى تحريف.. بل وها هو يصل به الأمر إلى التشكيك حتى فى نص مصحف عثمان اعتمادًا على الهجوم، الذى يكيله الغرب بمستشرقيه.. وما أغرب ازدواجية رجيس بلاشير هذا فهو من ناحية، يعلم ويقول إن كافة ترجمات القرآن قد تمت بغية إدانة وتجريح شرائعه، ثم ها هو يتذرع بهذه الانتقادات ذاتها ليقول: و«حيال كل هذه الانتقادات نحن مساقون لأن نسأل الكتابة القديمة أن تأتينا بإجابة عن مسألة الأمانة المطلقة لنص مصحف عثمان» (المرجع السابق صفحة ٢٥).

وتمر الأيام وتتساقط أوراق التوت عن عَوْرة الاستشراق وينكشف أمره.. فهو كمنهج علمى ومحاولة فكرية لفهم حضارة الإسلام وعقيدته وتراثه لم يكن إلا لمهاجمته والتنديد به وبأمة الإسلام.. ولعل ذلك هو ما دفع المستشرق جاك بيرك إلى رفض وإنكار انتمائه إلى الاستشراق والتمسك بأنه دارس للتاريخ ومؤرخ!

ولم يعد ذلك الموقف المغرض وحده هو ما يدين الاستشراق وأمانته العلمية، وإنما لقد أثبتت الدراسات التى قام بها العلماء العرب والمسلمون بأن أولئك المستشرقين الذين يدّعون فهم العربية، هم فى الواقع لا يحسنونها.. وعلى الرغم من هذا الجهل الواضح باللغة، التى تعد أداة العمل العلمى الذى يزعمونه، فهم يصدرون أحكامًا مغرضة من حيث الشكل والمضمون، وأمانة تنزيله وذلك فيما يكتبونه من مقدمات علمية، ليست فى الواقع سوى معاول هدم متعددة الأوجه، تدور حول محور أساسى هو: زعم أن القرآن عقبة فى سبيل ارتقاء الأمم الإسلامية.

وذلك بعينه هو ما راح يردده اللورد كرومر فى كتابه فى مطلع القرن العشرين بناءً على آراء مستشاريه من المستشرقين: «إن القرآن هو المسؤول عن تأخر مصر فى مضمار الحضارة الحديثة».. أو «لن يفلح الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة ويغطى به القرآن» (**مصر الحديثة**، ١٩٠٨م).

وذلك بعينه هو الهدف العام الذى اتبعه المستشرق جاك بيرك فى ترجمته القرآن التى صدرت عام ١٩٩٠، ولم تكشف عن أنه إنسان بوجهين فحسب، بل إنه يفتقد الأمانة العلمية فى ترجمته وفى أسلوبه الذى يشى عن تعصب مغرض أدى به إلى تشويه صورة الإسلام.. ومن المؤسف أن يقوم أحد تلاميذه ليعلن على لسانه، فى مؤتمر «نحو مشروع حضارى جديد» المنعقد فى جامعة القاهرة فى يونيو (حزيران) ١٩٩٢، عقب إشارتنا إلى هذه الترجمة المغلوطة قائلاً: إن جاك بيرك يتأسف لما صدر عنه عفوًا وهو على استعداد لتصويب هذه الأخطاء»!!.

وهنا لا نملك إلا أن نسأل: ما جدوى الاعتذار الشفهى أو الوعد السيار بالتصويب بينما آلاف النسخ تتداول بين ملايين المسلمين المقيمين فى فرنسا أو فى مستعمراتها والذين لا يقرأون سوى الفرنسية؟!.

ويقول المثل «لكل عالم هفوة ، ولكل جَواد كبوة».. ومن البديهى أنه كلما ارتفعت مكانة العالم وارتقى، كلما كانت «هفوته» بنفس القدر انحدارًا.. ولا شك فى أن جاك بيرك يعد أحد عمالقة الفكر الفرنسى المعاصر، ولاشك فى أنه واحد من ألمع المستشرقين، بما أنه حصل على عضوية مجمع اللغة العربية بمصر!! أى، بقول آخر: إنه عملاق فى مجاله.. ومن هنا يمكن إدراك عمق «الهاوية» حينما يسقط من فى مثل مكانته.

ولاشك فى أن الجهد الذى قام به لترجمة معانى القرآن ذلك الجهد الذى استغرق ما يزيد على العشر سنوات – على حد قوله فى الأحاديث الصحفية – (القبس ١٩٨٩/١/٢٦م) هو جهد عملاق. وكم كنا نود أن تأتىَ ثماره لتكلل المكانة العلمية التى يحتلها، لكن من المؤسف حقا أن تخرج ترجمته إلى النور وهى تحمل بين صفحاتها العديد من الظلمات والنواقص! وما كنا نرضى لمن فى مثل مكانته العلمية بأن يحمل آخر أعماله – وعن القرآن – مثل هذه السقطات.. لكن الأخطاء فى الأعمال العملاقة.. عملاقة أيضًا.

ونظرًا لخطورة الموضوع وحساسيته الشديدة من ناحية، ونظرًا لتعدد عناصره وتشعبها من ناحية أخرى، فلابد لنا من تناولها تباعًا وبوضوح حتى لا يلتبس الأمر وتتوه الحقائق.

ومنذ البدء، لا أزعم أننى قرأت كل ترجمته لمعانى القرآن، وإنما قرأت - بروية - المقدمة التى كتبها وتقع فى اثنتين وثمانين صحيفة، ولا أزعم أيضًا أننى من الضليعات المتخصصات فى الدين الإسلامى وفقهه، إلا أن ما ورد فى هذه المقدمة من مغالطات وتحريف ومعان تتخفى بمسوح العبارات اللغوية المعاضلة - فأسلوب جاك بيرك مشهور بتحذلقاته الملتوية - وكل ما ورد فى هذه المقدمة من تشويه واستفزاز، يحتم علىَّ كأستاذة للحضارة أتمت كل مراحل تعليمها بالفرنسية، أن أقدم ما ورد فى هذه المقدمة وبعض ما رأيته فى الترجمة حتى يتمكن المختصون والمهتمون بهذا الموضوع من مجابهة فرياته، والاهتمام الواجب للتصدى للعديد مما أتى به جاك بيرك.

وقبل أن نتناول ما ورد فى هذه المقدمة، لابد من أن نتساءل: ترى لماذا هذه الترجمة لمعانى القرآن؟ لماذا وهناك العديد من الترجمات، وأغلبها قام بها مستشرقون مثله؟!

من المعروف أنه حينما يتعرض المرء لترجمة عمل مًا خاصة وإن كان ذلك من اختياره المطلق، وليس بتكليف ما، فإنه عادة ما يرجع لأحد أمرين: سواء أكان إعجابًا بهذا العمل ورغبة منه فى نقل ما ورد فيه إلى أكبر عدد ممكن من القراء، أم احتجاجًا على ما تضمنه، فترجم للرد عليه أو أملاً فى أن يتولى الآخرون هذه المهمة. ولا أعتقد أن ما ورد فى مقدمة جاك بيرك يسمح لى بالقول بأنه إنما قام بهذا الجهد كله إعجابًا بالقرآن وبالمسلمين!..

إن هذا السؤال الأول يقود إلى سؤال ثان هو: ترى لمن هذه الترجمة؟ من غير المعقول - بداهة - أنها قد تمت من أجل المسلمين المتحدثين باللغة العربية، فجميعهم يقرأون القرآن فى لغته الأصلية التى هى لغتهم الأم. أى إن

هذه الترجمة قد تمت - بلا شك - من أجل المتحدثين باللغة الفرنسية. وهم، إما أن يكونوا من الفرنسيين أنفسهم، وإما من الشعوب المتحدثة بالفرنسية - ولا أعتقد أن أغلبهم من المسلمين.

ولعل التعبير الذى قاله جاك بيرك ضمن حديث له مع مراسل جريدة «القبس» (٢٢/٦/١٩٩١م) يكشف عن الهدف الحقيقى لهذه الترجمة ولهذا الجهد المنبت الذى قام به، إذ يقول ضمن سياق الحديث: **لأن الكثير من الناس والمفكرين الآن ينبذون الصورة المادية للحياة المعاصرة ويرفضون مجتمع الاستهلاك، هذا المجتمع المادى المحض، ويفضلون على المدنية المعاصرة مدنية الإسلام الروحية وينادون بالعودة إليها»!.** أى إنه أدرك أن تحول العديد من الناس والمفكرين عن معتقداتهم أو دياناتهم غير الإسلامية - سواء فى فرنسا أم فى البلدان الخاضعة لسيطرتها - واعتناقهم الإسلام هو واقع معاش اليوم، وهو فى حقيقة الأمر ما يفزع منه «جاك بيرك» كما يبين فى المضمون الخفى للعبارة فراح يسفه لهم معانى ذلك القرآن الذى يجذبهم بروحانياته وباتزان تعاليمه الشاملة للحياة الدنيا وللآخرة، وآملاً الحد من هذه الموجة الآخذة فى الانتشار.

وليس هذا الموقف بغريب أو بجديد على القرآن وعلى الإسلام والمسلمين فها هو مستشرق آخر، ند ومعاصر له ومن بنى جلدته، المستشرق رجيس بلاشير، يقول فى مقدمة كتابه عن «القرآن» متحدثًا عن «**الصورة المشوهة بصفة خاصة التى قدمتها أوروبا المسيحية عن محمد**»، مشيرًا بذلك إلى العديد من الترجمات التى تمت لمعانى القرآن، منذ القرن الخامس عشر، والتى كانت «**كلها تمثل عنصرًا أساسيًا فى الصراع القائم ضد الإسلام**». ورغم هذا الاعتراف الواضح، ورغم هذا التبرير لكتابة بحث جديد عن القرآن، فإن رجيس بلاشير لم يكن بالأمانة التى يزعمها كما أشرنا وإن كانت تلك قضية أخرى. إلا أن كل ذلك يأتى - للأسف - كاستمرار لنفس الخط

ولنفس النغمة النشاز من القرن السابع حتى القرن العشرين.. ألم يكتب صمويل زويمر عام ١٩٠٧م فى كتابه المعنون: «**الإسلام، تحدٍّ للعقيدة**» وذلك فى مطلع ١٩٠٩م مقدمته: «إن كنائس المسيحية قد استيقظت أخيرًا لحقيقة أن إحدى المشاكل الكبرى التى لم تحل بعد والتى تواجه إرساليات القرن العشرين هى تبشير العالم الإسلامى»؟!!.

ولا حصر لكل ما كتب قبلهم أو بعدهم، وكم كنا نود ألا نمس هذا الجانب وتلك الحروب التشويهية التى قادتها الحروب الصليبية بأشكالها ضد الإسلام. وهو ما طالب مجمع الفاتيكان الثانى باستبعاد صوره.. إلا أن هذه الترجمة الجديدة لجاك بيرك لمعانى القرآن، وكل ما تتضمنه من انتقادات وتساؤلات وتلميحات، وما تضمنه من نزعة استخفافية برزت من بين ثنايا عباراته بجانب تلك المغالطات التى يشى الكثير منها بدرجة من درجات التعسف فى تناول الوقائع، كل ذلك برمته يكشف الوجه الآخر لجاك بيرك.. الوجه الآخر الذى لا يظهر أبدًا فى أحاديثه السيارة عن العرب والمسلمين أو عن القرآن!!.

ففى الأحاديث التى أجريت معه بصدد هذه الترجمة (القبس الأعداد السابقة) راح «جاك بيرك» يتشدق بكل صفات الإعجاز فى البناء اللغوى والأسلوبى وكل ما يحتوى عليه من إيقاع ونغم وخاصة اهتمامه بالحفاظ على ذلك كله، مما يوضح مدى صعوبة الترجمة.. وكله مديح قاصر على الشكل إن أمكن القول.. أما حينما يتناول المضمون، ترى ما الذى يقول؟

إن المحاور الأساسية التى تناولها فى المقدمة تكفينا الكثير وهاك بعض ما ورد فيها:

- التشكيك فى نزول وترتيب وتجميع القرآن.
- تأثر القرآن بالشعر الجاهلى وبالفكر اليونانى القديم (مؤكدًا على ذلك فى أكثر من موضع).

- تأثر القرآن بمزامير داود (وإن أشار للحاجة إلى أدلة أكثر دقة لإثبات ذلك).
- احتواء القرآن لخط أسطورى ميثولوچى لفلسفة وراثية النزعة للتاريخ.
- فظاعة صورة الله كما هى واردة فى القرآن.

أما النقاط التى تعرض لها عبر دراسته اللغوية المزعومة أو التى تذرع بها ليبث تشويهاته فى إطار يحاول التمسح بالأكاديمية واللغويات الحديثة من سمولوجيا وفينومنيولوجيا وسيمانطيقا وسيموطيقا، فننقل منها من قبيل المثال:

- انتقاده لمعيارية القرآن وأنها أبعد ما تكون عن التقنين.
- غموض تعبير الأحكام - على حد زعمه - مما سمح للمفسرين القدماء بحريات التصرف غير المقبولة من مذاهب أخرى.
- تناقض الشريعة ومنها يخرج بالهجوم على الجماعات الإسلامية وعدم فصل الدين عن السياسة.
- جدل العلمانية الكاذب - وضرب العلمانية الحديثة.
- إثارة قضية فتنة خلق القرآن من جديد.
- زعمه تحريف القرآن للأساطير «فى شكل حوار مشبوب بعلم النفس الفارقى وبالطرافة»!.
- اتهام المفسرين بإلغاء بعض الآيات إن كانت تخرج عن قبضتهم أو تحريفهم لمعناها.
- محاولته إيجاد تواز مًا بين الفكر اليونانى ومفهوم «الله» فى القرآن!.

وبغض الطرف عن أن كل هذه الموضوعات وغيرها كثير، قد قتلت بحثًا وحسمها جمهرة من العلماء، فليست هذه هى جوهر القضية هنا.. وإنما لا بد من الإشارة إلى إصراره الغريب، منذ بداية المقدمة حتى نهايتها، على تأكيد تأثر القرآن بالفكر اليونانى بأكثر من وسيلة، سواء عن طريق أصداء فلاسفة الماضى وخاصة «بارمنيدس» (٥١٥ - ٤٤٠ ق.م)، أو أصداء القانون

المدنى وتقنين الكنيسة السورية. ويذهب فى نهاية تحليله إلى عمل نوع من التوازى بين الفكر اليونانى والإسلام قائلاً: «**إن العصرية الدينية فى الإسلام تتلاقى فى الطبيعة حيث تمكس إعادة بناء نفسها. وهكذا فهى تعيد إحياء معطيات قرآنية لا جدال فيها. ومع ذلك، أليس ذلك هو ما فعله الإسلام منذ البداية؟ لقد فعله بأن أخذ على عاتقه جزءًا من الميراث الجاهلى، بأن تقلد جزءاً من ميراث اليونانيين بعد أن فرض على كل منهما تعديلات استعلانية صارمة**» (صفحة ٧٩٢) ويالها من أمانة علمية!!.

ثم يختتم هذه المقدمة قائلاً: «**إن مشكلة الإسلام اليوم هى إذن ذلك الانفصال الذى يمكنه أن يتفاقم بين مواقف العقيدة ومسيرة العالم الفعلية، بل مسيرة العالم الإسلامى نفسه. فالإسلام يبحث عن ملجأ باتجاهه إلى الأصول. إلاّ أن عدم إمكانية إخضاعها إلى النقد التاريخى ونقلها إلى الحاضر، فإن ذلك لا يعيد لها قوتها الأصلية. إذ أن «الذكر» الحقيقى هو الذى يحوّل الذكرى إلى مستقبل. وهى عملية خلاقة، تبرمج العصرية بالأصالة، وتبدو لا غنى عنها فى مواجهة هذه التجديدات التى يجب على كل نظام فى العالم الحالى أن يقترح حلولاً ممكنة**».

ترى أية حلول وأية تجديدات وأى نظام؟ ويسارع «جاك بيرك» بالإجابة فى الفقرة التالية قائلاً: **الثورة التقنية والعلمية التى تتعدى بالفعل مراحل لم تصل إليها من قبل؛ انعكاسات هذه الثورة المتزايدة فى التصرفات الفردية والجماعية، التوحيد المتزايد للكرة الأرضية والتحدّيات الناجمة عنه، بالإضافة إلى التصاعد الضمنى للنوعيات؛ عناء العلماء القدامى ومتطلبات جماهير العالم الثالث فى مجال الرفاهية، وحقوق الإنسان، والحريات.**

كُليمات.. كليمات.. حيث المعنى الكامن أن الإسلام لا يواكب التقنية والعلمية وتحديات العصر بعامة، والإسلام هنا هو القرآن الذى قام بترجمة معانيه وليس المسلمون المعاصرون وإلا لكان لكلامه بعض المعنى.

ثم يختتم بيرك مقدمته المشحونة بالفقرة التالية: «**وهنا يؤدى تساؤلنا إلى تساؤل أكبر: هل الديانات الإبراهيمية قادرة على تحقيق مجهود التأقلم فى المستقبل، ذلك المجهود الذى يقع على عاتقها جميعًا؟ ترى بأية طريقة؟ بأية ظروف؟ وبأى ثمن؟ فيما يتعلق بالإسلام، حيال هذه المهام، فإن الصفحات السابقة تجعلنا نعتقد أنه مازال أقل من الإمكانيات التى يتيحها له نصه الأساسى**» (صفحة ٧٩٣)!..

وبغض النظر عن محاولته المتعسفة للجمع بين الإسلام والمسيحية واليهودية فى صعيد واحد، فها هو يقلل من بينها شأن الإسلام وحده! «**أما زال أقل من الإمكانيات التى يتيحها له نصه الأساسى**»؟ وهل عز عليه أن تكون آخر كلمة مكتوبة له هى «القرآن» حيث هو «النص الأساسى» الذى يشير إليه؟! ثم بأى حق يصدر حكمه بإدانة الإسلام بعد أن قام بتشويه صورته؟ ألم يكن من الإنصاف أن يقصر نقده على المسلمين إذا ما كانوا مقصرين - فى نظره - فى تعاليم دينهم ونصوصه؟!.

ترى هل تتفق هذه الصورة أو هذا الرأى مع حقيقة الإسلام أو حتى مع الإعجاب الظاهرى الذى لا يكف عن التشدق به فى الأحاديث الصحفية؟! ترى هل يتفق هذا الرأى و«الاطمئنان الروحى الذى كان يسعى إليه» ووجده فى القرآن؟ (على حد قوله مع مجلة الجهاد!).

ومع ذلك، سأترك للمختصين الرد على ما أورده فى مقدمته من نقاط ومحاور..

أما فيما يتعلق بالترجمة، فقد بدأت بالفهرس.. ولم أفهم حكمة جاك بيرك فى عدم اتباع منهج علمى واحد: فهناك عناوين سور لم يترجمها وإنما دوّن نطقها بالأحرف اللاتينية مثل سورة «الحجْر» (١٥) فكتبها Al- Hijr وسورة «الأحقاف» (٤٦) Al-Ahqâf ألم يستطع أن يجد لهما معنى أو تعليلاً رغم كل التفاسير التى اطلع عليها؟ ولا أعتقد أنها صعبة الترجمة إذ أنه استعان بأولى الآيات لترجمة عناوين أخرى.

وقد استوقفتنى بعض الترجمات أكثر مثل سورة «الإسراء» (١٧) فلم يكتف بترجمة معناها الذى حرفه إلى Le Trajet noctume أى «المسيرة الليلية» وإنما أضاف بعدها عنوانًا آخر هو «أو أبناء إسرائيل» فجاء على النحو التالى Trajet nocturne ou les fils d'Israel وهو غير وارد فى المصاحف المتداولة.

ونفس الشىء مع سورة «غافر» (٤٠) ترجمها إلى ما معناه «المؤمن أو المتسامح» إذ كتب 'Le Croyant ou L'indulgent' وغيرها كثير، أما ، سورة «النصر» (١١٠) فقد ترجمها إلى «النجدة المنتصرة»ا Le secoure victorieux..

وهنا لابد من وقفة فكلنا نعرف أن كلمة «النصر» معناها بالفرنسية La victoire وبالإنجليزية Victory إلا أن جاك بيرك قد أصر على عدم استخدام هذا المعنى. فكلمة النصر التى ترد فى القرآن إحدى عشرة مرة، وتصل تصريفاتها اللغوية إلى قرابة المائة مرة، لم يترجمها مرة واحدة بمعناها الحقيقى. ففى سورة «البقرة» مثلاً نرى: «حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله» (٢١٤) ترجمها قائلاً:

"L'Envoyé de Dieu et ses compagnons dans la foi s'écriérent à quand le secoure de Dieu"

وفى نفس الآية نرى: «إن نصر الله قريب» ترجمها إلى:

"le secoure de Dieu est toujours proche"!

وكان لزامًا عليه أن يكتب:

"La Victoire de Dieu est proche"!

ولا يسع المجال هنا لتتبع ترجمة هذه الكلمة فى كافة أشكالها، إلا أنه ما من مرة إلا وترجمها بكلمة «النجدة» وأحيانًا «المساعدة» أو ما شابه ذلك.. وكأنه يأبى كتابة النصر للإسلام أو أن الإسلام قد انتصر!.

وسورة «الفتح» (٤٨) التى يتضمن معناها الجلى دلالة النصر قد ترجمها بتعبير "Tout s'ouvre" أى ما معناه: «أن كل شىء ينفتح»!! وهنا بادر «جاك بيرك» بوضع هامش يبرر فيه اختياره المغرض قائلاً: إن «فتح» اسم فعل «يفتح» ويقال عن الانفتاح الذى تمنحه بعض الانتصارات للمنتصر على المكان. ومعناها المجازى هو دخول فى المفتوح وهو ما نراه المعنى الأوضح بسبب الآية الثانية والثالثة» (صفحة ٥٥٤)!!.

ولا يسعنى إلا كتابة أول آية من سورة «الفتح» كنموذج على ثقل ومغالطة ترجمته فالآية ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ (الفتح الآية: الأولى) فترجمها قائلاً !!"C'est bien Nous qui pour toi ouvrons L'ouverture éclatante"

ولست بحاجة للحديث عن ركاكة هذه الترجمة بغض النظر عن تحريف المعنى..

أما سورة «الروم» (٣٠) فترجمها باسم العاصمة روما إذ كتب: Rome!! ومن الغريب أن يضع هنا أيضًا هامشًا يقول فيه: «نقول روما لأسباب ترخيم الصوت أو التطريب (Euphonie) حيث كان لابد من وضع كلمة «البيزنطيون» بالطبع» (صفحة ٤٣١)!! ويا للمغالطة السافرة! فمتى كانت الترجمة أو اختيار الكلمات يتم من باب الترخيم والتطريب بعيدًا عن المعنى؟!

إن أبجدية أصول الترجمة تعنى الأمانة فى نقل المعنى بأوضح ما يمكن. غير أنه لو كان قد كتب كلمة «البيزنطيون» لنقل ذهن القارىء إلى عصر الفتوحات الإسلامية، وهو ما يحاول تحاشيه أو التضليل عليه طيلة الوقت.

وسورة «المُلك» (٦٧) ترجمها بكلمة "La Royauté" وتعنى الملكية! علمًا بأن كلمة المُلك ومنها ملكوت الله موجودة فى الفرنسية ومستخدمة فى الإنجيل بعهديه وهى "Le Royaume". وسورة «التكاثر» (١٠٢) ترجمها إلى ما معناه التنافس عن طريق العدد: Rivaliser par le nombre! أية منافسة وأى عدد؟!

ولا يتسع المجال هنا لاستعراض الفهرس بأكمله، ولا كل ما تضمنه من مغالطات وأخطاء لا أعتقد أنها قد صدرت بصورة عفوية ممن فى مثل مكانته العلمية، غير أن هناك ما يؤكد سوء النية المبيَّت، وذلك مثل إصراره على ترجمة كلمة «الرسول» ومعناها الأكيد فى سياق القرآن هو النبى ﷺ، وهى بالفرنسية: Le Prophéte لكنه أبى استخدام هذا اللفظ، ليبعد معنى النبوءة عن ذهن القارىء، واستخدم كلمة: L'Envoyé ومعناها «المرسل من قبل فلان» أو المرسال.

ومما يزيد من تأكيد إصراره على سوء النية فى نفس السياق عدم استخدامه مطلقًا لكلمة مسجد، والمقابل لها فى الفرنسية هو Mosquée، بل والمعروف لغويًا، وما يكتب فى القواميس الفرنسية أنها كلمة «من أصل عربى» وراح يكتب مكانها كلمة Sanctuaire وأحيانا كلمة Oratoire! والمعروف أن كلمة Sanctuaire مشتقة من اللاتينية وتعنى: «جزءًا من الكنيسة حول المذبح حيث تتم فيه المراسم الطقسية»؛ وقد تعنى «مكانًا مقدسًا بصفة عامة وكلمة Oratoire مشتقة من اللاتينية، ومعناها «كنيسة صغيرة من أجل استخدام جماعة معينة» فبأى حق يترجم «المسجد الحرام» (٩ - ٢٨) بـ Sanctuaire consacré؟

وعندما ترجم سورة «الإسراء» ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا...﴾ (١٧/١) كتب يقول:

"O transcendance de celui qui fit aller de nuit, en un instant de la nuit son adorateur de l'Oratoire consacré a l'Oratoire ultime"!

كما أن كلمة ultime معناها: «النهائى» أو «الأخير»، فهل تعبر عن المسجد الأقصى، والمقصود به المسجد القائم فى القدس؟ أم أنه أبى أن يذكر كلمة القدس؛ لكى لا يربطها بالإسلام منذ ظهوره؟!

ثم لماذا أضاف من عنده بعد (ليلاً) فقرة "en un instant de la nuit" والتى تعنى «فى لحظة من الليل» وهو استطراد غير موجود بالآية؟!

وأكثر من ذلك أنه لا يلتزم حتى باختيار واحد من هذه الاختيارات المفرضة، ولا يستقر عليها. فالمسجد الحرام يكتبه تارة (٢/١٤٤) "Le sanctuaire consacré" وتارة أخرى يكتبه (5/2) "L'Oratoire sacré" . ومن أبجدية تعاليم الترجمة الالتزام بالتعبير الواحد المقابل للفظ المعين، وعدم تبديله حتى لا يلتبس الأمر على القارئ.

ونفس الشىء بالنسبة لكلمة «الحرام» (بمعنى القدس) فتارة يكتبها sacré وتارة أخرى يكتبها consacré!

أما عن عدم الدقة فى الترجمة فلا شك فى أن الخلفية القائمة على المغالطة والتمويه - إن لم يكن التجريح أحيانًا - هى السائدة. فمثلما استبعد كلمة «النبى» "Le Prophéte"»، و«المسجد» "La Mosquée" وخاصة المسجد الأقصى وغيره، فعادة ما نراه يستبعد ما يمت إلى العقيدة ومراسمها أيضًا. فتعبير «شعائر الله» (٢/٥) ترجمه إلى repérages de Dieu وهذه الكلمة تعنى وضع علامات» بغية تعليم الشىء (من العلامة)، ولا تحمل المعنى الذى يعكسه تعبير كلمة rites (شعائر) المرتبط بالدين، والذى كان يتعين عليه استخدامه.

وعلى سبيل المثال أيضًا، نورد ترجمته لإحدى آيات سورة «يوسف»: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ (٢٨/١٣) ترجمها قائلاً: "Sa chemise était trouée par derriére" أى ما معناه «أن قميصه كان مثقوباً من الخلف» علما بأنه قد ترجمها فى الآية (٢٥) بأنها: مزقت قميصه من الخلف: «واستبقا الباب وقدّت قميصه من دبر» كتبها: "elle lui déchira la chemise par derriére" فلماذا التغيير، والنص واحد؟ ترى هل «جاك بيرك» الضالع فى اللغة العربية - على حد قوله أيضًا - لا يعرف أن: قُدّ الثوب يعنى: شقه طولاً؟! وأن كلمة Trouer التى استخدمها معناها: يثقب او يخرم؟! وأن الفرق لشديد الوضوح والاختلاف، بين شق الثوب طولاً وبين خرقه؟؟

أما إصراره على ترجمة كلمة «الألباب» بكلمة «النخاع» فيفوق أى تعليق..

ولو سلمنا جدلاً بأن معنى كلمة Moelle (نخاع) المجازى فى اللغة الفرنسية يعنى «أهم ما فى الشىء» فإن وقعها فى الترجمة يثير السخرية لدى القارئ ذلك لأن معناها الحرفى أو المباشر - أى النخاع - هو الأكثر شيوعًا.

ومع مراعاة أن كلمة الألباب ترد ست عشرة مرة فى القرآن، وأنه لم يترجمها ولو مرة واحدة بمعناها المقصود أو المنطقى والذى يعنى «ذوى العقول والأفهام» لأدركنا مدى تجاوزاته.. وذلك على الرغم من وجود العديد من التعبيرات والمترادفات التى تشير إلى الألباب من غير لفظة نخاع التى اختارها!.

وليت لبه أو نخاعه قد أدرك قدسية وعد الله بين المسلمين حتى لا يترجم آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣/٩) علي النحو التالى: "Dieu ne manque pas au rendez-vous"!! ترى هل يمكن أن يصل الاستهزاء من عالم هو عضو مجمع اللغة العربية بمصر كى يترجم لفظة «الميعاد» والتى تعنى وعد الله أو حتى وعيده بكلمة rendez-vous؟ (رانديفو) بغض النظر عن معناها الشعبى السائد.. ومن البديهى هنا أن المعنى المقصود الميعاد هو الوعد وكان لزامًا عليه أن يكتب: "Dieu ne manque pas à sa promesse" ففى المرات الست التى وردت فيها هذه الكلمة فى القرآن - ولا أتحدث عن تنويعاتها - ترجمها أربع مرات بتعبير Rendez-vous، ومرة بكلمة pacte أى اتفاق، ومرة واحدة بمعناها الصحيح، وذلك فى سورة «الزمر»: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٣٩/٢٠) إذ كتب "Dieu ne saurait faillir à sa promesse".

كما أنه أحيانًا يبدل من نهايات الآيات مثلما فعل فى سورة «آل عمران» على سبيل المثال. فالآية الثالثة والتى تنتهى بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾ قد أنهاها فى منتصف الآية الرابعة عند قوله ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ وهو ما لم نره عند غيره ممن ترجموا معانى القرآن.

وليست هذه النماذج العابرة إلا أمثلة تؤكد غياب النزاهة العلمية عند جاك بيرك، تلك النزاهة التى راح يتهم الآخرين بغيابها لديهم، مثلما قال عن

حمزة بو بكر (٩) وترجمته لمعانى القرآن.

وإذا ما طبقنا علوم البلاغة الجديدة من تحليل منطقى وسيميوطيقا وسيمانطيقا وما إلى آخره مما تلفع به، على نفس الأسلوب الذى صاغ به مقدمته لخرجنا من أول إلى آخر كلمة بما لا يشرفه من مغالطات واستخفاف ولا نذكر منها على سبيل المثال إلا ما يلى:

ففى أول جملة تناول فيها نقطة تجميع القرآن يقول: "A en croire les sources traditionnelles" ومعناها: «على حد زعم المصادر التقليدية»، فإن التشكيك المبيَّت لديه يتجلى من أول كلمة كتبها وكان بمقدوره أن يكتب تعبير D'aprés les sources أو selon les sources وكلاهما يعنى «وفقًا للمصادر» وذلك فى حالة استخدام صيغة الحياد العلمى وليس التشكيك..

أما أسلوبه فى وصف الله فنورد منه ما كتبه عن القرآن:

"Le coran évoque avec une splendeur terrible les transes qui vous saisiront devant le Juge. Un frisson fait frémir votre peau au seul prononcé de son nom"! (759)

أى ما معناه: «أن القرآن يشير بروعة مرعبة إلى الارتعادات والذعر الذى سيصيبكم أمام الحاكم» (ويقصد الله). وها هى القشعريرة تسرى فى أبدانكم عند مجرد ذكر اسمه (صفحة ٧٥٩)! ويا له من تخويف يتجاوز أى تعليق..

أما إشارته إلى «المستشرق الكبير نولديكيه» Noldeke - على حد زعمه، والذى بدراسته للقرآن «**قد شرّح الأسلوب والقواعد والمفردات مشيرًا إلى ثقل الأسلوب هنا، وإلى التكرار هناك، وإلى عدم الصحة، وبعدها بقليل إلى إيجاز أو حذف، بل وإلى أخطاء**» (صفحة ٧٣٨) فيكفى جاك بيرك استشهاده بمن قام بأكبر تجريح لمعانى القرآن وأسلوبه، وتكبيره كمستشرق، ليكون متضامنًا معه فى الرأى حتى وإن تظاهر بالاختلاف معه.. فكلنا ندرك كيفية التهرب من تحمل مسئولية الكلمة وإلصاق الرأى الجارح باستشهادات للآخرين.

غير أن تلاعب «جاك بيرك» بالألفاظ يصل إلى الذروة عندما يتحدث عن وجهة النظر التطورية (évolutionniste)، مستشهدًا بآية ﴿لكل أمة أجل﴾ (١٠/٤٩) وكيف أن النظام يزايد (فى تطوره) بأن يقول ﴿لكل أجل كتاب﴾ (١٣/٣٨). ثم يضيف قائلاً: **بما أن الله يمحو، ويبدل ويؤكد النبوءات وفقًا لهواه** (à Son gré)، **أقصد هذا النقل المتتالى والجزئى للأصل، الذى يظل دائمًا أبدًا فى صدره»** (١٣/٣٩) والطريف أنه يضع رقم السورة والآية كتصديق لأسلوبه، ثم يواصل قائلاً: «هل يمكننا التمادى ودفع النسبية التاريخية لدرجة قلب كلمات التضمين القرآنى ونقول: «لكل كتاب أجل»؟ ثم يضيف باللاتينية قائلاً: «إنى لأرتجف وأنا أقولها! ترى أى مفكر حر تجرأ على هذا اللعب الإجرامى بالألفاظ؟ لا تبحث: إنه الخليفة أبوبكر» (صفحة ٧٨٧).

ثم يضع هامشًا مصداقيًا لتوثيق كلامه يورد فيه: الطبرى، المجلد ١٣، صفحة ١١١، السطر ١٤. ويا للدقة التى يتظاهر بها!

لنضع جانبًا الاستخفاف الذى تناول به مضمون لآية: ﴿يَمْحُوا اللَّه مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (١٣/٣٩)، ليكتبها: «إن الله يمحو ويبدل ويؤكد النبوءات وفقًا لهواه» ثم يخفف من وقعها قائلاً: «أقصد هنا النقل المتتالى والجزئى للأصل الذى يظل دائمًا أبدًا فى صدره».. لندع كل هذا جانبًا ونرى تعبير «لكل كتاب أجل» بالصورة التى أوردها وهى:

"Pour tout Ecrit, un terme"

ووضعه لكلمة كتاب Ecrit بالحرف الكبير تعنى أن القرآن هو المقصود وأن القرآن له أجل!! وإن كان ذلك هو ما يتمناه المستشرق «النزيه» «جاك بيرك» فلماذا يلصق أمنيته الشخصية بأبى بكر، مستشهدًا بالطبرى، وهو يعلم – من ناحية – أنه ما من قارئ سيقوم ليتأكد من المرجع الذى ذكره، على الأقل من باب الثقة فى مكانته العلمية، ومن ناحية أخرى، أنه يعلم يقينًا أن سيدنا أبا بكر لم يقلها بهذا المعنى. ولن أقول للباحث «الأمين» «جاك بيرك»

أن يكلف خاطره وينظر فى التفاسير ليفهم معناها المشروح، وإنما، - وهو أضعف الإيمان - أن ينظر فى أبسط قواميس اللغة العربية ليرى أن كلمة «الكتاب» تأتى أيضًا بمعنى: الحُكم، والأجل والقدر..

وذلك إذا ما كان فعلاً لا يعتمد على اللعب «الإجرامى» بالألفاظ.. ولا يعتمد على أن أحدًا لن يقرأ ويكشف مغالطاته.. أم علّ ذلك هو ما يسميه «جاك بيرك» الخوف والحشمة وتقديم ترجمة جيدة وأمينة» على حد زعمه بمجلة الجهاد؟ (يناير ١٩٩٠).

وفى النهاية لا يسعنى إلا أن أقول لمن «يستنكر ويرفض بشكل قاطع كلمة مستشرق» (الجهاد: مايو ١٩٩١)، لارتباطها بالمغالطات والتضليل. أقول لمن يقول عن نفسه: «أنا مؤرخ اجتماعى وباحث متخصص فى شؤون العالم الإسلامى» (المرجع السابق).. أقول له هويت يا من كنت عملاقًا، ويا لها من هاوية، وإنه يتعين عليك أن تبدأ المشوار من جديد بأن تعيد النظر فى الثقة التى منحها لك مجمع اللغة العربية بمصر واستغللتها كتصريح لنشر كتابك بكل ما يتضمنه من فريات: فكل ما ورد فى هذه الصفحات لم يكن إلا كنماذج على سبيل المثال، وما خفى كان أعظم..

نعم، أقول له: أن يبدأ المشوار من جديد بتعلم أبجدية البحث العلمى، وأبجدية الأمانة العلمية، وأبجدية الترجمة، وقبل ذلك كله أن يتعلم أبجدية احترام معتقدات الآخرين ومقدساتهم..

وفيما يتصل بترجمة معانى القرآن للفرنسية، فليست هذه الترجمة هى نهاية المطاف، فقد ظهرت بعدها ترجمتان أخريان.. لذلك أناشد المسئولين فى الأزهر وفى المؤسسات الإسلامية المختصة الحد من هذا التقصير الذى طال مداه، وتكوين فريق عمل للقيام بترجمة معانى القرآن باللغة الفرنسية، منعًا لكل هذه العناصر التخريبية. وأقول فريق عمل لأن الجهد الذهنى والمستوى العلمى والمعلومات المطلوبة تتعدى إمكانيات الفرد الواحد.

الفصل الثانى

حول الـديــن والدنيـــا

حول الدين والدنيا

كثر الحديث فى الآونة الأخيرة ليتخذ نوعا من الإصرار المتزايد فى الغرب، ولدى البعض هنا، فى الساحة المحلية، عن ضرورة فصل الدين عن السياسة!!، وقد بدأت هذه النغمة تتردد بدأب فى الغرب بعد نجاح أولى المحاولات التى قادها لفصل الدين عن السياسة فى تركيا عقب الحرب العالمية الأولى.

وإذا قلنا إجمالاً إن ديانة الغرب هى المسيحية وإن دين الدولة هنا وفى العالم العربى هو الإسلام، فلا نملك إلا أن نتساءل: لماذا يستبيح الغرب لنفسه ما لا حق له فيه، ويحرم الآخرين من حقهم؟ وإن كان السؤال على هذا النحو غير صحيح تمامًا، لأن الديانة المسيحية فى صميمها لا علاقة لها بالسياسة، بينما الإسلام أساسًا هو دين دنيا وآخرة، أى أن الإيمان وشؤون الدنيا بكل أبعادها لا ينفصلان فيه ويمثلان كيانًا واحدًا .. بمعنى آخر فإن الكنيسة عندما تتناول الشؤون السياسية أو تتدخل فيها فهى آنئذ تتعدى حدود شرعيتها، وتتجاوز تعاليم السيد المسيح، بينما يقوم فقه الدين الإسلامى وتشريعه على عدم الفصم بين ما يتصل بكافة أمور الدنيا والدين، فهو ينظم شؤون الدنيا والآخرة. ورجل الدين الإسلامى والمسلم بعامة (إذ أنه لا يوجد فى الإسلام كهنوت) عندما يتدخل فى الشؤون السياسية فهو ينفذ تعاليم دينه ويلتزم بها، ذلك أن القرآن – وهو المصدر الأول للتشريع فى الإسلام، وكذلك السنة النبوية قد ألزما بهذا الوفاق الذى لا يعرف فصلاً بين الدين والدنيا، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون الظالمون الفاسقون – كما

أتت فى آيات ثلاث من سورة المائدة ٤٤، ٤٥، ٤٧. فى حين أن الكتاب المقدس بعهديه - وبكل ما أجرى فيه قد نأى عن هذا التدخل بين شؤون الحكم وشأن السماء، وقد قال السيد المسيح للفريسيين: «لماذا تجربوننى يامراؤون.. أعطوا إذًا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (متّى ٢٢: ٢١).

كما أن «الرسالة الخاصة التى عهد بها المسيح إلى كنيسته ليست سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية لأن الهدف الذى رسمه لها هدف دينى» (وثائق المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى، صفحة ٧٥، الطبعة الثانية، عام ١٩٧٩). ويقول البابا بيوس الثانى فى خطابه إلى علماء التاريخ والفن، فى التاسع من شهر مارس عام ١٩٥٦: «أن مؤسسها الإلهى يسوع المسيح لم يخولها (أى الكنيسة) أى تفويض ولم يحدد لها أى هدف من الناحية الثقافية. إن الغاية التى رسمها المسيح لها هى دينية فقط» (أعمال الكرسى الرسولى ٤٨ (١٩٥٦) صفحة ٢١٢).

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الواضحة فيما يتصل بالمسيحية والتى لا جدال فيها فيما يتصل بفصل الدين عن الدولة (الكنيسة عن السياسة)، فإن موقف الكنيسة الكاثوليكية / البابوية لم يكف - منذ نشأتها - عن الصراع من أجل السيطرة على السلطة والتحكم فى السياسة لفرض نفوذها على العالم، حتى وإن خالف ذلك صريح النص الذى لم ينج من التحريف والتزييف. مما نجم عنه انقسامات جعلت من المسيحية أكثر الديانات انقسامًا وتباينًا من الناحية العقيدية بدءًا بميلاد المسيح وهويته وصلبه مرورًا باختلاق الثالوث والقربان والمناولة والاعتراف، وصولاً لتأليه السيدة العذراء وجعلها أم الله!!.. ولم تتم هذه الاختلافات بلا عواقب جسيمة أو مجازر..

فما أن تم الاعتراف بالمسيحية كديانة رسمية فى الإمبراطورية الرومانية عام (٣١٣)، وبدأ الإمبراطور قسطنطين يحميها ويمنح رجالها بعض المكاسب، حتى بدأت الكنيسة هناك تسعى للاستقلال عن السلطة والاستحواذ عليها. ولا حصر ولا عدد للمراجع التى تتناول نشأة الكنيسة

الكاثوليكية بتعصبها الجامح وتاريخها الدامى، سواء أكان فى الغرب نفسه أم فى الشرق.. وما أكثر المراجع التى تتناول عشرات المذاهب التى انقسمت إليها المسيحية منذ أولى محاولاتها المكشوفة فى التحريف، من قبيل تأليه السيد المسيح، ثم تأليه الروح القدس! وما أكثر المراجع التى تقشعر لقراءتها الأبدان وهى تقص كل ما دار من صراعات ومقاومة خاصة مع الكنيسة الشرقية، مما أدى إلى استبعاد كنيسة الإسكندرية تمامًا.. وما كل تلك الآلاف من الرهبان والمواطنين المسيحيين الذين ذبحوا فى الإسكندرية لمجرد رفضهم لتعصب البابا، وتزييفه غير واحدة من نتائج لا حصر لها نراها فى مؤلفات مسيحيى الغرب أنفسهم بقدر ما نقرأها فى المراجع التاريخية بعامة.

وقد استطاعت الكنيسة الغربية أن تثبت أركان استقرارها فيما بين القرن الرابع والخامس بعد صراعاتها المذهبية الدامية، بينما كانت الإمبراطورية الرومانية - فى نفس ذلك الوقت - تعيش لحظات أفولها.. وما إن أصبح الغرب بلا إمبراطور حتى بدت الفرصة مواتية للبابا ليمد نفوذه بالتدريج إلى الساحة السياسية.

وتتزامن الصراعات الدينية والسياسية بين مختلف مقاطعات أوروبا، بينما يد التعصب تحكم قبضتها على العصور الوسطى لتجعل منها عصر الظلمات الدامى والباطش لكل من يعترض أو ينشق على السلطة البابوية. ولا نذكر الشذرات التالية إلا على سبيل المثال لا الحصر للتدليل على تدخل الكنيسة فى شؤون الدنيا:

لقد انتشرت الحروب الدينية فى فرنسا عندما قام الكاثوليك بمحاربة البروتستانت فيما بين عامى ١٥٦٢ و١٥٩٨. وكانت هذه المجازر نتيجة للتقدم الذى تحرزه العلوم من جهة والقهر المتواصل لعملية الإصلاح الدينى من جهة أخرى.. ولم تنته هذه الحروب الدينية إلا بتراجع هنرى الرابع واعتناقه الكاثوليكية وتوقيع معاهدتى السلام عام ١٥٩٨. وكانت الأولى فى مدينة

«فرفان» ليضع حدًا للحروب الدينية الخارجية مع إسبانيا، بينما كانت الثانية فى مدينة «نانت» ليضع حدًا للحروب الداخلية مع الكنيسة الكاثوليكية ولتقنين الوجود الشرعى للكنيسة البروتستانتية.

ومن ناحية أخرى، ففيما بين أواخر أغسطس ومنتصف سبتمبر عام ١٥٧٢، وهو تاريخ معركة واحدة من معارك الحروب الدينية، قام التعصب الكاثوليكى بذبح خمسين ألف بروتستانتى فرنسى، وقد احتفل البابا جريجوار الثالث بهذه المناسبة وأمر بإشعال الأنوار ابتهاجًا بالمذبحة وضحاياها، كما قام بصك ميدالية تذكارية احتفالاً وتخليدًا لهذه المناسبة «المجزرة»!! وفى شهر أكتوبر عام ١٦٨٥ تم اجتياح الكنائس البروتستانتية وطرد ثلاثمائة ألف من صفوة شخصيات فرنسا، وإن هرب البعض منهم إلى سويسرا بينما لاقى البعض الآخر مصيره المحتوم..

أما فى تلك الفترة التاريخية المعروفة باسم «عصر الرعب» والتى امتدت من الخامس من شهر سبتمبر عام ١٧٩٣ إلى ٢٧ يوليو ١٧٩٤، فقد تم خلالها فصل أكثر من ألف وخمسمائة رأس بالمقصلة! أما محاكم التفتيش فى إسبانيا فقد امتدت من القرن العاشر حتى عام ١٨٠٨، حينما قام نابليون بونابارت بإلغائها.. ولقد أبادت عشرات الآلاف بتمزيق أوصالهم أو بحرقهم أحياء، أو بإعدامهم، تحت زعم أنهم ملحدون أو منشقون أو سحرة!!.. وفى عام ١٨١٣ عندما أعلن المحامى كورتيس Cortès أن محاكم التفتيش كانت غير دستورية، اعترض الفاتيكان بشدة على ذلك - على الرغم من قول السيد المسيح فى إحدى وصاياه: «لن تقتل أبدًا».

ومن المعروف أن الحروب الصليبية كانت حروبًا استعمارية - اقتصادية؛ لذلك قال عنها «نيتشه» «إنها كانت عملية قرصنة» ولقد تم إعلان أولها تحت زعم تحرير القدس، وباسم السيد المسيح لتلبس مسوح الدين، وذلك منذ تلك اللحظة التى وقف فيها البابا أوربان الثانى Urbain II ليلقى كلمته للأساقفة

والآباء فى السابع والعشرين من شهر نوفمبر عام ١٠٩٥ فى مجمع كليرمون Clermont، وجاء نصها كما يلى:

«من المهم أن تَهُبُّوا، بلا تأخير لنجدة إخوانكم الذين يقطنون بلاد الشرق الذين طالبوا مرارًا بمعاونتكم. وبالفعل، كما تعرفون، فإن هناك شعبًا من الأتراك قادم من بلاد الفرس قد غزا بلادهم. ولقد تقدموا حتى البحر الأبيض المتوسط وبالتحديد إلى ما يطلق عليه ذراع القديس جورج. وهم يتقدمون فى البلاد الرومانية على حساب أراضى المسيحيين، الذين انهزموا سبع مرات فى الحرب، ولقى كثير منهم حتفه؛ وكثير قد تحولوا إلى عبيد.. إن هؤلاء الأتراك يهدمون الكنائس ويخربون مملكة الله.

«وإذا ما ظللتم دون عمل أى شىء فإن عدد الضحايا من المؤمنين سيزداد بسبب هذا الغزو. لذلك فإننى أحثكم وأتوسل إليكم - لا لست أنا الذى أحثكم - إنه الرب نفسه - هو الذى يحثكم أنتم يا رافعى لواء المسيح، وأيًا كانت الطبقة الاجتماعية التى تنتمون إليها، فرسانًا كنتم أم حفاة، أغنياء أم فقراء، أن تذهبوا لنجدة المسيحيين وأن تصدوا هذا الشعب الشؤم بعيدًا عن أراضينا. أقولها للحاضرين هنا، وأطلبها من الغائبين: إن المسيح يأمر بذلك.

«إن كل الذين سيذهبون ويموتون على الطريق، سواء على الأرض أم فى البحر، أو أولئك الذين سيموتون وهم يحاربون الكفار، فإن ذنوبهم ستغفر لهم، وسأمنح الغفران لكل الذين سيساهمون فى هذه الرحلة بموجب السلطة التى منحنى الرب إياها.

«ويا للعار إذا ما انتصر مثل هذا الشعب الحقير، المنحط، عابد الشياطين، على الأمة التى تعبد الرب، وتفخر بأنها مسيحية! أى لوم سيوجهه لكم الرب بنفسه إذا لم تجدوا الرجال الكافية الجديرة مثلكم بلقب المسيحيين!

«ليذهب إذن هؤلاء الذين كانوا يحاربون بعضهم بعضًا على حساب

المؤمنين ليذهبوا إلى المعركة ضد الكفّار - إنها معركة جديرة بأن تبدأ، ورهينة بأن تنتهى بالنصر! وليصبحوا من الآن فرسان المسيح، بعد أن كانوا قطاع طرق! ليحاربوا الآن ضد البرابرة، بدلاً من أن يحاربوا ذويهم وإخوانهم! ولسوف ينالون المكاسب الخالدة، بعد أن كانوا مرتزقة من أجل بضعة فلسات. ولسوف يعملون من أجل شرف مزدوج بدلاً من الشقاء على حساب جسدهم وروحهم. لقد كانوا هنا حزانى ومساكين، سيصبحون هناك سعداء أثرياء. لقد كانوا هنا أعداء الرب، وهناك سيصبحون أصدقاءه» (جورج تيت: L'Orient des Corisades, G. Tate صفحتا ١٣٠ - ١٣١).

أما فى قاموس الشرق المسيحى الصادر عام 1991 (Dictionnaire de l'Orient Chrétien) فنقرأ عن هذه الحروب الصليبية: «أن البابا أوربان الثانى قد أعلنها لتحرير الشرق المسيحى من الإسلام.. أى أنها كانت رغبته فى تحرير المسيحية من عدوها الخارجى، الإسلام، ومن عدوها الداخلى، الهراطقة، وإقامة كنيسة موحدة تخضع للقوى الغربية، وتحت سيطرة روما (صفحتا ١١٧ - ١١٨).

ولا تعليق!!.. فالمخطط واحد ومعلن بصريح العبارة.. كانت هذه الكلمة التى تعبر عن نفسها شرارة البدء لهذه الحروب الاستعمارية - الاقتصادية التى تلفعت بالدين المسيحى، وأهدرت قيمه لتنتهى بحملاتها الثمانية عام ١٢٩١، وليفهم الغرب أنه لا جدوى من محاولة فرض عقيدته على الإسلام.. وإذ به ينتقل - أو يسترد أنفاسه - ليفرضها بالسلاح على بقاع عديدة ليس بآخرها فرضها على هنود القارة الأمريكية، حيث كانت مهمة السلاح المشهر وضع حد للوثنية، بجانب تأكيد ملكية مستعمرات العالم الجديد، وتبعيته للتعصب البابوى الذى لا يجد حرجًا حتى فى ذبح إخوة الدّين الذين اختلفوا حول التحريفات المتعددة.

ولم نستشهد بهذه الشذرات القليلة، من محيط دام، جد بشعًا، إلاّ

لنشير، ببعض مما تتضمنه صفحات التاريخ المتداولة، إلى ذلك التيار المتعصب الذى يزداد شراسة وكفرًا بتعاليم السيد المسيح، التى تنادى بالحب والإخاء والتسامح.. ولا يسعنا، لاستكمال هذا العرض الخاطف، إلاّ أن نلقى بعض الضوء على المجامع الكنسية أو المسكونية الرسمية والتى توضح كيف أن هذا التعصب لا يكف عن الخروج على العقيدة باقتحامه الساحة السياسية والتحكم فيها. وبما أنه ليس من شأننا أن نغوص فى وثائقها الرسمية والرجوع إلى أصولها، فإننا نتناولها من المراجع والموسوعات العامة المتاحة للجميع، أو لنقل من تلك المراجع الرسمية التى أقرت التيارات الحاكمة تداولها!!!

لقد تنوعت أشكال وأعداد وبنية المجامع على مدى تاريخ الكنيسة، ولا غرابة فى ذلك فهى لم تتلق من مؤسسها سوى الالتزامات (وعددها سبعة: التعميد، وسر الميرون، والقربان، والتوبة، والمسحة الأخيرة، والرهبنة والزواج – وإن كان البروتستانت لا يعتدون إلاّ باثنين: التعميد والقربان)، وجماعة الحواريين الاثنى عشر، وتوصية المحبة الأخوية، وتختلف الظروف التى تجتمع فيها المجامع وفقا لاختلاف الأحداث الاجتماعية والسياسية، لتتخذ القرارات الملزمة للجماعة المسيحية بصفتها أعلى سلطة تقود هذه الجماعة.

وتكمن أهمية المجمع فى الحصول على موافقة جميع الحاضرين بالإجماع، وليس بأغلبية الأصوات، مما يوضح أهمية الدور الذى تقوم به الكنيسة كمؤسسة. ولا يمكن للمجمع المسكونى أن ينعقد من غير البابا – ذلك أن بابا روما يمثل السلطة العليا أو التفويض فوق العادة للبت فى أمور العقيدة والإيمان.. و.. و...

وفى الواقع لا تقتصر أهمية المجامع ودورها على تلك السيادة العقدية فحسب، وإنما هى تتابع أحداث العالم وتوجه خطوطها الكبرى أو العامة، مع «مواصلة توصيل تعاليم الإنجيل إلى أناس جدد»، كما يتعين على المجامع «أن

تقدم ميراث الإيمان فى تعبيرات جديدة وفقًا لظروف العصر».. (انسيكلوبيديا أو نيفرساليس).

ويبدو مجمع القدس المنعقد عام ٤٩ وكأنه استمرار لاجتماع القدماء حول موسى أيام الخروج أو كاجتماع القدماء حول الحواريين، على نمط من اجتماع موسى عليه السلام (أفعال الرسل ١٥). ونظرًا لأهمية هذا المجمع وأهمية القرارات التى اتخذها، فقد أصبح نموذجًا لكافة المجامع التى تُضَمُّ قراراتها إلى الكتابات المقدسة.. مما يوضح كيف يمكن للأيدى الخفية أن تتلاعب بالنصوص وبالعقيدة».

ويبدو من نصوص «أفعال الحواريين» أن الكنيسة كانت قائمة فى مجامعها على أساس تدرج هرمي، وعلى أساس قاعدة جماعية - وهو ما كان متبعًا فى معابد اليهود.

ويوضح مؤرخو المجامع القدامى مثل لونان دى تيلمو Le Nain de Tillemont، ودوشين Duchesne، وباتيفول Batiffol، أن الكنيسة قد نقلت القواعد المدنية للمدينة اليونانية فى مجامعها المحلية، كما نقلت قواعد مجلس الشيوخ الرومانى فى مجامعها الإقليمية والعامة. ويشير المؤرخ هيفليه - لوكليرك Hefele-Leclerq فى مقدمة تاريخ المجامع إلى ثمانية أشكال مجمعية على مر التاريخ، إلا أن الفترة الحديثة قد أدت فيها الوقائع والصراعات إلى ضرورة استحداث أشكال مجمعية جديدة لاحتواء مجرياتها.

ويمكن تلخيص المجامع على مر العصور على النحو التالى:

- **المجامع المحلية أو الإقليمية**: اجتمعت هذه المجامع فى منتصف القرن الثانى لمواجهة تشعبات علم اللاهوت، الذى كان يحول الإيمان إلى نوع من التأمل وفقًا للنمط اليونانى، ولمواجهة المذاهب الانشقاقية ومنها اتباع مونتانوس.

وابتداء من القرن الثالث يظهر تحول جوهرى فى المجامع، إذ لم تعد القرارات فيها جماعية وفقًا للتعاليم الأولى، وإنما أصبحت قاصرة على

الأساقفة. ولم يعد من حق العوام - ممثلى الطبقة العريضة لقاعدة الهرم - إلا الاشتراك فى انتخاب ممثل كنيستهم، الأمر الذى يوضح كيف بدأ التلاعب ليستقر أمره.

- **المجامع المسكونية**: وهى مكونة من أساقفة العالم، وإن كانت قديمًا مكونة من أساقفة الإمبراطورية الرومانية، وكان الإمبراطور هو الذى يدعو للاجتماع، ورغم أنه لم يكن يشارك فى مداولة القرارات شخصيًا، إلاَّ أنه كان يوقع عليها كقوانين للإمبراطورية. ذلك أنه - خاصة وبعد مصالحة القسطنطينية - كان يعتبر نفسه على قمة العالم المسيحى، ويقوم بتمثيله أحد الأساقفة مندوبًا عنه. وسرعان ما أدى تدخل الإمبراطور فى الشئون الدينية إلى صراع حاد مع أسقف روما الذى بدأ يستخدم لقبه كخليفة للقديس «بولس» لتأكيد رئاسته للمجمع.
- **المجامع القومية فى القرون الوسطى**: أدى سقوط الإمبراطورية الرومانية وانتقال العاصمة إلى القسطنطينية فى بيزنطية وفرض المسيحية على الشعوب الأخرى إلى ازدهار المجامع، وتزايدها لمواجهة التوسعات وملاحقتها من جهة، ومواجهة الانقسامات الفرعية أو العقيدية من جهة أخرى.
- **المجامع البابوية العامة فى القرون الوسطى**: اعتاد الأساقفة فى روما الاجتماع للتشاور واتخاذ القرارات الرئيسية فى الشؤون الدينية والسياسية الهامة فى إيطاليا، وسرعان ما تخطت سلطتهم مدينة «روما» والمناطق المحيطة بها، وبدأ الباباوات يدعون الأساقفة من كل مكان، ويدعون معهم أمراء المقاطعات المجاورة، حتى أصبحت هذه المجامع تمثل أركان السلطة المسيحية الباحثة عن فرض سيطرتها «الروحية» على الغرب بأسره.. وبذلك لم يعد البابا فى القرون الوسطى مجرد أسقف روما المسئول عن بقية أبرشيات الكنيسة فحسب، وإنما أصبح بالفعل الزعيم الرئيسى للمسيحية والمهيمن الوحيد عليها أى على المجتمع المسيحى

والمدنى أينما كان.. وبذلك أصبحت المجامع العامة المسكونية أو تلك التى يدعو إليها البابا عبارة عن اجتماع كنسى، تناقش فيه وتحدد من خلاله معالم السياسة المدنية وذلك مثال مجمع لتران Latran المنعقد عام (١٢١٥م) والذى يعد من أهم المجامع إذ ضم أربعمائة واثنى عشر أسقفا وأكثر من ثمانمائة من رجال اللاهوت بدرجاتهم المختلفة. وبخلاف المسائل العقيدية التى تمت مناقشتها، فإن هذا المجمع قد اتخذ قرارين لا سابق لهما فى تاريخ الكنيسة وهما: ضرورة استمرار الحروب الصليبية، ومواجهة حركة الإصلاح الكنسى!.

- **مجامع الإصلاح فى أواخر القرون الوسطى**: تأتى هذه المجامع كامتداد للمجامع السابقة، إذ كانت تتكون من ممثلين لرجال اللاهوت ومن وفود اجتماعية. وبالتدريج انتقلت سلطة البابا من ممثل دينى إلى شخص تتمثل فيه الأمة بشقيها **الدينى والسياسى**، كما بدأ يتبلور فيه ذلك المفهوم العصرى للمفوض العام عن الأمة. كما ترجع فكرة الأيدلوچية التوحيدية بين الكنائس إلى نفس هذه الفترة فى القرن الخامس عشر - خاصة منذ استحال على المجامع السابقة تحقيق أهدافها الرئيسية وهى: الحروب الصليبية وإصلاح الكنيسة.

وتمثل فترة الانشقاق الكبرى فيما بين (١٣٧٨م)، (١٤٢٩م) والتى لم يتمكن مجمع «بيزا» المنعقد عام (١٤٠٩م) من حلها، أعنف الأزمات التى تعرضت لها فكرة التوحيد بين الكنائس، تلك الفكرة التى بدأت تتردد بشكل أوضح فى القرن العشرين.

- **المجامع الحديثة الكبرى**: تمثل أكبر المجامع التى عقدتها الكنيسة الكاثوليكية بعد عصر الإصلاح نقطة انفصال واضحة مع النظم المتبعة فى المجامع المسيحية السابقة، فقد اهتمت الكنيسة بتحديد رسالتها الخاصة، وتنشيط حركة الإصلاح الداخلية، ومنذ مجمع الفاتيكان الثانى،

وهى تضاعف الجهود للتوصل لعالمية ظلت تسعى إليها.. ومن ثم فقد اتجهت إلى الانفتاح المسكونى لا على الجماعات المسيحية الأخرى فحسب، بل وعلى اليهود (وتلك قصة أخرى قد انتهت بتبرئتهم من إهدار دم السيد المسيح!!) كما اهتمت بالالتفات إلى مشاكل العالم، والتدخل فيها بشكل أكثر فعالية (مثال الدور الذى لعبته فى بولندا ومساندة حركة التضامن من «سوليدار نوشتش». لذلك فهى تضفى على نشاطها المجمعى المعاصر كيانًا يتصف باللامركزية، يمتد نشاطه إلى كافة أنحاء العالم. فمن خلال تطوير المؤتمرات الأسقفية ها هى تقيم صلة وثيقة بين المجمع وكيان الكنيسة الكاثوليكية فى مختلف أنحاء العالم مما يسمح لها باختراقها من الداخل تدريجيًا.

إذا كانت النظرة التاريخية الخاطفة توضح إجمالاً تلك الخطوط الرئيسية لمختلف أنواع المجامع وأهميتها، فلابد من وقفة أخرى نوضح فيها أهم ما انعقد من المجامع المسكونية وغيرها، وخاصة أولى هذه المجامع التى تحددت من خلالها المعالم الأساسية للديانة المسيحية، وتشكيل العقيدة بما يتفق والمصالح السياسية والاجتماعية للنفوذ الكنسى المتعصب.

ومن اللافت للنظر أنه لا يوجد حتى اليوم - فى حدود المعلومات العامة المتاحة - أية قائمة كاملة رسمية بالمجامع المسماة مسكونية للكنيسة الكاثوليكية، ولابد للباحث أن يقوم بتحديدها وتجميعها من المراجع المُختلفة، التى تتناول تاريخ المجامع بصفة خاصة، ونظن أن عدم التحديد هذا قد يؤدى إلى نوع من حرية التصرف، فيما يتعلق بأعمال المجامع، وهو ما يمكن أن يكون له مغزاه المسكونى.

وأقل ما يمكن أن يشار إليه - فى ظننا - حرية تيار التعصب، الذى يمكنه التحكم فى إضفاء الأهمية على هذا المجمع أو ذاك، وفى الوقت نفسه إغفال أهمية مجمع بعينه أو غيره من هذه المجامع، فعلى سبيل المثال، لم

يعتبر المجمع المنعقد فى مدينة القسطنطينية عام (٣٨١م) مسكونيًا إلا حديثًا، رغم أنه واحد من أهم المجامع الشرقية فى تاريخ الكنيسة. وفى المقابل فإن مجمع «أفسوس» المنعقد عام (٤٤٩م) قد رفعت عنه صفة المسكونية. كما أضيفت مجامع أخرى، واكتسبت صفة المسكونية مثل مجمع «القسطنطينية» المنعقد عام (٨٦٩م) دون أن يكون هناك أى تبرير واضح لمثل هذه الإضافة.. ولا نشير إلى هذه الملاحظة إلاّ لنبين كيف أن التأكيد على أهمية المجامع مرتبط بأمور غير لاهوتية..

ويضفى التراث الكنسى أهمية خاصة على المجامع المنعقدة فى القرون الأولى. وباستثناء مجمع القدس المنعقد عام ٤٩ والذى له مكانة معيارية مميزة، فإن معظم المراجع تتفق على الأهمية الخاصة لمجمع نيقية المنعقد عام (٣٢٥م)، ذلك المجمع الذى تحددت فيه الصفة الإلهية للسيد المسيح - ويأتى ذلك عقب الاعتراف بالديانة المسيحية رسميًا عام (٣١٣م)..

والأهمية الخاصة التى تُضفى على المجامع الأربعة الأولى - مجمع نيقية والقسطنطينية، و«أفيزا»، و«خلقيدونيا» - ترجع إلى أنها المجامع التى تحددت فيها الأسس الرئيسية للديانة المسيحية وفقًا للصورة التى صنعتها الأيادى العابثة لشخصية وتاريخ السيد المسيح وتعاليمه.. وقد أقرت «اللوثرية» بعض هذه النقاط، وأقرت الكنيسة الإنجليكانية أغلبها. ويمكن القول إجمالاً: إن الكاثوليكية والأرثوذكسية تتقبلان المجامع السبعة الأولى، حتى مجمع نيقية الثانى، على أنها مجامع مسكونية، لا جدال فى قرارتها. ثم أصبح لكل مذهب قائمة مجامعه الخاصة التى تتفق وعقيدته - وإن كانت تفاصيلها اللاهوتية تخرج عن نطاق هذا البحث.

وهنا نشير باقتضاب إلى المجامع السبعة الأولى، والتى تعتبرها كل الكنائس الكاثوليكية، والكنائس الأرثوذكسية مجامع مسكونية، لنرى كيف قامت الأيادى الخفية المتطرفة بنسج ملامح العقيدة وفقًا لمتطلباتها السياسية والاجتماعية ويؤكد أن المسيحية نسجت عبر المجامع على مر التاريخ...

١ - **مجمع نيقية الأول (عام ٣٢٥م)**: دعى إليه الإمبراطور «قسطنطين» بعد أن أصبح سيد الإمبراطورية، لحل المشاكل والنقاط التى تختلف حولها الكنائس الشرقية آنذاك، وهى مشاكل عقيدية وتنظيمية، وبخاصة ما كان يطلق عليه «هرطقة أريوس» Arius الذى كان يرفض فكرة الثالوث وفكرة وحدة الجوهر، أى فكرة مساواة السيد المسيح بالله وجعلهما من طبيعة واحدة. إلاّ أن المجمع قد أدان الآب أريوس وأعلن أن السيد المسيح من نفس طبيعة الله على الرغم مما هو وارد فى الأناجيل صراحة، ومنها: «يسوع الناصرى الذى كان إنسانًا نبيًا مقتدرًا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب» (لوقا ٢٤:١٩) واعتباره إلهًا.

الأمر الذى اعترض عليه أغلبية أساقفة الشرق لما فى هذه الفكرة من تناقض، فالله أزلى لا بداية ولا نهاية له، أما السيد المسيح فهو إنسان مخلوق محدد البداية والنهاية. كما أن فكرة التأليه هذه ليست واردة فى الأناجيل.

ولقد قام المجمع بتغيير عيد الفصح وجعله يوم الأحد بدلاً من يوم السبت لتمييزه وإبعاده عن اليوم الذى يمثل احتفال اليهودية!.

وعلاوة على أهمية القرارات التى أصدرها هذا المجمع، فقد ابتدع نهجًا لا سابق له حتى ذلك الوقت الا وهو المجمع المسكونى الملزم للجميع، كما خوّل الكنيسة حق تحديد العقيدة بتعاريف عقيدية وفقًا لأغراضها.

٢ - **مجمع القسطنطينية الأول (عام ٣٨١م)**: وكان الإمبراطور «تيودور» الإسبانى الأصل المتعصب لفكرة «نفس الكيان» قد صدق عام (٣٨٠م) على فرض هذه الفكرة كتعريف أساسى للعقيدة. وخلال هذا المجمع قرر رجال اللاهوت تأليه الروح القدس، وجعله مساويًا لله وللسيد المسيح، إلى جانب إدانة ما أطلقوا عليه: «الهرطقة المقدونية»، وقاموا بإخضاع «مقدونيا» للإمبراطورية الرومانية الشرقية، وأقروا استقلال الأساقفة عن السلطة، وإضفاء الأولوية لأساقفة روما والقسطنطينية.

٣ - **مجمع أفسوس (عام ٤٣١م)**: انعقد لإدانة الآب «نستوريوس» Nestorius قس أنطاكيا الذى كان يشغل منصب بطريرك القسطنطينية منذ عام (٤٢٨م). ذلك لأنه يفترض أن هناك طبيعتين متلازمتين للسيد المسيح، إحديهما إنسانية والأخرى إلهية. كما كان يرفض تأليه السيدة العذراء وإضفاء لقب «أم الله» عليها.. وقام المجمع بإقالته وإقرار الأمومة الإلهية للسيدة العذراء. (وتجدر الإشارة هنا إلى أن الكاثوليك كانوا يحتفلون بعيد وفاة السيدة العذراء فى الخامس عشر من شهر أغسطس، إذ يرون أن الملائكة قد رفعتها للسماء أثناء نومها فى هذا اليوم بمعونة السيد المسيح).

وفى الأول من شهر نوفمبر عام (١٩٥٠م) تحول هذا الاحتفال التراثى إلى عقيدة، بناء على إعلان من البابا «بيوس الثانى»، والذى «لم يقدم أى تحديد أو تبرير لهذه المعجزة غير الواردة فى الكتاب المقدس». لقد بدأ رجال اللاهوت الكاثوليك تحويل الاحتفال الشعبى - الذى استمر كتقليد احتفائى لعادة شعبية عمرها قرابة ألفى عام - إلى عقيدة ملزمة أصبحت بذاتها العقيدة الثانية المتعلقة بالسيدة العذراء، إذ إن العقيدة الأولى والتى قننها البابا «بيوس التاسع» عام (١٨٥٤م) كانت تتعلق بحملها الإلهى للسيد المسيح، إذ إن هناك عيدًا أساسيًا يتصل بمولده ﷺ!!

ومن المفارقات أنهم فى بيزنطة لم يحتفلوا بعيد وفاتها إلاّ منذ القرن الرابع، وكان العيد يسمى «نوم العذراء»، كما أن الغرب لم يحتفل به إلاّ فى القرن السابع. وعندئذٍ تم استبدال تعبير «نوم العذراء» بكلمة «صعود العذراء»!! وإن كان هذا الطقس يرجع إلى أولى الطوائف المسيحية فى الشرق، وهو يقترن بالآلهة - الأم أرتميس، والتي كانت الآلهة إيزيس فى الديانة المصرية القديمة، قبل أن تنتقل إلى الحضارة اليونانية القديمة ومنها إلى الرومانية قبل المسيحية..

وبعد أن أعلن البابا «بيوس الثانى عشر» العقيدة الجديدة للسيدة

العذراء عام (١٩٥٠م)، أصدر مرسومًا جديدًا عام (١٩٥٤م) يرفعها بموجبه إلى رتبة «مشاركة للسيد المسيح فى تخليص آلام البشر» وتوَّجها «ملكة للسماء» ثم جعلها «أما للكنيسة» عام (١٩٦٤م).

وفيما بين عامى (١٩٥٤م - ١٩٥٥م) أقر نفس البابا إقامة عام كامل احتفالى للسيدة العذراء، وفيما بين عامى (١٩٨٧م - ١٩٨٨م) أقر البابا «يوحنا - بولس الثانى» الاحتفال لمدة عام آخر للسيدة العذراء بمناسبة عيد ميلادها الألفينى..) (فلورنس مونترينو:

Mantreynaud Le XXe Siécle des Femmes, éd Nathan. Paris, 1992

وهكذا تتوالى القرارات والتعديلات عبر السنين.

٤ - **مجمع خلقيدونيا (عام ٤٥١م):** انعقد لإدانة «ديوسكور السكندرى» والقائلين بالطبيعة الإلهية الواحدة للسيد المسيح، وقام البابا «ليون الأول الأكبر» بإقرار طبيعة للسيد المسيح تتضمن طبيعتين فى شخص واحد، وأدان الكنائس الشرقية (القبطية والأرمنية والسورية) وقام باستبعاد كنيسة الإسكندرية تمامًا لاعتراضها - إلى جانب الخلافات العقيدية - علي السيادة المضفاة على بيزنطة والضغوط الناجمة عن احتلالها الشرق والسيطرة عليه، مع كل ما صاحب ذلك من قهر وتعذيب واغتيالات جماعية للأقباط على أيادى أساقفة بيزنطة.

٥ - **مجمع القسطنطينية الثانى (عام ٥٥٣م):** انعقد لإدانة ما أطلقوا عليه «الفصول الثلاثة» من كتابات النستوريين، كنوع من المهادنة للمنادين بالطبيعة الواحدة، الذين سبق وتمت إدانتهم بإجحاف فى مجمع خلقيدونيا وذلك درءًا لثورات دفينة قد يصعب السيطرة عليها.

٦ - **مجمع القسطنطينية (عام ٦٨٠م):** انعقد لإدانة المنادين بطبيعة إلهية واحدة للسيد المسيح، وأنه لا توجد لديه سوى إرادة واحدة هى الإرادة الإلهية.

٧ - **مجمع نيقية الثانى (٧٨٧م):** انعقد لبت وحسم تلك المعركة الدينية المعروفة تاريخيًا باسم «معركة الأيقونات»، أى معركة المطالبين بتحريم الصور والرسومات التزامًا بالوصية الثانية من وصايا سفر الخروج القائلة: «لن تصنع لك تمثالاً منحوتًا ولا صورة مًا، مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض» (إصحاح ٤ : ٢٠) إلاّ أن المجمع قد أباح شرعية الصور والأيقونات، واعتبروها بمثابة «إنجيل للأميين».

ومن المعروف تاريخيًا أن معظم وثائق هذا المجمع قد تم حرقها آنذاك، وما بقى منها إنما هو أصداء، نجد مظانًا لها فى كتابات الآخرين، التى يستشف منها أن السبب الحقيقى هو ظهور الإسلام وانتشاره ومطالبة المجمع بمحاربته بشتى الوسائل بما فى ذلك الصور لتثبيت العقيدة المسيحية.

٨ - **مجمع القسطنطينية الرابع (عام ٨٦٩م):** انعقد لإدانة «فوسيوس» رجل اللاهوت والعلامة البيزنطى الذى كان يشغل منصب بطريرك القسطنطينية من عام (٨٥٨م) إلى عام (٨٦٧م) والذى كان على خلاف شديد مع كنيسة روما؛ بسبب إرسال البعثات التبشيرية إلى بلغاريا وتخطى نفوذه، وبسبب دفاعه عن الأرثوذكسية، إذ كان يعتبر استبعاد كنيسة الإسكندرية أكبر خطيئة ارتكبتها كنيسة روما.

كما كان فوسيوس من أقوى المعارضين الذين هاجموا تأليه الروح القدس، وذلك فى كتاب بعنوان: «سر أسطورة الروح القدس» Mystagonie de l'Esprit Saint. وهو أول رفض تفصيلى لتحريف النص اللاتينى وتحريف العقيدة. وتجدر الملاحظة إلى أن الآراء تختلف حول اعتبار هذا المجمع الثامن مسكونيًا أم لا..

* * *

أما فيما يتعلق بالمجامع الغربية العامة والتى طالب البابا بانعقادها اعتبارًا من القرون الوسطى، فهى توضح بجلاء انتقال السلطة نهائيًا من الإمبراطور الذي كان يدعو لانعقادها، لتصبح فى يد البابا وحده بلا شريك

أو منازع.. وتتلخص هذه المجامع على النحو التالى:

- **مجمع لاتران الأول (عام ١١٢٣م):** دعى إليه البابا «كاليتكس الثانى» للموافقة على معاهدة وورمس Worms التى تم توقيعها عام (١١٢٢م) والخاصة بقيام البابا بتعيين الأساقفة بدلاً من إمبراطور ألمانيا الذى أصبح من حقه فقط أن يمنحهم الخيرات ومزيدًا من السلطات. وكانت هذه المعركة القائمة لانتزاع آخر خيوط السلطة المدنية على نسيج السلطة الكنسية معروفة باسم «معركة التعيين» أو التنصيب فى المراكز العليا.
- **مجمع لاتران الثانى (عام ١١٣٩م):** انعقد هذا المجمع لحسم الخلاف القائم بين البابا «أينوسنت الثانى» و«أناكليه الثانى». كما تم خلاله اعتبار جزيرة صقلية مملكة وراثية للكنيسة.
- **مجمع لاتران الثالث (عام ١١٧٩م):** كان انعقاده لإعادة النظر وتقنين عملية انتخاب البابا وضرورة أغلبية ثلثى الأعضاء، ولتصفية الصراع القائم بين البابا و«فريدريك برياروس» إمبراطور ألمانيا الذى كان يشن الحملات الحربية على إيطاليا. كما أدان المجمع هرطقة مذهب «الكاتار» أو عقيدة «التطهر» التى قامت ضد تطرفات رجال اللاهوت الكاثوليكى. وقد تمت إبادتهم بأمر من البابا أينوسنت الثالث.
- **مجمع لاتران الرابع (عام ١٢١٥م):** انعقد لمواصلة متابعة المذاهب المنشقة ولتحديد معنى استحالة القربان (تحوُّل خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه)، وفرض مبدأ «الاعتراف» دوريًا و«المناولة» سنويًا - كمزيد من الرقابة والسيطرة على الأفراد.
- **مجمع ليون الأول (عام ١٢٤٥م):** انعقد لفصل الإمبراطور «فريدريك الثانى» وحرمانه من الانتماء للعقيدة لمعارضة حقوق الكنيسة فى إيطاليا.

وكان ملكًا على صقلية (١١٩٧م - ١٢٥٠م) وإمبراطورًا على ألمانيا (١٢٢٠م - ١٢٥٠م).

● **مجمع ليون الثانى (عام ١٢٧٤م):** انعقد للقيام بمحاولة جادة للوحدة مع الكنيسة اليونانية، والمطالبة بمجمع كرادلة للانتخابات البابوية، والمطالبة بمواصلة الحروب الصليبية.

● **مجمع فيينا (عام ١٣١١م):** انعقد لبحث الصراع القائم مع «فيليب لوبل» ملك فرنسا الذى كان يمارس سلطة استقلالية عن البابا، واختلف معه فيما يتعلق بالضرائب العشرية وبسبب تنظيم جنود «رتبة الهيكل» الذين أثروا ثراءً فاحشًا، وكان ملك فرنسا آنذاك يواجه مصاعب مالية بسبب غزواته التوسعية. فقام بدعوى ضد «جنود الهيكل» للاستيلاء على ثرواتهم. وأن البابا قد تحايل على ذلك بأن ألغى هذا التنظيم، لكى لا تتسرب أمواله للدولة وللسلطة المدنية، كما تدخل هذا المجمع فى معركة «الفرنسيسكان» التى كانوا يخوضونها ضد الفقر.

* * *

أما مجامع عصر النهضة فهى تلك المجامع التى انعقدت فى فترة الأزمة المجمعية وأهمها:

● **مجمع كونستانس (عام ١٤١٤م):** وقد دعى للاجتماع للحد من الانقسام الكبير الذى كان يجتاح الغرب، وحضره بضعة آلاف من رجال اللاهوت والعلمانيين والعسكريين. ووافق الآباء خلاله على قبول استقالة بابا روما جريجوار الثانى عشر وإقالة البابا المجمعى «يوحنا الثالث والعشرين»، وبابا مدينة «آفينتون بنوّا» الثانى عشر، لتورطهم فى مسألة صكوك الغفران، كما قرر المجمع أن يقوم الكرادلة بانتخاب البابا الجديد (مارتان الخامس). وفى نفس ذلك المجمع تمت إقالة جون هاس John Huss؛ لأنه كان يعارض بيع صكوك الغفران ويساند «جون فيكليف» J.Wicklif، عالم اللاهوت البريطانى، المناهض لانحرافات البابوية ورجال اللاهوت وما أدخلوه من انحرافات فى العقيدة. وكان جون هاس عميد جامعة «براغ»

ويندد باحقية الكنيسة فى إشعال الحروب. وقد تم حرقه حيًا، كما تمت إدانة «فيكليف» الذى يعد سبّاقًا فى مجال عصر الإصلاح.

- **مجمع بال - فرارى - فلورنسا (عام ١٤٣١م):** تم انعقاده فى المدن الثلاث على التوالى لعمل محاولة جديدة للوحدة مع الكنيسة اليونانية، والأرمنية واليعاقبة.
- **مجمع لاتران الخامس (عام ١٥١٢م):** انعقد بسبب الخلاف القائم بين البابا و«لويس الثانى عشر» ملك فرنسا، وحسم الصراع الناجم عن توقيع الاتفاقية بين البابا «ليون العاشر» والملك فرانسوا الأول لانضمامه إلى حروب البروتستانت ضد المقر البابوى، ولإعلانه اللغة الفرنسية بدلاً من اللاتينية فى القضاء والسجلات المدنية.

وهناك المجامع الحديثة الكاثوليكية وحدها، وهى مجامع أساقفة ورجال اللاهوت بدون مشاركة الأمراء أو زعماء الدول المدنيين، وإن كانت اهتماماتها عالمية، ومنها:

- **مجمع ترانت (عام ١٥٤٥م):** انعقد للبت فى مسائل عقيدية فى تلك الفترة المواكبة لأعنف الانقسامات الكنسية ومناقشة مصداقية الكتاب المقدس، والتراث، والخطيئة الأولى، والعدالة، وأضفوا تعريفًا جديدًا حول التضحية والمناولة والأسرار وعبادة القديسين، وتبجيل الصور والأيقونات، وكان البروتستانت قد قاموا بتحريمها ثانية.
- **مجمع الفاتيكان الأول (عام ١٨٦٩م):** انعقد لمناقشة موقف الكنيسة في مواجهة العصر الحديث، والعقلانية، والاكتشافات العلمية الجيولجية وخاصة علم «الأنثروبولوچيا» الذى جعل من المحال التسليم بأن عمر الإنسان على الأرض مجرد قرابة ستة آلاف سنة أو أقل وفقًا للتقويم الوارد فى جداول الأناجيل أو كما تفرضه الكنيسة ضمن ما تفرضه من قضايا على أتباعها يتم تقبلها بلا مناقشة.. فوفقًا لهذه الجداول آدم قد ولد قبل (١٩٤٨) عامًا من سيدنا إبراهيم. والفرق بين سيدنا إبراهيم

وبداية العصر المسيحى (١٦٢١) والأمر الذى يحدد عمر وجود الإنسان إذا ما أضفنا فترة العصر الحديث (١٩٤٨ + ١٦٢١ + ١٩٩٢) ٥٥٦١ عامًا!! وهنا يقول موريس بوكاى Maurice Bucaille: «وكل ما اكتفوا به هو حذف هذه الجداول» (**La Bible, le Coran et la Science.** Seghers, Paris, 1978).

كما أكد هذا المجمع سيادة البابا على كل شىء، وانه معصوم من الخطأ!! الأمر الذى أدى إلى خلافات وانقسامات جديدة.

- **مجمع الفاتيكان الثانى (عام ١٩٦٢م/١٩٦٥م):** انعقد لتدارس موقف الكنيسة حيال العصر الحديث، وقام بطبع رسالة افتتاح وختام المجمع عام (١٩٦٥م)، وهى رسائل موجهة للعالم أجمع وأكثر ما لفت الأنظار فى هذه البيانات ذلك البيان الخاص بحرية العقيدة والديانات غير المسيحية، فقد اتخذ المجمع قرارين لا سابق لهما فى تاريخ المجامع وهما: تبرئة اليهود من قتل السيد المسيح (على الرغم من كل ما هو وارد صراحة فى العهد الجديد من إدانة لهم)، والموافقة على فتح حوار مع المسلمين، وذلك إلى جانب البيان الخاص بضرورة توحيد الكنائس، ودراسة كيفية توجيه وسائل الإعلام كالصحافة والإذاعة والتليفزيون والسينما لتنصير العالم!!.

ونظرًا لأهمية هذا المجمع، فسوف نفرد له دراسة منفصلة تتسم بشىء من التفصيل.

* * *

وقبل أن ننهى هذا العرض الموجز لتاريخ المجامع، والذى تابعنا خلاله تلك المسيرة الملطخة بالدماء، وذلك الصراع من أجل السلطة والسيطرة والذى نراه أبعد ما يكون عن تعاليم السيد المسيح، بجانب ذلك التعصب المذهبى المرير إلى أن تصبح المسيحية «أكثر الديانات انقسامًا وانشقاقًا».. فلابد من أن نتناول ملمحًا آخر مكملاً لهذه المجامع ومواكبًا لها، ألا وهو «الرسائل البابوية» والتى سنكتفى بالإشارة إلى أهمها..

والرسائل البابوية هى تلك الخطب والتوجيهات العامة الصادرة عن البابا كتحديد للسياسة العامة للكنيسة، وهى موجهة إلى كافة الأساقفة، ليقوموا بدورهم بتوجيهها إلى أتباع الكنيسة فى العالم أجمع أو منطقة بعينها، ولن نتناول هنا سوى التنويه إلى مضمون أهم هذه الرسائل - فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين فحسب - لتوضيح الدور الذى تقوم به الكنيسة فعلاً كمؤسسة تتولى توجيه شئون العالم الغربى السياسية وتخطيها بذلك لحدودها العقيدية.

أهم رسائل البابا بيوس التاسع

فى عام (١٨٤٩م): ضد الاشتراكية.

وفى عام (١٨٦١م): ضد الأنظمة السياسية التى تسمح بالعبادات غير الكاثوليكية.

وفى عام (١٨٦٣م): حول السلطة الزمنية.

وفى الثامن من ديسمبر عام (١٨٦٤م): إدانة للمذاهب السياسية الطبيعية، وحرية العبادات، والديمقراطية.. إلخ.

وكانت هذه الرسالة البابوية مصحوبة بكشف يتضمن «ثمانين خطأ من أخطاء العصر» فى نظره؛ وفى عام (١٨٧٥م) كانت رسالته ضد سياسة بيسمارك المسماة: Kulturkampf.

أهم رسائل البابا ليون الثالث عشر

فى عام (١٨٧٩م): ضد العقلانية.

وفى عام (١٨٨٥م): حول الديمقراطية ودور الكنيسة فى الدولة.

وفى عام (١٨٨٨م) حول الحريات الفردية.

وفى الخامس عشر من شهر مايو عام (١٨٩١م): حول المسألة الاجتماعية.

وفى عام (١٨٩٣م) حول تعليم الإنجيل وضرورة التقريب بين الكنائس (ضمًا إلى الكنيسة الكاثوليكية بالطبع).

وفى عام (١٨٦٩م) جاءت رسالته حول ضرورة التقريب بين الكنائس مرة أخرى.

أهم رسائل البابا بيوس العاشر

فى عام (١٩٠٦م): إدانة قانون فصل الكنيسة عن الدولة الصادر فى ديسمبر عام (١٩٠٥م) فى فرنسا؛ وفى عام (١٩٠٧م): إدانة العصرية (modernisme) أو التجديدية فى المجال الدينى، (والبابا «بيوس العاشر» هو الذى أدان القس «لوازى Loisy» وكان من أهم المنادين بضرورة التجديد).

أهم رسائل البابا بنوا الخامس عشر

فى عام (١٩١٤م): عن السلام.

وفى عام (١٩٢٠م): حول الإنجيل.

أهم رسائل البابا بيوس - الحادى عشر

فى عام (١٩٢٤م): عن جمعيات الأبرشيات.

وفى عام (١٩٢٩م): حول التعليم المسيحى.

وفى عام (١٩٣٠م): حول الزواج والأسرة.

وقد هاجم البابا وأدان تحديد النسل الإرادى.

وفى عام (١٩٣١م): ضد نقد الإنجيل عقلانيًا، وفى الخامس عشر من مايو عام (١٩٣١م): ضد الأنظمة السياسية الشمولية؛ وفى عام (١٩٣٧م): إدانة الشيوعية الملحدة، وهذه الرسالة البابوية معاصرة للرسالة التى تدين النازية.

أهم رسائل البابا بيوس الثانى عشر

فى عام (١٩٣٩م): ضد الحرب.

وفى عام (١٩٥٠م): ضد النظريات المدنية.

ورسالة غيرها حول الإرساليات وعملها.

ورسالة أخرى حول الاحتفال تخليداً لذكرى مجمع خلقيدونيا المنعقد فى عام (٤٥١م) والذى تم خلاله تحديد طبيعة السيد المسيح بأنها تتضمن طبيعتين إلهية وإنسانية فى شخص واحد، كما تم استبعاد الكنيسة القبطية لرفضها ذلك، ورفضها اعتبار الروح القدس مساويًا لله.

وفى عام (١٩٥١م): التوصية بتلاوة المسبحة ولعل نيافته قد فرض تلاوتها لكى تنطبق الآيات الخاصة بالتسبيح على المسيحيين، ولا تعد دليلاً على الإسلام والمسلمين!.

وفى عام (١٩٥٤م): حول إعلان السنة الخاصة بالسيدة مريم العذراء - ذلك أن الكنيسة منذ عام (١٩٥٠م) قد فرضت عقيدة السيد المسيح بمعجزة تصعيد جسد السيدة العذراء إلى السماء بمعاونة الملائكة.

أهم رسائل البابا يوحنا الثالث والعشرين

فى عام (١٩٥٩م): حول التوصية بتلاوة المسبحة، وحول الإرساليات.

وفى عام (١٩٦٠م): حول «الدم الثمين».

وفى عام (١٩٦١م): حول ليون الأكبر بابا روما من (٤٤٠م) إلى (٤٦١م) والذى أنقذها من سلب «الهانز»، وحول التعاليم الكنسية والمشاكل الاجتماعية.

وفى عام (١٩٦٢م): حول مجمع فاتيكان الثانى.

وفى عام (١٩٦٣م): حول مذهب الكنيسة فيما يتعلق بالسلام وعلاقتها بالعالم الشيوعى.

أهم رسائل البابا بولس السادس

فى عام (١٩٦٧م): حول التقدم، وتبتل القساوسة.

وفى عام (١٩٦٨م): عن موقف الكنيسة فيما يتعلق بالسيطرة على الإنجاب ورفضها لوسائل منع الحمل لدى المسيحيين.

* * *

وبعد هذا العرض الخاطف لشذرات من معلومات أصبحت من أبجديات التاريخ والحضارة، والتى توضح بشكل صارخ تدخُّل معقل البابوية للسيطرة على العالم وصياغة تطوره والتحكم فيه وفقًا لكل ما نسجته الأيادى المتعصبة على مر التاريخ.. هل بعد ذلك يحق لأى صوت من تلك الأصوات المنادية بضرورة فصل الدين عن السياسة فى الإسلام أن يطالب بما يلوكه ترديدًا لأقوال الغرب ومحاولاته أو تواطؤًا مع مصالحه؟! وسواء أكان هذا الترديد عن عمد أم عن جهل، فلقد أصبح متعينًا على الجميع هنا فى مصر والعالم العربى أن يعيدوا النظر فى موقفهم، ليس حيال مجازر امتدت عبر التاريخ فحسب، ولا حيال ما يدور فى البوسنة والهرسك من إبادة متعمدة، فمن لم يمت بلهيب السلاح سيموت قطعًا بزمهرير الثلوج، وإنما حيال كل ما يضمره الغرب ويخطط له من عمليات إبادة أخرى قادمة..

فبدلاً من التواطؤ صمتًا أو ترديدًا لمصالح الغرب وتعصبه.. وبدلاً من سلب الإسلام قواه وكيانه.. على المسلمين والعرب جميعًا أن يواجهوا مرارة الواقع المحيط بهم والمستقبل الذى ينتظرهم ليس بالأقوال وحدها، وإنما بالتخطيط والتصدى على كافة المستويات وفى كافة المجالات، وبالفهم الصحيح للدين الإسلامى الذى لا يجهل الغرب أنه دين دنيا وآخرة.. ولنذكر ما كتبه أرنست رينان المتخصص فى اللاهوت والتاريخ قائلاً: «إن الأحرار الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفونه. إن الإسلام هو الاتحاد الذى لا يفصم بين ما هو روحى وما هو دنيوى، إنه حكم العقيدة، أى أنه أثقل أغلال تكبلت بها الإنسانية على الإطلاق»! **(فى: الإسلام والعلم ١٨٨٣م)**.

وقبل أن ننهى هذا الجزء الخاص بالدين والدولة، والذى أوضحنا خلاله الدور السياسى الذى قام به التعصب الكنسى وصراعه للاستحواذ على السلطة المدنية منذ اللحظات الأولى للإعلان عن المسيحية كديانة رسمية عام (٣١٣م)، الأمر الذى يختلف تمامًا وتعاليم السيد المسيح الذى كان اهتمامه بالجانب الروحى فحسب، لكن أنَّى لمتعصب أن يرعوى أو يلتزم بصحيح دينه، الأمر الذى يدعونا إلى متابعة هذا الاتجاه هونًا؛ لنجلو مزيدًا من وقائعه، إلى أن نصل إلى العصر الحديث.

ولن نبدأ بتلك الواقعة المعروفة منذ عام (١٩٤٧م)، بعد هزيمة اليابان وقيام الجنرال الأمريكى «ماك أرثر» بإلغاء الشنتوئية كديانة رسمية للدولة - بناء على تعليمات «عليا»، ومحاولة نشر المسيحية.. ولن نذكر ذلك الحديث الشهير الذى أدلى به «ليخ فاونسا» فى شهر أبريل عام (١٩٨٩م) عند زيارته للفاتيكان قائلا: «لولا البابا يوحنا بولس الثانى لما استطاع حزب التضامن (سوليدا رنوشتش) أن يرى الوجود»! وهى عبارة توضح الدور الحقيقى الذى لعبه البابا سياسيًا فى قلب موازين القوى فى الساحة السياسية، الأمر الذى يتمشى وإحدى الرسائل البابوية الآنفة الذكر لمحاربة الشيوعية. فمن المؤكد والثابت وثائقيًا أن الكنيسة البولندية قد لعبت دورًا حاسمًا فى الصراع ضد الشيوعية وضرب حلف وارسو.

وإن كان المجتمع البولندى حاليًا قد بدأ يتذمر من التدخل الكنسى المفرط فى الشئون الداخلية (راجع مجلة Phosphore عدد شهر ديسمبر عام ١٩٩١م).. وإنما سنعرض سريعًا لكتاب جان دليمو J. Delumeau، المؤرخ الفرنسى وأستاذ التاريخ فى كوليج دى فرانس وعنوانه La peur en Occident (**الخوف فى الغرب**)، والذى يوضح فيه ذلك الصراع الطويل الذى خاضته الكنيسة ومحاولتها طوال عشرين قرنًا السيطرة على شئون الدولة، وكيف أن القرار الصادر فى فرنسا عام (١٩٠٥م) لفصل السلطتين لم يكن بالحسم الكافى فى التنفيذ العملى».

ويوضح المؤرخ كيف تسرب النفوذ الدينى منذ القرن الرابع، عندما اعتنق الأباطرة المسيحية وأدخلوا الديانة الجديدة فى الدولة.. وبدأ الصراع لفرض عقيدة الإله الواحد الثلاثى، ومنع عبادة الآلهة الوثنية، واستمرار عبادة الإمبراطور.. ويؤكد القديس «برنار» أن السيفين «أى السلطة الكنسية والعلمانية كانت كلتاهما ملكًا للكنيسة».

ويذخر التاريخ بالوقائع التى توضح كيف كان البابا أينوسنت الثالث قد مارس سلطة مدنية فعلية على العديد من البلدان المسيحية مثل: «صقلية» و«أراجون» و«إنجلترا»، ومملكة القدس، والإمبراطورية اللاتينية للقسطنطينية، وذلك فيما بين (١١٩٨م)، (١٢١٦م) أيام توليه السلطة البابوية. كما أنه أخضع «جان - سان - تير» (J.st-Tyr) وحرمه من الديانة لتدخله فى شئون الكنيسة الإنجليزية.

وهذه التفاصيل توضح كيف تطورت الأمور؛ لتصل فى القرن الثانى عشر إلى محاكم التفتيش بما أنه «فى الأراضى المسيحية لا يجب أن يكون هناك سوى سلطة الدين المسيحى الممثلة فى كنيسة روما، وأى خروج عن ذلك كان يعتبره البابا «أينوسنت الثالث» فى عام (١١٩٩م) هرطقة وسبًا فى الذات العليا»!!.

يوضح المؤرخ «جان دليمو» عمليات القمع والتعذيب البشعة، التى كانت تتم لإخماد أية «هرطقة» أو اعتراض، وكيف أن الحكم كان يصدر عن الكنيسة التى كانت تترك التنفيذ الإجرامى للسلطة المدنية وجنود الملك!!.

ولقد بدأت محاولات الحد من سيطرة الكنيسة فى القرن السابع عشر، لتكون السلطة فى أيدى الحكام المدنيين، ومع بداية عصر الثورة الفرنسية ازدادت المواجهة بين السلطتين، بل إنه فى عام (١٧٩١م) لم يأخذ النواب رأى البابا فى التصويت على الدستور المدنى لرجال الدين الذى يعيد تكوين كنيسة فرنسا. وبدأ اعتبار رجال الدين موظفى دولة يتقاضون مرتبات، مثلهم كمثل بقية الموظفين.. كما قامت الدولة بتعيين الأساقفة ليتم بعدها إعلان البابا

بذلك. وهكذا بدأ صراع البابا من جديد..

ولم يخمد هذا الصراع عشر سنوات، إلاّ بالمعاهدة التى وقعها نابليون بونابرت والتى تنص على أن تتولى الكنيسة تعيين القسس، وإن احتفظوا بوضعهم الوظيفى، كما نصت الاتفاقية على أن تخضع المجامع لسلطة الدولة. ولم يكف البابا عن الصراع.. ذلك الصراع الذى تم حسمه للمرة الثانية عام (١٩٠٥م) والذى نص على أن الدولة لا تقر، ولا تمول أية عقيدة، وإن كانت «تكفل حرية العقيدة للجميع».. لكن هل تشير مجريات الأحداث إلى الالتزام بذلك؟

نستطيع أن نشير - من خلال الوقائع التى تغص بها المراجع العلمية - إلى أنه على الرغم من انتشار العلمنة فى أوروبا، (لكى لا نقول شيئًا عن موجة الإلحاد التى سادت بسبب كل ما تم الكشف عنه من تحريف وتزييف للنصوص الدينية)، وعلى الرغم من النصوص أو الاتفاقيات الصريحة التى تنص على فصل السلطة الدينية عن الدولة فى الغرب، فإن واقع الأحداث فى الساحة العالمية شاهد بما لا يدع مجالاً للشك على تلك التدخلات السافرة التى تحوّل التدخل إلى مجازر وحشية، يقودهما التعصب تحت زعم التطهير العرقى وغيرها من تكآت تدين أكثر مما تخفى، وتكشف وتعرى بأكثر مما تموه، رغم هذا الزعم أو ذلك التمويه.. فعلى الغرب المتعصب أن يذكر نفسه بما نسيه وحاد عنه، من أن الرسالة الخاصة والتى لا يجهلها - التى عهد بها السيد المسيح إلى الكنيسة ليست سياسية ولا اقتصادية ولا اجتماعية أو فنية، وأن الهدف الذى رسمه لها هدف دينى فحسب.

ولا نظنه - فى ضوء ما يراه الكافة من واقع ووقائع - يحق للغرب أن يطالب الإسلام والمسلمين بالخروج عن تعاليم دينهم، والفصل بين الدين والدنيا، فالإسلام - كما نكرر دومًا وكما يفرضه بتعاليمه، دستور حياة وآخرة، فلا يحق لمخلوق أن يعبث أو أن يتواطأ - جهلاً أو عن عمد - للمساس بما أنزله الله سبحانه وتعالى.

الفصل الثالث

الأصول والتحريف

الأصول.. والتحريف

نظرًا لكل ما أورده الباحث «جيرالد ميساديه» G.Messadié فى المجلد الثانى من كتابه المعنون: «**الرجل الذى أصبح الله**» من ملاحظات وأبحاث تناقض كل ما حاول التيار المتعصب فى الكنيسة الكاثوليكية فرضه على مر العصور، فالجزء الثانى بأسره لا يتضمن سوى مثل هذه الملاحظات الدقيقة، والتى لا تستقيم معها فريات تم نسجها، بل ولا تزال تنسج حتى أواخر القرن العشرين أو حتى يومنا هذا.. ونظرًا لأهمية كل ما أورده فيما يتعلق بالأناجيل وتاريخها العصيب، وكل ما يتضمنه من حقائق يصعب تلخيصها، لذلك آثرنا ترجمة هذا الجزء الذى يتناول فيه مناقشة مصداقية الأناجيل وأصولها وما أجرى فيها من تحريف:

«إن المآخذ التى لاحظتها على الأناجيل الرسمية أقل بكثير مما تتضمنه بالفعل من مثالب، وستتناول كل ملاحظاتى نفس تلك التحفظات الشائعة لدى الباحثين فى أصول الأناجيل. وعدد هذه التحفظات الرئيسية: ثلاثة.

يتعلق **التحفظ الأول** بأن الأناجيل لا تمثل علاقات مباشرة لشهود اسمهم: «مرقس، لوقا، متى، ويوحنا»، وإنما هى أناجيل وفقًا لهؤلاء الأشخاص، والدليل على ذلك هو أنه فى القرن الثانى، حينما أعلن «مرسيون» Marcion مجهز السفن بمدينة بيت عانيا، تلميذ بولس والصياد المتحمس، مؤكدًا أن الإنجيل الأصلى الوحيد هو إنجيل لوقا – وأنه شخصيًا قد عدله

بعض الشيء - قام رجال اللاهوت باتهامه بالهرطقة، فى الوقت الذى يعلمون فيه أنه ما من إنجيل من الأناجيل الشائعة آنذاك، بما فى ذلك تلك التى يطلقون عليها الأناجيل السرية أو المستبعدة، كانت ترجمة مباشرة من الأصل.

والتحفظ الثانى: يتعلق بأن النسخ الأولى للأناجيل الرسمية كانت عبارة عن ترجمات باليونانية ابتداء من أصول هى - وفقًا لعلماء اللغة عامة - كانت مكتوبة بلغة سامية. ولقد لفتت لغة مرقس اليونانية أنظار الباحثين من حيث كونها «يونانية الترجمة»، ولا غرابة فى هذا الأمر، فمن المؤكد أن يسوع كان يتحدث لغة سامية، وإلى حد ما بكل تأكيد كانت الآرامية، أثناء خطبه وأحاديثه مع شعب فلسطين، كما أن التدوينات الأولى لأقواله تمت بهذه اللغة أو علها تمت أيضًا بالعبرية. فالكنيسة الأولى فى القدس، منبع التراث اليسوعى، ما لبثت تتحدث بالآرامية. وقد أصبحت النسخ المدونة باللغة اليونانية ضرورية عندما بدأ الحواريون يبشرون فى حوض البحر الأبيض المتوسط، حيث كانت تسيطر اللغة اليونانية التى كانت اللغة المستعملة آنذاك فى القرنين الأول والثانى.

وربما كان المترجمون الأوائل إلى اليونانية الذين تم جمعهم من المقاطعات التى كانت أيام حصار تيتوس للقدس، عام ٧٠ وما بعده وبخاصة، عند نهب المدينة عام (١٣٢م)، عقب فشل ثورة بار كشيبه (Bar Kocheba) لم يعد لهم أية صلة بفلسطين، مثلما عرفها يسوع.

وإننا لا نعرف مَن هؤلاء المترجمون؟ لكننا يمكن أن نفترض أن عددًا منهم كانوا فلسطينيين من الشتات الأول، الذين لا يزالون يتحدثون اللغة الآرامية وأحيانًا العبرية دون شك، والذين أصبح واقع العالم اليهودى فى الثلث الأول من القرن الأول، يزداد إبهامًا بالنسبة لهم. وهو ما يفسر بعض الأخطاء مثل الخلط بين هيرود الأكبر المتوفى فى العام الرابع قبل الميلاد، وابنه هيرود أنتيباس، واختلاق أحداث مثل مذبحة الأبرياء التى لم يذكرها

أى مؤرخ، فى حين أن كافة أحداث «هيرود الأكبر» قد قام المؤرخ «فلافيوس جوزيف» Flavius Joseph بتدوينها بالتفصيل، أو تلك الأخطاء فى الترجمة، والتى تخلط ما بين يسوع الناصرى Jésus le Nazaréen ويسوع الكائن بالناصرة Jésus de Nazareth. ذلك أن أهل الناصرة كانوا طائفة لا علاقة لهم بضيعة الناصرة الغامضة. وهذه النقطة التى قد تدهش البعض قد تم تحليلها فى صفحة لاحقة فلا يوجد ما يدعو إلى أن نصدق نصوصًا متعددة الأصول، قد تم تحريفها بكل تأكيد عبر عدة محاولات للنسخ والترجمات من الآرامية إلى اليونانية، ومن اليونانية إلى اليونانية، ثم من اليونانية إلى اللاتينية عن طريق القديس «جيروم». الأمر الذى يعرفه كافة مفسرى النصوص الدينية. فلا الأناجيل الرسمية، ولا تلك المستبعدة كان نصوصًا أصلية لم تُمس، أتت إلينا من مصادر محددة، ولا يوجد أيضًا ما يدعو للدهشة لأن مفهوم النص التاريخى لم يكن معروفًا آنذاك. وأوائل المؤرخين من أمثال «تاسيت» Tacite، لم يكونوا سوى محررى حوليات، وكتاب أناجيل، أو بمعنى أدق العدد الكبير من كتاب الأناجيل لم يصوغوا نصوصهم إلا بهدف روح التبشير التى هى أبعد ما تكون عن المفهوم العصرى للتاريخ. يبقى بعد ذلك أن هذه النصوص قد تمت كتابتها فى فترة محددة تاريخيًا، وأنها من هذا المنطلق، تخضع لذلك الشكل من التحليل التاريخى للنصوص ونعنى به علم اللغة.

ومن ثم، فإن علم اللغة يؤكد لنا أن الأناجيل الرسمية لا تأتى من تلك المصادر النظرية التى افترضوا لها أسماء: «لوقا، ومرقس، ومتى»، فحسب بل إن هوية مؤلفيها مشكوك فيها! ففى مقال ورد بالموسوعة البريطانية Encyclopaedie Britanica إصدار عام (١٩٦٢م)، قام الأب أ. إ. ج. رولنصون A.E.J. Rowlinson أسقف دربى، وصاحب تلك الدراسة حول إنجيل «متى» والتى ظهرت فى «تعليقات وستمنستر» Westminster Commentaria يوضح

أن فى مجموع عدد آيات إنجيل مرقس ٦٦١ آية، نجد منها مع شىء من التغيير حوالى ستمائة فى إنجيل «متى» وثلاثمائة وخمسين فى إنجيل «لوقا». ومن أجل ذلك يطلق على هذه الأناجيل الثلاثة لفظة «متوافقة»، لأنها تستلهم نفس المنبع، بشكل مباشر بالنسبة لمرقس، وبشكل غير مباشر بالنسبة لكل من: «متى» و«لوقا»: وهذا المنبع أو الأصل غير معروف لليوم ويطلق عليه المنبع Q، اختصارًا للكلمة الألمانية Quelle وتعنى: المنبع. ولقد توصل «متى» و«لوقا» إلى هذا المنبع عن طريق «مرقس»، والذى كان مرقس قد استقى منه مباشرة. وإن تم ذلك بشكل عشوائى فيما يتعلق بالترجمة، لأن مرقس يقترف أخطاءً أجرومية يقوم «متى» و«لوقا» بتصويبها، كما يستخدم كلمات يونانية نادرة، يقوم «متى» و«لوقا» باستبدالها بكلمات دارجة أكثر فهمًا بالنسبة لمستمعيهم، الأمر الذى يعنى أننا لا نعرف أى شىء عن ذلك المصدر Q، الذى يرى الأب «رولنصون» وغيره من الباحثين أنه لم يكن باللغة السامية وإنما باللغة اليونانية، وحول هذه النقطة وما يتصل بمختلف منابع الأناجيل، فإنه يمكن الرجوع إلى تلك الدراسة القيمة لـ «بروس متزجر» Bruce Metzger: (**الأصول الأولى للعهد الجديد**)، ذلك لأنه كانت هناك سبع ترجمات سريانية للأناجيل، وخمس ترجمات قبطية، وست ترجمات أرمنية، وست أخرى جورجية، وخمس ترجمات أثيوبية، وخمس أخرى بلغة آسيا الصغرى، وثلاث ترجمات لاتينية، وخمس ترجمات قوطية، وخمس ترجمات سلافية، وثلاث ترجمات أوربية صغرى.

ودون الخوض هنا فى مناقشات تتطلب وحدها مجلدًا، أود أن أحدد للقارئ أن العديد من الأبحاث اللغوية حول الأناجيل الرسمية هى التى سمحت بأن نحدد بشكل منطقى ما كان عليه المحتوى الافتراضى للمنبع Q. ويبدو أن هذا المنبع قد اقتصر أساسًا على أقوال «يسوع» (مثل إنجيل توما)، وأن هذا الأصل الأول لا يتضمن أى شىء عن آلام المسيح، أى عن عملية صلبه.

وفيما يتعلق بتفاصيل هذه الأعمال، التى يعرفها المختصون، أسمح لنفسى بأن أوجه القارئ لدراسة شديدة العمق قام بها ج. أ. ويلز G. A. Wells (والتى لم تترجم) وهى بعنوان: **هل يسوع وجد حقًا؟**.

وذلك لا يعنى أن الآلام لم تحدث، وإنما أن مؤلفى الأناجيل الرسمية (المستبعدة) قد صاغوا أعمالهم اعتمادًا على رواية مختصرة، ربما كان متّى أول من استخدمها. أى أن «مرقس» و«لوقا» استوحياها فيما بعد؛ ذلك لأن «يوحنا» قد سلك طريقًا آخر.

ومع ذلك فهذا التقويم ليس نهائيًا؛ لأنه يبدو أيضًا أنه كانت هناك مراحل فى صياغة النصوص التى وصلت إلينا، والتى قرروا تعميدها فى القرن الخامس؛ من هنا نجد أن هناك شكلاً سابقًا لإنجيل «لوقا» يطلق عليه «النص الأول للوقا» «Proto-Luc» وهو يستحوذ على تفضيل المختصين أكثر من إنجيل «متّى».

وهذه الاعتبارات العلمية مهمة فى القراءة التحليلية للأناجيل عندما تكون مدعمة بالدراسات النقدية. ذلك أنها تسمح بالفعل بمتابعة اختلافات النصوص فى كل إنجيل فى علاقتها بمختلف مراحل حياة «يسوع»، وبالكلام الذى يسند إليه. كما أنها تسمح بإدراك وجهة النظر المميزة لكل كاتب من كتّاب الأناجيل بشكل أفضل.

وعلى أى حال فلا يوجد ما يدعونا إلى افتراض أن الأناجيل الرسمية، ولا حتى تلك المجموعة المتوافقة معها، يمكن اعتبارها، وفقًا للتعبير السائد ككلمات للإنجيل؛ لأنها أولاً قد تمت كتابتها فى أماكن شديدة الاختلاف وفى ظروف لم تتبع فيها الموضوعية بكل تأكيد. فإنجيل «متّى»، فى صيغته الثانية أو الثالثة التى لدينا حاليًا قد كتب فى الإسكندرية (راجع ويلسن: **يسوع - البرهان**) كما أن به تحيزات ضد السامية أحيانًا، وفى أحيان أخرى يكون مناصرًا لها.

أما إنجيل لوقا، فمن الواضح أنه صيغ من أجل أناس يتحدثون اليونانية من شخص قد تعلم اليونانية، وربما تم ذلك فى مدينة أنطاكيا (راجع ويلسن). ويؤكد التراث القديم أن إنجيل مرقس قد صيغ فى روما من شخص لم تطأ قدماه أرض فلسطين؛ لأنه يجهل جغرافيتها تمامًا. ونفس التراث يؤكد أن إنجيل «يوحنا» قد صيغ فى مدينة «أفسوس»، وأغلبية المفسرين وعلماء اللغة يؤكدون أنه قد تمت كتابته فى آسيا الصغرى الهللينية من قِبَل مؤلف يعرف القدس على الأقل.

ومن المؤكد أنه ما من إنجيل من هذه الأناجيل يمكن اعتباره صياغة أولى، وما من إنجيل من هذه الأناجيل قد وصلنا فى لغته الأصلية. وربما تم الاكتشاف ذات يوم عن مخطوطات أخرى تكون هى الأصلية.

وليس هذا الأمل افتراضيًا، وسأقدم المثل هنا عام ١٩٤١م، اضطر الدكتور «مورتن سميث» Dr. Morton Smith، الذى أصبح فيما بعد أستاذًا للتاريخ القديم فى جامعة «كولمبيا»، فى نيويورك، إلى البقاء فى فلسطين بسبب الحرب العالمية الثانية. صادق أحد الرهبان اليونانيين الأرثوذكس، ودعاه لقضاء بعض الوقت فى دير «مار سابا» على بعد عشرين كيلو متراً من القدس. و«دير مار سابا»، بالإضافة إلى دير «سانت كاترين»، يمثل واحدًا من أكبر ديرين أرثوذكسيين فى الصحراء. وعندما عاد «سميث» مرة ثانية عام (١٩٥٨م)، وكان ذلك بناء على دعوة من رهبان الدير، لدراسة وتبويب مجموعة مخطوطاتهم وكتبهم. وقد اكتشف عندئذٍ بآخر صفحة من طبعة لخطابات القديس «أغناس» فى إنطاكيا وهى ترجع إلى القرن السابع عشر، على نص مخطوط، يرجع إلى القرن الثامن عشر، وكان نسخة من خطاب «كليمنس السكندرى»، والذى يعد واحدًا من أشهر آباء الكنيسة، وقد عاش فى أواخر القرن الثانى؛ وكان هذا الخطاب موجهًا إلى شخص يدعى «تيودور». ويشير الخطاب إلى إنجيل سرى، أى مستبعد، لمرقس، يعتمد على

الإنجيل الرسمى، لكنه يتضمن إضافات موجهة لبعض تلاميذ المسيح، ويشار إليهم أحيانًا على أنهم... والذين قد ازدادوا اكتمالاً، وأحيانًا أخرى الذين قد تم تدريبهم على الأسرار الكبرى. ويذكر هذا الخطاب بعض المقاطع من ذلك الإنجيل الذى لم يكن معروفًا حتى ذلك الوقت.

وهذه المقاطع تثير القلق بشدّة، خاصة فى ذلك الجزء الخاص ببعث عازار Lazare وبداية النص تتفق إجمالاً والنصوص الرسمية: «جاءت امرأة هلعة قد توفى أخوها للتو، وارتمت عند أقدام يسوع، فصدها الحواريون، لكن يسوع تبعها إلى الحديقة حيث يوجد القبر، وبينما كان يقترب منه، سمع صرخة مدوية تنبعث من القبر. وقام يسوع بدحرجة الحجر المستدير الذى يسد القبر، مثل كل مدافن اليهود، ووجد الشاب بداخله. ومد له يسوع يده وأنهضه. لكن الشاب راح ينظر إليه فأحبه، وبدأ يرجوه أن يظل معه. ثم خرجا معًا من القبر، ودخلا منزل الشاب وكان ثريًا، وبعد ستة أيام قال له يسوع، ما كان يتعين عليه أن يفعله، وفى المساء، عاد إليه الشاب مرتديًا رداءً من الكتان على جسمه العارى. وظل مع يسوع ذلك المساء، لأن يسوع علمه سر مملكة الله، ومنذ ذلك الوقت عاد ذلك الشخص الذى بُعث إلى الضفة الأخرى من النهر (Wilson, **Jesus - The Evidence**. Smith, **Clement of Alexandria & a Secret gospel of mark, the secret gospel**).

ويستكمل كليمنتس السكندرى هذا الاستشهاد مؤكدًا أنه لا يوجد أى شىء فى هذا الإنجيل السرى يبرر الشائعات التى سمعها تيودور، والتى يقال تبعًا لها إن يسوع وهذا الشاب كانا عاريين أثناء اطلاعه على الأسرار. ثم بتصويب فقرة كانت حتى ذلك الوقت غامضة فى إنجيل «مرقس»، عندما يكتب «مرقس» بالفعل فى الآية ٤٦ من الإصحاح العاشر: «لقد وصلوا (أتباع يسوع العشرة) إلى أريحا، وبينما كان (المسيح) يغادر المدينة مع حوارييه وجمهرة من الناس..» إلخ وهو تحديد غير مفهوم؛ إذ ما معنى أن يقول إن

يسوع ذهب إلى أريحا، لو لم يَحدث شىء مهم فى تلك البلدة؟ غير أن كليمنتس السكندرى قد كتب: «لقد كانت هناك أخت الشاب الذى كان يسوع يحبه، وأمها وسالومى، ولم يستقبلهم يسوع».

إن هذه الفقرات المجهولة تثير القلق بشدة لأسباب خمسة أساسية وأخرى جانبية:

السبب الأول: تلك الليلة التى أمضاها يسوع مع الشخص الذى بُعث ليعلمه الأسرار. ومع رجائنا استبعاد أى شك فى علاقة مثلية، وقد تم تحليل هذه النقاط فى مكان لاحق!!، فلا بد لنا من أن نشير إلى طقس تعليمى سرى، لا بد وأن يسوع قد مارسه. وربما كان التعميد، والذى يمكن تفسيره بأن الشاب الذى بعث لم يكن يرتدى سوى رداء من الكتان، وإنما يشير ببساطة إلى الأسينيين فى تعميد الماء. وإن كان هذا التفسير غير كاف، وسنعود إليه فى الملحظ الخاص بالقبض على يسوع، وهى الواقعة التى نلتقى خلالها ثانية بنفس ذلك الشاب.

والسبب الثانى: هو أن واقعة بعث عازار (يُفترض أنه هو فعلاً؛ لأن كليمنتس السكندرى لا يذكر الاسم) كانت موجودة أصلاً، لكن بشكل مختلف فى إنجيل «مرقس».

ولم نكن نعرفها إلا من إنجيل يوحنا، وبشكل غير مباشر تمامًا عن طريق إنجيل لوقا (١٦ - ١٩ - ٣١). إلاّ أنه توجد أسباب جادة تجعلنا نقول: إن إنجيل «مرقس» قد تعرض للبتر، ولا يمكن الحديث بالطبع عن مقدار ما حذف منه.

والسبب الثالث: هو أنه وفقًا لمقولة الاستشهاد المسند إلى «كليمنتس السكندرى» فقد كان يوجد إنجيل مواز أو على الأقل معاصر لهذا المؤلف، وعلى ما يبدو أقدم منه، وكان آنذاك قد تعرض لعمليات بتر فى مطلع القرن

الثـانـى، أى أنه كـانت هـناك سلطات تعـبث فى الشـهـادات الأولى، وفـقـًا لمقتضيات الكنيسة الناشئة.

والسـبب الرابع: هو أن نـص «مـرقس» وفـقـًا «لكيـمنتس السكندرى»، يستبعـد جـزءًا كبيـرًا من الطابع العينى لبعث عـازار. وبالفعل عنـدمـا وصل يسوع إلى القبر كان «عازار» يصرخ، أى أنه كان حيًا قبل أن يتمكن يسوع من دحـرجـة حـجـر المقبـرة. ويسـوع لم يفـعل أكثـر من أنه عاونـه على النهـوض، ويمكن القول بالطبع، فى التراث السيـار المسيحى: إن «عـازار» قد بعث نتيجة لوجود «يسـوع» على مقربة منه، ومع ذلك لا مـثيل لذلك فى المعجـزات الأخرى ليسـوع. ويمكن أن نتخيل أن الـوحى العلاجى ليسـوع هو الذى أشار إليه، وفقًا لقصـة أخت «عـازار» (وهـى «مـريم المجـدلية» على مـا يبـدو)، من أن عـازار لم يكن مـيتًـا، فحـتى يومنـا هـذا، فإننـا نجـد حـتى فى بلد صنـاعى مـتـقـدم مـثل «فرنسـا»، الإعلان عن دفن مبكر قبل الوفاة.

والسبب الخامس: والأخير للقلق أو الاضطراب هو أن إنجيل «مرقس» قد كان بمثـابة منبع لكل من إنجيل «متّى» و«لوقا»، لذلك فإننا نتساءل: لماذا لا توجـد الواقـعـة الخـاصـة بعـازار حتـى وإن كان فى الشكل «المنقـح» الذى يتناوله إنجيل يوحنا؟.

ويمكن بالـطبع أن نتـصـور أن الخطاب الـذى عثـر عليه سـميث مـختلف وفـى مثل هـذه الحالة يظل السـؤال الذى سـبق طرحه بلا جـواب، وهـو: مـا الذى يحدث فى «أريحا»؟

إلاّ أن هناك سببًا قويًا للقول بأن هذا الخطاب إنما هو أصلى: فها هى فقـرة من إنجيل مـرقس المعتـمـد بالطبع، والتى قـد أثارت الفـضـول لفـتـرات طويلة، وهـى تقـع فى إطار القبض على يسـوع: «وتبعـه شـاب لابسـاً إزاراً على عُـريه فـأمـسكه الشُّـبـان؛ فـتـرك الإزار، وهـرب منهـم عــريانًا (مــرقس ١٤/٥١/٥٢). وهـذا الـشـاب ورداؤه يـشـبـهـان بشكل غـريب ذلك الشـخص

المجهول الوارد فى خطاب «كليمنتس». ولا نشك أنه «عازار».

ومع ذلك، فإن «عازار» ليس من الحواريين، فى حين أن «مرقس» يقول: (فى ٢٤: ٣٢) إن يسوع قد ذهب مع حوارييه إلى جثيمانى بعد العشاء الأخير. وبما أن «عازار» لم يحضر فى العشاء الأخير، فإننا لا نرى ما الذى يفعله فى جثيمانى، ولقد سبق للبعض أن افترض أن هذا الشاب الذى هرب عاريًا ليلاً كان يوحنا، بما أنه هو ويعقوب الحلفى من أصغر اثنين فى هذه الجماعة.

ومع ذلك يظل هذا التفسير أعرج لسببين:

الأول: أنه لم يجر العرف فى العالم اليهودى آنذاك، أن يخرج المرء عاريًا فى إزار من الكتان، وخاصة فى شهر أبريل وعادة ما يكون شهرًا لما يزل باردًا فى فلسطين. لقد كانوا يرتدون إزارًا أشبه بأرديتنا فى القرون الوسطى، هى السق، وعليها قميص أو شالوك، يضمه رباط فى الوسط، وعليه معطف أو تاليث.

والسبب الثانى: هو أن الشبه بين الشاب الهارب «عازار» فى الواقعة المبتورة شديد الوضوح، وذلك من حيث العمر وليس لنا أن نهمل مثل هذا المعطى. إذ إن الأسئلة الناجمة عنه مصيرها أن تظل بلا جواب إلى أن يتم العثور على فقرات أخرى من إنجيل «مرقس».

وأهم هذه الأسئلة: هل كان عازار أحد أتباع يسوع تحت اسم لا نعرفه؟.

وهل ظل يحتفظ حتى النهاية بذلك الرداء الفريد كذكرى تعليمه الأسرار عقب خروجه من القبر؟

لقد أشرت آنفًا للفقرات المبتورة من خطوط «مرقس».

وفى مطلع القرن الثالث كان المؤلف المسيحى «هيبوليت» يطلق على «مرقس» «الرسول ذا الأصابع القصيرة» لأن إنجيله كان أقصر الأناجيل الأربعة.

وفى القرن التاسع عشر والقرن العشرين أكد علماء اللغة شكوك

«أوسيبيوس القيصرى» والقديس «جيروم»، اللذيْن يؤكدان أنه على الأقل فى نهاية إنجيل مرقس توجد فقرة مقحمة على اليد التى صاغت المخطوط الأصلى. وفى دراسته المفصلة الواردة بالموسوعة البريطانية، فإن هلموت هنريخ كوستر» Helmut Heinrich Koster الأستاذ المساعد للكتابات الإنجيلية الحديثة فى كلية هارفارد اللاهوتية، يلخص رأى أغلبية زملائه، وهو يعلن قائلاً إن آخر آية أصيلة فى إنجيل «مرقس» هى (٨: ١٦)، وأن الباقى كله تراكمات متأخرة كما تثبت ذلك أيضًا تلك الأصول المحفوظة فى سيناء والفاتيكان (Codex Sinaitcus Vaticanus) ويرى «كوستر» أيضًا أنه من المحتمل أنه كان يوجد «إنجيل أولى» لمرقس يصعب تحديد الأمر الذى يدعم حقيقة استشهاد «كلمينتس السكندرى».

أى أن إنجيل «مرقس» الذى لدينا ليس كاملاً وليس أصليًا كلية. ففى فترة ما قبل القرن الثالث قد «عُبث به» لأغراض مجهولة.

وإنجيل متّى هو الآخر ليس معصومًا من التحريف الشديد الوضوح والذى سبق وأشار إليه العديد من المفسرين، الأمر الذى ثبت بشكل قاطع: فلقد كان هناك فعلاً إنجيل أقدم من إنجيل متّى، ولم يقم «متّى» بكتابته؛ لأنه شخص افتراضى مثله مثل «يوحنا» مثلما سنرى ذلك فيما بعد، وإنما كتبه «ليفى» جابى الضرائب. إذ أن «متّى» جابى الضرائب لم يكن غير ليفى جامع الضرائب. ولا داعى للبحث عن إثبات ذلك من مراجع بها نصوص غامضة، ويكفى أن نرجع إلى إنجيل «مرقس» إذ يقول: «وفيما هو مجتاز رأى «لاوى بن حلفى» جالسًا عند مكان الجباية، فقال له اتبعنى. فقام وتبعه» (مرقس ٢: ١٤) بينما نقرأ فى إنجيل متّى ما يلى:

«وفيما يسوع مجتاز من هناك رأى إنسانًا جالسًا عند مكان الجباية اسمه متّى. فقال له اتبعنى. فقام وتبعه» (متى ٩:٩). ويا له من مركز جباية غريب!! حيث فقد فيه «ليفى» هويته ليصبح متّى!.

ما معنى هذا التعبير؟

ببساطة أن المؤلف المسمى «متّى» شخصية متأخرة استعان بشهادات «ليفى» ونسبها لنفسه، لكنه قدم نفسه فيما بعد كشاهد مباشر «ليسوع» لكى يدعم سلطته. الأهم من ذلك أن هذا يؤكد أن إنجيل «متّى» ليس أيضًا شهادة مباشرة وإنما هو تراكم يحق لنا كل الحق أن نشك فيه.

والشك يتولد عن القراءة المتتالية للأناجيل الأربعة المعتمدة: وسرعان ما نلحظ أن «متّى» يفرط فى مضاعفة الإضافات، التى لا تتعلق بنبوة المسيح، وإنما بتأليهه. وبينما نجد فى الأناجيل الثلاثة الأخرى أن الحواريين يتوجهون إليه (المسيح) بصيغة المخاطب، أو على الأقل لا يدخلون كلامهم إلاّ بكلمة «سيد» Maitre، فإننا نجد عند «متّى» أنهم هم الآخرون لا يوجهون الحديث إليه إلاّ بعد نداء دعائى مثل «ابن داود»، «سيد» Seigneur، و«ابن الإنسان» وهى صيغة شديدة التناقض، سنوضحها فى مكان لاحق إلى جانب فقرة أخرى يحدده فيها متّى على أنه ملك إسرائيل وابن الله!!.

وسأضرب مثلاً بالفقرة التالية المأخوذة عن «مرقس»: وهى الفقرة المتعلقة بالمرأة المصابة بنزيف: «وامرأة تنزف دمًا منذ اثنتى عشرة سنة. وقد تألمت كثيرًا من أطباء كثيرين، وأنفقت كل ما عندها، ولم تنتفع شيئًا، بل صارت إلى حال أردأ، لما سمعت بيسوع، جاءت فى الجمع من وراء ومسّت ثوبه؛ لأنها قالت إن مسست ولو ثوبه شفيت. فللوقت جف ينبوع دمها، وعلمت فى جسمها أن قد برئت من الداء. فللوقت التفت يسوع بين الجمع شاعرًا فى نفسه بالقوة التى خرجت منه، وقال من لمس ثيابى؟ فقال له تلاميذه أنت تنظر الجمع يرحمك، وتقول من لمسنى؟ وكان ينظر حوله ليرى التى فعلت هذا. وأما المرأة فجاءت وهى خائفة ومرتعدة عالمة بما حصل لها فخرت، وقالت له الحق كله. فقال له يا ابنة.. إيمانك قد شفاك! اذهبى بسلام وكونى صحيحة من دائك» (مرقس ٥: ٢٥ ـ ٣٤).

ورغم سذاجة هذا النص، فإنه يقدم يسوع كمعالج حامل لتيار مغناطيسى يهرب منه عند اللمس، حتى غير المباشر، من المرض. كما أنه يسمح أيضًا بأن نفترض أن علاج المرأة يمكن تبريره كظاهرة إيحاء ذاتى، فى الإطار الذى يطلق عليه اليوم: الطب النفسجسمى (Psychosomatique).

أما عند «متّى» فالنص مكتوب على النحو التالى: «وإذا امرأة نازفة دمًا منذ اثنتى عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هُدب ثوبه؛ لأنها قالت فى نفسها إن مسست ثوبه شفيت. فالتفت يسوع وأبصرها فقال: ثقى يا ابنة، إيمانك قد شفاك: فشفيت المرأة من تلك الساعة» (متّى ٩: ٢-٢٢).

فيقوم «متّى» بتحويل نص «مرقس» بحيث يضفى على يسوع علم الغيب وقوة سحرية؛ إذ يبدو يسوع يعرف أن المرأة وراءه من قبل أن يراها، وأنها لم تشف إلاّ عندما خاطبها.

تحريفات بسيطة لكنها ثقيلة الأغراض. إلاّ أن متّى يحرف أيضًا، وبشكل شديد الوضوح نصوص العهد القديم قائلاً لنفسه: بلا شك أن أحدًا لن يذهب للتحقق منها. وذلك بغية تقوية فكرة أن مولد «يسوع» كان معلنًا عنه فى كل الأزمنة، خاصة عن طريق أنبياء العهد القديم. فنرى فيما يتعلق بالهلع الذى أصاب «هيرود» عند إعلان مولد «يسوع»: «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا؛ لأن منك يخرج مدير يرعى شعبى إسرائيل» (متّى ٢:٦).

إلاّ أن هذه الآية التى تم تحريفها كانت كالآتى: «أما أنت يا بيت لحم أفراته وأنت صغيرة أن تكونى ألوف يهوذا، فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطًا على إسرائيل» (ميخا ٥:٢).. إن «ألوف يهوذا عند ميخا قد تحولت إلى «رؤساء»، وبيت لحم «الصغيرة» أصبحت «صغيرة أن تكونى» أى أبعد ما تكونى وتعبير «متسلطًا على إسرائيل» أصبحت «مدير يرعى شعبى إسرائيل» إلخ..

وليست هذه المرة الأولى التى يحاول فيها «متّى» تحريف نصوص العهد القديم لدرجة يجعلها تقول العكس تمامًا. وبذلك نراه يجعل «يسوع» يقول الآتى: «لكى يتم ما قيل بالنبى القائل سأفتح بأمثال فمى، وأنطق بمكتومات منذ تأسيس العالم» (متّى ١٣: ٣٥). وكلنا نعرف النجاح الذى لاقاه هذا النص فى يومنا هذه. وهو مأخوذ من: «أفتح بمثل فمى، أذيع ألغازًا منذ القدم التى سمعناها وعرفناها وآباؤنا أخبرونا» (مزامير ٧٨: ٢-٣)، وكما نرى فلا علاقة بين الاثنين. ولقد أحصى جون اللجرو» John Allegro العديد من مثل هذا التحريف المريب الذى قام به متّى، وذلك فى كتابه المعنون: **مخطوطات البحر الميت - إعادة تقييم**، والحصر الكامل لهذا التحريف يحتاج إلى مجلد بأسره: فأرجو المعذرة إذ تخليت عن ذلك.

والخلاصة الأساسية هى أن إنجيل «متّى» أيضًا لا يمكن أن نثق به فهو نص محرف ومكتوب لأغراض متحيزة، جاهد المؤلف لكى يفرض صورة «يسوع»، وقد تم تأليهه، من خلال تعليم بنيوى، فى حين أن بنيته لا ترجع إلاّ لذلك المؤلف الذى أرادها على هذا النحو. فبالنسبة لمتّى: إن تعليم يسوع كان مكتوبًا مسبقًا فى العهد القديم - وهو غير صحيح بالمرة - وهذا التعليم يبدو أكثر تماسكًا مما لدى الكتبة والفريسيين.

ولقد جاهد متّى بكل وضوح ليهدئ من تباعد يسوع المستفز عن الدين المكتوب مما جلب إليه تنديدًا لا نهاية له من قِبَل الفريسيين. ومن هذا المنظور فهو شديد الاختلاف عن إنجيل مرقس، وخاصة إنجيل يوحنا.

وإذا ما كان إنجيل مرقس يستلهم نصًا ضائعًا وربما أصليًا، وإذا أمكن اعتبار إنجيل متّى منقولاً عن نص قديم، ربما كان إنجيلاً مفقودًا كتبه «ليفى» جابى الضرائب، فالأمر يختلف تمامًا بالنسبة لإنجيل لوقا الذى لا يقترب إلاّ من الأصول القديمة Q التى أشرنا إليها سالفًا. إن لوقا هللينى رشيق، وقد كان طبيبًا وفقًا للتراث (المشكوك فيه) ويبدو أنه لا يعرف فلسطين، وأنه من

فترة زمنية متأخرة، وذلك للأسباب الأساسية التالية: إنه يتناقض تناقضًا أساسيًا مع «مرقس» و«يوحنا»، لأنه بالنسبة إليه: لا آلام يسوع، ولا بعثه ولا سقوط القدس (الذى وقع عام ٧٠) يجب أن تؤخذ على أنها من علامات نهاية الأزمنة، على الأقل ذلك هو ما يصفه على لسان يسوع (مثلاً فى ١٧ : ٢ - ٢٥) يأتى لوقا إذن بعد سقوط القدس، الذى كان من المفروض أنه يُعلم عن نهاية العالم وقد لاحظ أنها لم تحدث، مثله مثل الأسينيين الذين كانوا ينتظرون نهاية العالم، عند الزلزال الذى وقع عام ٣٠ ق.م. ولم تحدث أيضًا، واستمرت الحياة. أى أن لوقا قد كتب فى أواخر القرن الأول، والأرجح أنه كتب فى مطلع القرن الثانى. فلقد تخلى إنجيله بوضوح عن ادعاءات الشهادة، التى كان «متّى» ينميها ليصبح نصًا قدسيًا.

إن إنجيل «لوقا» كتبه شخص واحد، ولا يبدو أنه يتضمن إضافات أو فجوات (الأمر الذى لا يعنى: استبعادات) لكن، على الرغم من أغراضه التيولوچية الواضحة، فهو أيضًا أكثر الأناجيل الأربعة رومانسية بالمعنى العصرى للكلمة.

إن لوقا يقص حكاية «يسوع» مع إعادة ترتيب الوقائع وفقًا لغرضه، وأحيانًا ليس بشكل غير معقول فحسب، بل فى عبث الجغرافيا. إذ من الواضح أن فلسطين قد أصبحت بلدًا مهمًا، ولن يذهب أى فرد للتأكد من أقواله، فإذا ما أمكننا إلى حد ما إعادة تكوين تنقلات «يسوع» أثناء حياته الوعظية، وهو أمر ممكن جدلاً من خلال إنجيلى «متّى» و«مرقس» إلاّ أنه يصعب تمامًا اعتمادًا على إنجيل لوقا.

إن إنجيل «لوقا» فريد؛ لأنه يمثل وجهة نظر «كونفوشية» و«رواقية» ليسوع (بالمعنى اليونانى للكلمة)، وتشهد على ذلك مقولات من قبيل: «إذا لم تكونوا جديرين بثروات هذا العالم، فمن سيسند إليكم الثروات الحقيقية؟».

كما أنه يتضمن قيمة «تاريخية»؛ لأنه بالعثور على ما تمت استعارته من

إنجيل «مرقس»، وفرصته أكبر - فى أن يكون حقًا، إن لم يكن صدقًا، فإنه يمكن أن نشك فيه باعتباره «فبركات» لاحقة.

ذلك لأن «لوقا» يضيف حليات قدسية شديدة الوضوح، مثلما فى قصة إغراء الشيطان ليسوع. ولا نشك فى أنه لم يرها لكنه يجعل منها نصًا خياليًا، سيصبح جزءًا أساسيًا من التراث المسبق - للرومانسية الألمانية. ولا تكمن سذاجته فى السرد المباشر للأحداث كما عند «مرقس» لكن فى تلك الحليات الأدبية التى يجعلها البعد الزمنى واضحة.

إنه نسخ متأخر نسبيًا لفترة نبوة يسوع اعتمادًا على وثائق قد ضاعت اليوم، وهو نسخ مغرض بلا شك، وبذلك فإن الأناجيل الرسمية ليست تلك الوثائق الأصلية، والأصلية التى يفترضها التراث. وبهذا الصدد فإن التعليم الكاثوليكى يستحوذ على ذلك الإجماع، الذى تفرضه قيمة هذه الوثائق، والذى ساد حتى مطلع هذا القرن.

فلا بد لنا من توضيح أنه فى أواخر القرن التاسع عشر قد بدأ المفسرون وعلماء اللغة فى الدراسة الجادة للقيمة الوثائقية الحقيقية للأناجيل. ففى القرن الثامن عشر كان الألمانى هـ. س. رايماروس H.S. Reimarus قد اتخذ الحيطة، على الرغم من سلطته كأستاذ للغات الشرقية فى جامعة «هامبورج»، بألا يهتم بنشر أبحاثه وتحليلاته إلاّ بعد وفاته، وبعد قرن من الزمان.

ولقد فقد د. ف. تشتراوس D.F. Strauss، الأستاذ بجامعة «توبنجن»، وظيفته؛ لأنه عارض عناصر ما وراء الطبيعة فى الأناجيل. أى إن النقد لم يكن حرًا. وكان لا بد من انتظار «فيلهلم فريد» Wilhelm Wrede فى أواخر القرن التاسع عشر، ورودلف بولتمان Rudolf Bultman فى مطلع القرن العشرين. لكن يمكن القول بصوت عالٍ ودون أن يُغتال المرء، **أن القيمة التاريخية للأناجيل جد هزيلة. ومع ذلك فقد ظلت الفضيحة محصورة فى نطاق كبار المثقفين.**

فلم يكن الانفعال مثل ذلك الناجم عام (١٨٦٣م) عن كتاب **(حياة يسوع)** لأرنست رينان E.Renan فـفى هذه المرة كـان النص يصل إلى كل الذين لم يدرسوا اللغات القديمة، ولم يحصلوا على مبادئ التحليل التاريخى، فقد كان نصًا مما يطلق عليه اليوم «للجماهير العريضة». ومع ذلك، وعلى حد ملاحظة «جان جولمييه Jean Gaulmier الذى كتب تصدير الطبعة الحديثة لكتاب «رينان» إن رينان قد جاهد لإنقاذ ما كان متبقيًا للتراث.

وأيًا كان الأمر، فقد انشق التراث بفجوة ما فتئت تتسع منذ ذلك الوقت، لا بفضل تقدم علم التفسير فحسب، ولكن أيضًا بفضل المخطوطات المجهولة التى تم العثور عليها أيضًا.

ولم أقم حتى الآن بالتنويه إلى الأهمية الخاصة «لبولتمان».

فإن كتابه الأساسى بعنوان **(تاريخ التراث المتوافق)**، يمثل الوقفة الإجبارية لكل من يود القيام بقراءة نقدية للأناجيل. وهو عمل يستحق إشارة خاصة؛ لأنه لا يمثل العمل الأساسى لمؤلفه، وإنما **العمل الأساسى فى كل علم التفسير.**

لقد ولد «رودلف بولتمان» عام (١٨٨٤م) وتوفى عام (١٩٧٦م)، وقد أدخل إلى التحليل اللغوى الإنجيلى ذلك الروح المنهجى الذى لا يمكن إغفاله، والذى كان من مفاخر التراث الأكاديمى الألمانى. ولا بد من التنويه إلى أن التحليل اللغوى منهج شديد الدقة يسمح بالحكم على التجانس النوعى المميز للنصوص عن طريق دراسة مقارنة لابتكاراتها. وبكلمات أبسط إنه علم يسمح بالقول عما إذا كان هذا النص أو ذاك نصًا كاملاً أم لا لمؤلف ما، فالدراسة المقارنة تسمح بتوضيح المعنى، أى الغرض، وأصل التنويعات. ومن الواضح أن هذا المنهج الذى يستعين بعلم فقه اللغة، وعلم الخط وعلم اللغويات أكثر تعقيدًا مما يتضح من هذا الإيجاز.

إن هذا المنهج المعروف أكاديميًا تحت اسم نقد الأشكال Formgeschichte معروف أكثر تحت مسمى الطالراديكالية النقدية».

و«بولتمان»، الذى أمسك بشعلة تراث طويل من المفسرين بدءًا «برايما روس» المذكور آنفًا، و«دافيد فريدريك شتراوس»، و«فيلهلم فريد» وغيرهم، دون أن نغفل «مارتان ديبليوس» Martin Dibelius وك. ل. شميدت K. L. Schmidt، اللذيْن كانا من معاصريه، بل وأندادًا له، لكنه يشمخ أيضًا فى التراث البروتستنتى الأصيل لقراءة حرة للأناجيل. وهذه القراءة باستنادها على كفاءته، قد سمحت له بأن يجزم بأنه لا يوجد شىء يذكر ذو قيمة تاريخية حقة فى هذه الأناجيل؛ وأنها لا تمثل علاقات تاريخية، وإنما هى نتاج الجماعات المسيحية الأولى من المعتقدين بها.

وبقول آخر إنه يعد استهتارًا أن نأخذ هذه المقولة، أو تلك على أنها «كلام إنجيل»، لأنها ببساطة غير قابلة للتحقق منها. وإن لم يكن لذلك أية أهمية بالنسبة للإيمان، لأن الإيمان لا يتعلق بالنصوص. وعلى الرغم من هذا الافتراض الغريب، إن لم يكن الاستفزازى، فإن بولتمان كان يلتزم - بإخلاص - بتعاليم «يسوع»، الذى كان لا يكف عن تأنيب حاملى التراث لقراءة قصيرة النظر للنصوص. ولقد كان «بولتمان» لارتباطه مباشرة بأفكار «لوثر»، يتهم ضمنًا كل الذين يبجلون الأناجيل بشدة بأنهم عبدة نصوص. فهى بالنسبة له مجرد قصص دينية.

وعند ظهور كتاب «بولتمان» عام (١٩٢١م) كان التراث من الجمود حتى أنه كان مدويًا كالقنبلة. ولم يكن هناك من يقدر على الشك فى حجة ومهارة «بولتمان» العلمية إلا من تلك الدوائر، التى لا تتقبل رائحة البارود. وفى كتابه الذى ضمنه الأبحاث المنشورة فيما بين (١٩٣٣م، ١٩٥٢م) بعنوان **الإيمان والفهم**، لم ينفعل «بولتمان» (وكانت الطبعة الثانية الموسعة **لتاريخ التراث المتوافق** قد ظهرت قبل ذلك بعدة سنوات، فى عام (١٩٣٤م). وقد كتب قائلاً:

«لم أشعر قط من قبل أننى غير مرتاح فى «راديكاليتى» النقدية، بل على العكس إننى فى غاية الراحة، وعلى النقيض من ذاك أيضًا، كثيرًا ما أتصور أن زملائى المحافظين على العهد الجديد يشعرون بعدم الراحة إذ إننى أراهم مهتمين دومًا بأعمال الإنقاذ».

بل وما هو أكثر من ذلك، فى عام (١٩٤١م) أطلق «بولتمان» حملة يطالب فيها الكنيسة أن تكشف عن الزيف الذى فرضته فى تعاليمها. ولم يكن يقصد بذلك عقائد الحمل الإلهى، والقبر الفارغ فحسب، وإنما تناول أيضًا تزييف التجسد والبعث والصعود والعودة الثانية، وكلها ناجمة عن جو يوم القيامة اليهودى والغنوصية الهللينية. ففى نظره أن فعلاً واحدًا من الله هو الذى كان قادرًا على تخليص الإنسان من وجوده «غير الحقيقى». ونحن أبعد ما نكون عن ذلك.

ولما لم يكن إلىَّ من مرشد لأبحاثى، سوى صديق من علماء اللاهوت الجزويت، الذى كان يتابع عملى بضيق وتحفظ، فإننى لم أكتشف «بولتمان» إلا بعد إبحارى بثلاث سنوات فى أبحاث تاريخية بحتة، حول ما كانت عليه فلسطين فى القرن الأول، إذ إننى بدأت بدراسة تاريخية عن «يسوع».

ولا بد من الاعتراف بأن الصدمة كانت عنيفة: فالأناجيل الرسمية كانت تمثل بالفعل أساس أبحاثى فإذا ما كانت هذه الأناجيل تمثل مجرد اختلافات لأوائل معتنقى المسيحية التى ضمت بعض الفقرات الأصلية النادرة، فإن عملى أصبح بلا غاية.

وبعد عدة أشهر من العمل، تذكرت نصيحة كنت قد اتبعتها تلقائيًا، وكان العالم الأثرى «إسكندر بيانكوف» A. Piankoff مترجم «كتاب الموتى» لدى المصريين القدماء هو الذى أسداها لى فى مطلع حياتى. وكنت قد عبرت له عن قلقى الناجم عن لهجة «سقراط» الحكيمة فى محاورات أفلاطون: «اقرأوا وأعيدوا قراءة النص إلى أن تسمعوا صوتًا يخرج إليكم منه». وبالفعل كنت قد

قرأت الأناجيل عدة مرات، وبدأت سماع أصوات احتجاج من تلك الإضافات «المقحمة» المحرفة للنص، والتى أشار إليها «بولتمان». وبدا لى الانتقال من إنجيل لآخر أشبه ما يكون بالانتقال من موجة إلى أخرى فى جهاز المذياع بحثاً عن محطة أخذت محاولات طمسها وتشويهها والتشويش عليها بالبث على موجتها تجعلها أقل وضوحًا أو تفقدها للحظات.

كنت فى الموقف الحرج التالى:

من ناحية، بدأت تلجمنى الريبة الناجمة عن أبحاث «بولتمان» بالنسبة لكل ما قامت به الجماعة المسيحية الأولى من تحريف وتزييف، ومن ناحية أخرى كنت «مقتنعًا داخليًا بأن شيئًا مًّا فى الأناجيل لم يفلح مؤلفوها وناسخوها فى طمس معالمها تمامًا. وكان عدم شعورى بالراحة يذكرنى بما قاله «بولتمان» عن رفاقه آنفًا «وانشغالهم بعمليات إنقاذ ما يمكن إنقاذه». مع فارق بسيط عن هؤلاء المثقفين، إذ إننى كنت أقوم بعملية ترميم مثل أولئك الفنانين الحقيقيين الباحثين عن تنظيف الأعمال الفنية فى محاولة للبحث عن العمل الأصلى من كل ما علق عليه من تراكمات ودهانات.

وكانت راديكالية «بولتمان» النقدية خلاصى؛ لأنها سمحت باستخلاص التفسير الإنجيلى من ذلك الطوق الحديدى المفروض على القراءة المسطحة السائدة حتى ذلك الوقت، والتى كانت تدفع ببعض المفسرين التقليديين إلى لغو لا معقول. وبمواجهة هؤلاء التراثيين بالمتناقضات الصارخة الواردة فى النصوص المعتمدة، فقد كانوا ينساقون إلى تبريرات نظرية باهرة، لا تقل عما تبرره من تزييف من كثرة ما بها من مغالطات تبريرية. ومن قبل ذلك وفقًا للأهون، فإن المسيح قد بُعث «كجسد مجيد» يمتلك فى آن واحد إمكانيات الجسد المادية وخصائص الجسد اللامادى، أى إنه كان بإمكانه فى آن واحد أن يأكل الطعام الأرضى، ويمر عبر الجدران! ويصعب آنئذٍ أن نقبل أنه قد دحرج الحجر الذى كان يسد فتحة المقبرة طالما كان فى وسعه أن يخترقه!

الأمر الذى يفسره علماؤنا بأن الحجر المزاح، إنما يعنى ذلك القبر الخالى بالنسبة للمؤمنين!

إلا أن الراديكالية النقدية تطرح عيب عدم مقدرة إعادة الصفة اللامادية لقطعة فنية، لأن الأناجيل أولاً وأخيرًا، إنما هى نصوص أدبية. وإذا سمح لى هنا بالمقارنة، سأستعين بالنقد الفنى الكلاسيكى (ولا أعنى النقد الحديث الذى أصبح غامضًا، ولا يفيد إلا فى التعبير عن مشاعر الناقد): إن هذا النقد يستعين بمنهجين: علم وصف الإيقونات (Iconographie)، وعلم الإيقونات (Iconologie).

وأن وصف الإيقونات يتناول الكيان: هذه اللوحة مقاسها كذا، تم تنفيذها وفقًا لأسلوب كذا وتقنية كذا ومدرسة كذا وفى فترة كذا..

أما علم الإيقونات فيتناول: هذه اللوحة تمثل كذا وكذا، وتشير إلى الحدث الفلانى، وشخصية كذا ومكان كذا، والألوان المستخدمة فيه، تتناول درجات كذا وكذا.. إلا أنه ما من منهج منهما يمكن أن يسمح بالقيمة المتكاملة للوحة؛ لذلك يظل من الصعب معرفة ما إذا كانت لوحة «فرانجونار» نقلاً عن لوحة أخرى أم أن اللوحة الأخرى نقلاً عنها.

أما المنهج العلمى الرائع الذى استعان به بولتمان فإنه لا يعبر إلا عن اللهجة الشاحبة للأناجيل وقيمتها الأدبية، لذلك ليس من الغرابة أن نراه يرفض معظمها على أنها نصوص غير أصيلة. وهو عيب منهجى آخر قام بتطبيقه «برنار ديبور» B. Dubourg وهو منهج القراءة المادية – Pséphologique المستوحى من القبالة (Kabbale) ذلك أن تطرف المنهج يؤدى إلى إذابة المشكلة فى الحامض التقدمى!

وبخلاف البحث الدقيق الذى ألهمه «بولتمان» فقد كان لديه غرض لاهوتى يضمه – تناقضيًا – بين أكثر التراثيين جمودًا. ذلك أنه قد رفض

جزءًا ضخمًا من الأناجيل؛ لأنه رآها مليئة بالغنوصية، وهو أمر صحيح. ومن ثَم فإن «بولتمان» يرفض الغنوصية مثل مجمل التراث الكاثوليكى الصارم. «فيسوع» فى نظره لم يكن غنوصيًا لا من قريب ولا من بعيد. فهو بذلك كان ملكيًا أكثر من الملك بحيث إنه كاد يرفض النصوص التى تمثل وجود يسوع. الأمر الذى يوضح التناقض الذى وقع فيه.

إن الدراسة التحليلية لمنهج «بولتمان» تخرج عن نطاق هذا الفصل الذى خصصته لتقديم منابعى، ومن ناحية أخرى سيؤدى ذلك إلى الغوص فى اللاهوت ولست كفئًا للتصدى له، وليسمح لى أن أثير سببًا آخر، لأجله لم يستحوذ عمل «بولتمان» على تأييدى الكامل، وأقولها بكل تواضع وبكل إعجاب لهذا المؤلف: إنه قد توصل – من خلال عطاء منهجه الدقيق، إلى تقديم «يسوع» لا يعتمد إلا على بعض الشذرات. وأخيرًا فإن بولتمان يقدم أيضًا «يسوع» معصومًا، لا يوصف، شبه صوفى، يسوع لم يقم وجوده إلا على اليقين الدال على أنه كان موجودًا. وكأنه من كثرة محاولته لكشف الزيف قد انساق فى صنع الأساطير هو الآخر.

فإذا ما دفعنا منهج «بولتمان» إلى أقصاه، فإنه يمكننا القول بأنه قد جرد فكرة أن «يسوع» كان له وجود تاريخى، بما أنه ولد فى فترة تاريخية، وفى مقاطعة معينة من مقاطعات إمبراطوريات هذا العالم العديدة، وأنه ـ وهذا المهم ـ قد انتمى إلى ديانة من الديانات العديدة، وهى واحدة من أقدمها، بالطبع، لكنها ليست الأقدم.

كما أن «بولتمان» قد أغلق الباب أمام أى تطور تاريخى لمعرفة «يسوع»، ولم يهتم أنه قبل وفاته بربع قرن، قد تم العثور على اكتشافين فى غاية الأهمية هما: إنجيل توما ومخطوطات البحر الميت. إن صراحته تجعل موقفه أشبه ما يكون بإعلان الدور الرائع واليائس الذى يقولونه لرفض أى اهتداء: «إن الريح قد أغلق الباب، وأعاد غلق الكتاب، وأطفأ الشمعة، وكسر القلم،

وجفف دواة الحبر».

ذلك أن هذين الاكتشافين يناقضان رفض «بولتمان» لإضفاء أية أطياف غنوصية على تعاليم يسوع.

إن كل الملاحظات الواردة فى الجزء الأخير من كتابى هذا وكل ذلك النقد يؤكد: أن مخطوطات البحر الميت يشوبها بكل تأكيد أطياف غنوصية وإنجيل توما غنوصى بكله. فلا يوجد ما يسمح بأن نعتقد أن يسوع لم يساهم فى هذا التيار الرئيسى والميت تاريخيًا. على الأقل أعنى يسوع تاريخيًا، الذى هو من أبحث عنه، وأزعم التوصل إلى اختفاء آثاره.

لكن كيف العثور عليها؟

ربما يمتلك الهاوى هنا نوعًا من التفوق على العالِم على الأقل فى مثل هذا المجال: إذا لم يكن مرتبطا بأى منهج جاد، وكان بوسعه التوفيق بين التحليل التاريخى وتحليل الأشكال. أى إنه كان - فى نهاية المطاف - عملا روائيا.

إن مقارنة الرواية بالتاريخ تجعلها تبدو كنوع ثانوى. وآنئذٍ يصبح الاختراع ضروريًا لتتمثله الأسطورة، وبما أنه غير قائم على وقائع موثقة، فإنه يعتبر مجال تسلية شبه ثانوى. وهو أمر خاطئ، ذلك أن معركة واترلو بنظر فابريس دل دونجو (بطل رواية ستندال: **الأحمر والأسود**) تعيد حقيقة المعركة بشكل أقوى وأعنف من كثير من الأوصاف الدقيقة. والواقع الذى يعيد ستندال بناءه، وكأنه ينظر إليه من ركن منظاره الشهير، فإنه يعكس ذلك المُعاش الذى يصبح التاريخ بدونه هامشيًا أو غير واقعى.

بل من السخف ادعاء استبعاد كل من المتخيل وحساسية الصورة التى نكونها عن «يسوع». ومن الضرورى أن نعيدهما حتى نحارب تلك الصورة التى يفرضها التراث عادة، والتى تم تزييفها بحساسيات عصبية فى أواخر القرن التاسع عشر.

إنها صورة من القوة حتى إن السينما، فى جهودها الابتكارية الأكثر وقاحة قد خضعت لها بلا وعى. فلا نجد فى هذه الشخصية الباهتة الضحية الرخوة كما قدمها «سكورسيز» Scorcese مثلاً ذلك المنتقم الذى يصيح: «أتظنون أنى جئت لأعطى سلامًا على الأرض. كلا أقول لكم. بل انقسامًا» (لوقا: ١٢:٥١-٥٣) يالها من كلمات مدمرة يؤكد «مرقس» حدتها: «لا تظنوا أنى جئت لألقى سلامًا على الأرض. ما جئت لألقى سلامًا بل سيفًا» (مرقس: ١٠: ٣٤).

الرواية وحدها إذن هى القادرة على الإحلال بدلاً من غياب الثقافة فى المُعاش.

لكن لابد من منهج. وهذا هو ما اتبعته:

- متابعة بولتمان فيما يتعلق بأكثر النصوص الإنجيلية ريبة، من قبيل خاتمة إنجيل مرقس الذى يبدو فيه الزيف واضحًا، فى حين أنه الجزء الوحيد فى الأناجيل الذى يتحدث عن الصعود.

- بناء شبكة تاريخية يمكن استخدامها كخلفية عامة تسمح بإدخال عناصر إنجيلية أو استبعاد غيرها. فمن أكثر الأمثلة مغزى، والتى يبدو أنها أفلتت من إدراك بولتمان والإنجيليين، ذلك التاريخ الذى احتفل فيه يسوع بعيد فصحه، قبل عيد الفصح اليهودى التقليدى. فلو أن مجمل ما تقوله الأناجيل قد تم تلفيقه، وفقًا لبولتمان، لكان هناك تجانس أكبر من رواياتهم ولما أغفل يوحنا مثل هذا الجزء التفصيلى غير المفهوم ظاهريًا. إلا أن أعمال آنى جوبير Annie Jaubert اثبتت أن يسوع قد احتفل بالفعل بعيد فصحه، يوم الأربعاء وفقًا لتراث الأسينيين الذى لم يزل يهتم به. ولقد ظهرت أبحاث كثيرة بعد «بولتمان» تحاول أن تعطى مزيدًا من التماسك للقصص الإنجيلية أكثر مما يفترضه «بولتمان».

- إن هذا المنهج كان يعتمد على التفكير العقلانى اعتمادًا على الراديكالية النقدية، وعلى التاريخ لتفسير بعض التفصيلات المهملة فى الأناجيل، وأطرح هنا مثلاً آخر عن اللامعقولية البالغة فى أن يذهب اثنان من أعضاء المحكمة، التى أدانت «يسوع» وحكمت عليه بالموت، وهما يوسف الرامى Joseph d'Arimathie و«نيكوميد» Nicomède، على حد قول الأناجيل، يطلبان من بيلاطوس Pilate الجسد المصلوب، وذلك على حساب أمنهم الشخصى.

إنها نقطة فى غاية الغرابة، ولا أعتقد أن كاتبى الأناجيل قد أضافوها جزافًا. ذلك أن معناها شديد الأهمية.

ومن خلال أبحاثى لاحظت توافقات وتناقضات ربما قام «بولتمان» المتعلق بالتحليل الشكلى للنصوص، بإهمالها عمدًا من قبيل ذلك الجزء المحتجز من إنجيل مرقس المذكور آنفًا، والذى يمثل توافقا. أما الأخطاء اللفظية التى لا يمكن تصورها حول أسماء توما وبارباس فإنها تمثل عبثيات.

لقد ذكرت «بولتمان» بين مراجعى الأساسية، ويجب أن أذكر مؤلفا آخر لابد من أن يتميز خاصة عن البيليوغرافيا الواردة فى نهاية هذا الكتاب، وهو البرت شفايتزر A. Schweitzer ومن المهم أن نذكره هنا؛ لأنه كان بمثابة تصويب لبولتمان وتشجيع على مواصلة مهمة النص التاريخى.

شفايتزر، الحاصل على جائزة نوبل، وهو عم - غير متوقع - لسارتر، معروف لدى الجمهور بفضل كتابه عن المصابين بالجذام من الأفارقة فى لامبارينى، وهو معروف بين الموسيقيين لطبعته النقدية لأعمال «جان سباستيان باخ» للأرغن التى حققها مع «شارل مارى فيدور» Charles-Marie Widor. لكنه كان من بين الذين أوضحوا مبكرًا وبشكل مُلحٍّ ما يمكن أن نطلق عليه مشكلة يسوع. فلقد حصل عام (١٩٠٢م) على ثانى شهادة دكتوراه من دكتوراهاته الثلاث فى علم اللاهوت، وهو مازال

تحت وقع الصدمات التى ابتعثها رافضو أصالة الأناجيل من أمثال «فريد»، «ووايس»، «وفون هرناك» (لم يكن «بولتمان» قد نشر بعد كتابه عن التاريخ). يضيف شفايتزر الخاتمة الواضحة لأعمالهم، ويمكن أن نلخصها على النحو التالى: إن الأناجيل لا تعتبر غير أمينة فى النص وفى الروح العام فحسب، وإنما كان كل التراث الذى بنى عليها مزيفًا منذ البداية. لذلك يثير فى مقدمة كتابه **(السر التاريخى لحياة يسوع) «أنها من عمليات تزييف التراث».**

وبالنسبة لشفايتزر فقد كان هناك يسوع تاريخى، لكن لا ينبغى خلطه بالصورة التى بدأ التراث ينسجها عنه ابتداء من القرن الثانى بفعل قوة العقائد.

فهو بالفعل لا علاقة له بتلك الصورة التى أجهضت معنى النبوة. وبالنسبة لشفايتزر أيضًا، فقد جرى يسوع نحو آلامه فى احتقار بطولى للحياة. إن نبوته كان يجب أن تظل سرية طوال حياته على الأرض، ولا تتحقق إلا فى نهاية الزمان، مؤدية إلى الكشف العالمى عن طبيعته الإلهية. أى أن آلامه كانت إذن وسيلة للىّ ذراع الله ليعلن عن نهاية التاريخ. وكان ذلك يعنى إيضاحًا رائعًا لنهايةالعالم وفقًا للمفهوم اليهودى.

إننا نرى بلا عناء شفايتزر يقف عكس بولتمان الذى يرفض الأناجيل؛ لأنه يرى أنها تفيض بآثار نهاية العالم وفقًا للمفهوم اليهودى، كما أنها تفيض بالغنوصية الهللينية، مما يعنى ضمنًا أن يسوع ليس أخرويًا ولا غنوصيًا.

ولا يقول شفايتزر بالطبع أن يسوع غنوصى. ولا يبدو أنه قد عمق فى كتاباته ذلك المفهوم الغامض لتعبير «ابن الإنسان» الذى يستخدمه يسوع باستمرار والذى هو نتاج بحث للآخروية اليهودية التى نماها الأسينيون والغنوصية. ويجعل منها بشكل سطحى مجرد «تخريف» أدبى متأخر. إلا أن السيناريو الذى يصفه، أى انتقال الإنسان - المسيح السرى إلى المسيح المعلن

فى نهاية الزمان، إنما هو أساسًا غنوصية يهودية - هللينية.

إن قراءة **سر تاريخ حياة المسيح** كان إذن حاسمًا بالنسبة لى. وكان شفايتزر، أول مؤلف، وربما كان الوحيد الذى دافع عما كنت مقتنعًا به داخليًا وهو أنه قد كان هناك يسوع تاريخى، وأن الصيغ المتأخرة من الأناجيل، وهى الوحيدة التى لدينا، غير أمينة ومحرفة (باستثناء الإنجيل الرابع ليوحنا)، كما سنرى التراث المسيحى الحالى، وأنه بالقطع لا يعكس تعاليم يسوع.

والأكثر من ذلك، وعلى عكس «رينان» والذى لم يُثر كتابه عن حياة يسوع (ردًا على سؤال، كثيرًا ما طرح علىَّ) لم يثر فى نفسى أى انفعال، فى حين أن شفايتزر، كان مليئًا بالحماس الشغوف ببطولة يسوع.

وآخر سبب لانضمامى لأطروحة «شفايتزر» هو: لقد كان يبرر ويدعم التحفظ الذى كنت أشعر به حيال الأناجيل المتوافقة، والتى تسرد حياة يسوع العامة، ولا تفعل سوى ذلك سطحيًا دون فهم كيان رسالته، وأن تفضيلى إنما كان لإنجيل يوحنا الذى يسرد حياة يسوع فعلا **على الرغم مما به من بتر وتحريف**.

كما أن شفايتزر مثله مثل بولتمان لم يتمكن من أن يضم فى بحثه نتائج اكتشافات مخطوطات البحر الميت ولا إنجيل توما. ولو أننا لم نناقض افتراضه، على الأقل من حيث إنها تناقض فكرة يسوع غنوصىٌ، وفقًا لبولتمان، فإنها تفرض إعادة نظر جذرية. إذ إن أخرويات الأسينيين تبدو كأنها المنبع الأصلى لانطلاقة يسوع وآلامه، وإنجيل توما يوضح أن الغنوصية لم تكن معطيًا يتعين استبعادها بالاستهتار الذى فعله التراث المسيحى.

وكان لابد إذن من البحث عن عناصر أخرى للقالب الذى تكوَّن فيه يسوع. ذاك هو العمل الصبور، الذى استغرق منى عشر سنوات. فكان علىَّ أن أقرأ كثيرًا، وهنا يجب أن أشير إلى عمل تاريخى رجعت إليه باستمرار وهو:

القدس أيام يسوع ليواكيم جريميا Joachim Jeremias، الذى يعد بمثابة أغنى وأروع المصادر الدقيقة لمعظم الأعمال التاريخية التى رجعت إليها حول فلسطين فى القرن الأول.

ولقد حاولت بعض الأحاديث الصحافية أن تهاجم المصادر غير المعروفة حتى استغنت بها فى بعض التفاصيل، مثال **عُمَّر يوسف، والد يسوع** الذى يحدده المصدر الأول لإنجيل يعقوب، وهاجمها بعض مقدمى البرامج السذج بعدم الأمانة، وقد انساق خلفهم لفيف من النفوس سيئة النية.. محاولين إثبات أننى لأكتب: «**الإنسان الذى أصبح الله**» قد استعنت بمصادر غامضة مأخوذة عن أبغض الأناجيل المحتجبة، ومن نصوص شيطانية، وما إلى ذلك! إن مثل هذا الادعاء تكذبه حقيقة واحدة هى أن ٩٠٪ من مراجع هذا البحث مأخوذة عن الأناجيل المعتمدة. فلا يبقى إلا أن أقول لمدعى الأمانة من التراثيين إنهم لم يقرأوها.

ولا أخفى أننى اهتممت أكثر بإنجيل يوحنا المسمى بالرابع، والذى يمثل - كما عرف كافة المفسرين - أنه فريد فى نوعه على الأقل من حيث وحدة الأسلوب . ولم يهاجمه بولتمان حقيقةً؛ لأنه لا يتعارض مع منهجه مثل الأناجيل المتوافقة وهو بالفعل لا يقارن بها. وحتى الباحث س. هـ. دودّ C.H.Dodd الذى أفرد لها بحثًا ضخمًا بعنوان (**التراث التاريخى للإنجيل الرابع**)، محاولاً تخطى الشكل السطحى، فإنه لم يستنفد كافة معطياته. لأن إنجيل يوحنا لا يشبه شيئًا، ولكنه شديد الثراء.

وهناك العديد من الأسئلة التى تطرح بصدد هذا الإنجيل، الذى كان من المفروض أن يستبعد لما فيه من انعكاسات الغنوصية تلك الهرطقة التى تثير رعب التراث الكاثوليكى. والتساؤل الأول هنا هو: هل الشخص الذى كتبه هو يوحنا الزبيدى، الحوارى «المفضل» لدى يسوع؟ (فهكذا يطلق على نفسه بلا تواضع)؟ ولا يمكن أن يكون هناك شك أكثر من هذا: لأن «إيرينى»،

أسقف «ليون»، المولود فى «أزمير»، والذى عرف بوليكارب الذى كان أسقفا لنفس مدينة أزمير بخلاف أنه يوجد ضمن الآباء الرسوليين.

إيرينى هذا يقول عن «بوليكارب»: إن مؤلف الإنجيل المسند إلى «يوحنا» قد عاش أيام تراجان أى فيما بين عام (٩٠، ١١٧م). وذلك وحده يستبعد يوحنا الزبيدى على أنه كاتب هذا الإنجيل؛ لأنه عندما قام يسوع بتجنيده هو وأخيه يعقوب، فى بداية تبشيره العام، حوالى عام (٢٧م) كان على الأقل فى الخامس عشر من عمره. وأيام تراجان لابد وأن عمره كان فيما بين ٧٨، ١١٥ سنة. وليس ذلك بمحال تمامًا، مع فارق بسيط هو: أنه «عاش أيام حكم فلان» لا يعنى «مات أيام حكم فلان»، وإن عُمر ١٥٠ سنة ليس بالعمر الهيّن. والأكثر من ذلك أن بابياس، وهو أب رسولى آخر، وقد مات شهيدًا مع بوليكارب حوالى عام (١٦٥م) يقول: (راجع إنجيل يوحنا بقلم فريدرك فون هوجل F. Von Hügel فى الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٦٢م) إن يوحنا الزبيدى قتله اليهود قبل عام (٧٠م) أى قبل حصار القدس. فلا داعى إذن - وأيًا كان الشك الذى يثيره أوسيبيوس حول الإمكانيات الثقافية لبابياس، مع كونه «أبًا رسوليًا»، أن يفترض امتدادًا غير معقول ليوحنا. والأمر أبسط من ذلك بكثير لو أننا أقررنا أن إنجيل يوحنا، مثله مثل بقية الأناجيل المتوافقة، قد كتبه شخص آخر.

وهنا تكمن مصاعب جمة لم تحلها الدراسات العديدة حول هذا الموضوع. وأولى هذه المصاعب هى وحدة الأسلوب الواضحة ووحدة الصياغة لهذا الإنجيل الرابع بالإضافة إلى تميزه العميق الذى يؤكد أن الذى كتبه شخص واحد أو على الأكثر شخصان شديدا التقارب الثقافى.

والصعوبة الثانية هى ذلك الشَّبه اللافت للنظر بينه وبين الرسائل الأربع الأولى لسفر الرؤية، بجانب ذلك التشابه فى الأسلوب للرسالة الأولى المزعومة والإنجيل الرابع، وكلها نصوص مسندة إلى مجهول اسمه يوحنا.

ومن هذه المصاعب التى أكدها الأب لوازى Loizy ببراعة فى كتابه المعنون **الإنجيل الرابع** (الطبعة الثانية باريس ١٩٢٣م) تخرج بأنه كان هناك مؤلف واحد لهذه النصوص، اسمه يوحنا، سواء أكان يوحنا الزبيدى أم غيره.

أما عن الصعوبة الثالثة فليغفر لى أن أذكرها بصفة خاصة، لأننى لم ألحظ أية إشارة إليها فى أية دراسة من هذه الدراسات وهى ملاحظة أدبية: فبغض الطرف عن الصحة التاريخية لهذا الإنجيل فإنه ملىء بصوت رجل واحد فقط، وليس بأصوات شرذمة من الكتّاب، شخص واحد فحسب يعرف مغامرة الإنسان الذى اسمه يسوع، وقد فكر فى نصه طويلاً، وأضفى إليه معنى مخالفًا تمامًا عما فى الأناجيل المتوافقة الأخرى، إنه معنى صوتى على حافة الغنوصية؛ أى على عكس نظرية علم اللاهوت الخاصة بالتجسد: ففى الغنوصية، وهى حركة سنتناولها بالتفصيل عند الحديث عن إنجيل توما، فلا يُوجد - باختصار - نزول للإله فى الإنسان، وإنما صعودٌ للإنسان إلى الإله. وأن يكون «يوحنا» متأثرًا بالغنوصية فهو أمر لا شك فيه، بل هو يقولها دفعة واحدة فى الآيات من (١-٥) وخاصة فى الآية الخامسة: و«النور يُضىء فى الظلمة والظلمة لم تدركه» (١:٥). وتلك هى عقيدة الغنوصية، الثنائية، التى تميز بوضوح بين الروح والمادة، والتى ستسهم ثنائيتها فى النصف الثانى من القرن الثالث، فى مولد الهرطقة المانيّة (نسبة إلى مانى). وبالفعل، وكما لاحظه الآب لوازى المذكور آنفًا، فإن الكنيسة لم تتخذ أبدًا موقفًا فيما يتعلق بالإنجيل الرابع.

إن الصرامة كانت تفترض منعه، ولكن قوة إلهامه تحول دون ذلك. ونشير بهذه المناسبة بأن الآب لوازى قد تم فصله عن الجماعة من أجل إشارته هذه!..

إن أكثر ما يلفت النظر فى الإنجيل الرابع إنما هو وحدة الأسلوب، ولا يهتم «يوحنا» بالاعتبارات التاريخية المزعومة التى من شأنها أن تدعم

مصداقية ما يقول.

فهو يبدأ باختصار جرئ من سفر التكوين. ومن الآية (١٩) يتناول نصه عبر شهادة يوحنا المعمدان. وذلك إلى جانب جسارات أخرى إذ ألغى التشبيهات، ولم يذكر سوى ثلاثة أمثال فحسب. ومن الغريب أنه طوال إنجيله لا يضع نفسه فى الصدارة أبدًا فى حين أنه كان الحوارى المفضل لدى يسوع. ومع ذلك، ففى الأسفار من (١٨ إلى ٢٠)، تلك التى تقص عملية القبض على يسوع وصلبه وبعثه يقدم لنا حشدًا من التفاصيل، التى تم تحليلها عبر هوامش هذا البحث. إن «يوحنا» يعبِّر وكأنه يمتلك نصًا من الدرجة الأولى، أى شهادة إنسان مباشر، إذ يعطينا مفتاح ذلك فى الآية التالية: «والذى عاين شهد، وشهادته حق، وهو يعلم أنه يقول الحق لتؤمنوا أنتم» (٣٥:١٩). ذلك هو الدليل القاطع، والذى تم إهماله بغرابة. على أن «يوحنا» ليس هو يوحنا الزبيدى، فهو لا يقول أنا.

فمن كان إذن؟ يؤكد إيرينى أن هذا الشخص قد عاش أيام تراجان، ويقدم أوسيبيوس هذا المعطى الحيوى: بأن بابياس قد عرف أيام كان فى هيرا بوليس فى سوريا شخصين باسم يوحنا، وليس واحدًا (هـ. ج. هولتزمان: H.J Hoilzman, handkommentar 1893، ورايت وماكلين W. Wright & N.Mclean.: **التاريخ الكنسى لأوسيبيوس فى سوريا** (طبعة كامبريدج عام ١٨٩٨م).

ومن الواضح إذن أن «يوحنا» الذى يقال عنه الإنجيلى قد قابل يوحنا الزبيدى فى هيرا بوليس قبل عام (٧٠م) وجمع منه نسخته الشخصية للأحداث، وفسرها وفقًا لهواه ووفقًا لثقافته. وبالنسبة للأب لوازى وكثيرين غيره – إذ إن هناك إجماعًا على هذه النقطة – فإنه كان يهوديًا مثقفًا عاش فى آسيا قبل الرومان مما يؤكد قول أوسيبيوس الذى يرى بأن الإنجيل الرابع قد نشر فى أفسوس المقصود بالنشر هنا بالطبع النص الذى يقدم

للناسخين). تُرى من أين كان له بهذه المعرفة المتعلقة بفلسطين، وخاصة بتخوم الأردن والقدس؟ ولا يرجع ذلك إلا لزيارة متعمقة لهذه الأماكن، على حد قول هوجل Hughel.

وهذا الافتراض الذى يرى معه أن الإنجيل الرابع عبارة عن نسخ الأقوال الشفهية، التى أدلى بها يوحنا الزبيدى إلى «يوحنا» الإنجيلى، الأصغر منه سنًا بشكل واضح، تدعمه المسحة الغنوصية لهذا الإنجيل.

وبالفعل، فإن الغنوصية ظهرت فى مطلع القرن الأول فى آسيا الصغرى. والسؤال الذى يُطرح عندئذٍ هو: هل كانت الغنوصية تتفق ومعتقدات يوحنا الزبيدى؟

لابد من بحث آخر ومن كفاءات أخرى تتجاوز مقدرتى لتناول الموضوع بشىء من الجدية - بعد مناقشات أبيفانوس حول هذا الموضوع، فى القرن الرابع، مع مسيحيى عصره.

فإذا ما كانت غنوصية كاتب الإنجيل تتفق وغنوصية يوحنا الزبيدى، فيجب أن نفترض أن عددًا كبيرًا من الحواريين قد أدرك تعاليم يسوع على أنها غنوصية قبل عصر هذا التيار. وهو أمر شديد الاحتمال، كما سأوضحه فيما بعد. ويظل بعد ذلك أن صياغة أقوال يسوع كما يعبِّر عنها «يوحنا» لا تتفق مطلقًا مع صياغة نفس الأقوال ليسوع كما نراها فى الأناجيل المتوافقة كما أن يوحنا يسند إلى يسوع أقوالاً لا نجدها فى هذه الأناجيل المتوافقة، وعلى أية حال فإن الإنجيل الرابع هو الوحيد فى هذه الأناجيل المعتمدة، والذى سمح بمثل هذا التفسير الشديد الوضوح.

إن موقفى ككاتب مؤرخ للسيرة كان كالتالى:

من ناحية، كان أمامى ثلاثة أناجيل متوافقة، تعتمد على خلاص المخطئين بفضل التضحية القصوى ليسوع، وكلها غارقة فى الشعور بالألفية

(وهى نهاية العالم الوشيكة).

ومن ناحية أخرى، كان أمامى مستند فريد مستوحَى بشعور الكشف ومتصوف لدرجة تلامس الغنوصية.

ومن جهة ثالثة فإن الأناجيل المتوافقة، كانت تعكس التفسير اليهودى - المسيحى. كما هو متواصل حتى يومنا هذا.

ومن زاوية أخرى، فإن الإنجيل الرابع يفتح الباب إلى تفسير يميل للشرق الأقصى لمغامرة يسوع. أو بقول آخر:

من جهة كانت أمامى نصوص شديدة التحريف فى نسخها وبمقتضاها يظل هناك استحالة لإعادة بناء التاريخ ما لم يتم اكتشافات أوسع، ومن جهة أخرى كان أمامى نص من شخص واحد أقل تزمتًا بكثير، بل وفى بعض الأحيان يمثل حرجًا شديدًا بالنسبة للتراث اللاهوتى.

ومثلما كان سيفعل أى مؤرخ، فقد أوليت تفضيلاً سريًا لوثيقة أكثر قربًا مما يقال إنها من «الصياغة الأولى»، بقيت مواجهة شعورى بأن يوحنا كان أقرب إلى تعاليم يسوع.

إن الأمر الذى يدعم شعورى بأن «يوحنا» لم يتصرف كثيرًا فى الأحاديث التى جمعها من أقوال يوحنا الزبيدى هو ذلك الإنجيل الخامس المعروف باسم إنجيل «توما». ولقد قام هنرى شارل بويخ H.Ch Puech بعمل دراسة قيِّمة حول هذا الإنجيل فى الجزء الثانى من كتابه المعنون: (**بحثًا عن المعرفة**) (دار نشر جاليمار ١٩٧٨م). وأدعو القارئ الذى يود تعميق معرفته بهذا الإنجيل الذى لا يعرفه الكثيرون أن يطلع على هذا البحث. وأكتفى هنا بالإشارة إلى واقعتين بارزتين:

أن العثور على ثلاثة عشر مجلدًا أو بقايا مجلد لهذا الإنجيل عام ١٩٤٥ فى «نجع حمادى» بمصر، مكتوبة باللغة القبطية الصعيدية فى بداية

القرن الثالث، تمثل مجموعة لأقوال يسوع، هى أكبر ما نمتلك من وثائق، وكلها شديدة الغنوصية. ووفقا لبويخ يبدو أنها من أصل سورى، أو بالتحديد من «أديسة»، وهى حاليًا مدينة أورفة بتركيا قرب الحدود السورية.

إن بويخ يرفض بحذر أية قيمة دينية لإنجيل توما، الذى يأبى حتى أن يطلق عليه لفظة الإنجيل الخامس؛ لأنه لا يرى فيه سوى ترجمة من اليونانية إلى الصعيدية (الجزء الثانى صفحات ٧٢، ٧٣) وبه آثار آرامية.

أى أن النص قد صيغ أولاً بالآرامية فى تاريخ سابق مثلما حدث مع الأناجيل المعتمدة أو على الأقل الأناجيل المتوافقة. إن هذه النقطة مهمة إذ إنها تكشف عن صلة ذات قربى مع هذه الأناجيل. وهناك نقطة أخرى ذات أهمية هى تلك الصلة الخاصة بين توما ومدينة أديسة: فلقد أرسل «توما» أحد المبشرين واسمه. أدّاى Addai، وهو ما تقطع بأنه كان تاسيان(◆) Tatien، تلك الشخصية الفريدة، مبشر وهرطقى معًا، ومن بين ألقابه الأخرى: أنه كان استاذًا لأحد آباء الكنيسة، وهو «كليمنتس» السكندرى وكان أبجار Abgar ملك اديسة، وكل سكان المدينة فى المسيحية.

وكان تاسيان مزودًا بنص مجمل للأناجيل الأربعة هو «الدياتيسيرون» وبالفعل، من المحال أن يكون توما قد عرف تاسيان. ذلك أن لويس ليلوار L.Leloir، من بين العديد من الباحثين، **(وقد قام بترجمة تعليق الإنجيل المتوافق أو الدياتيسيرون «لأفريم دى نزيل»**، طبعة دوسير باريس ١٩٦٦م)، يرى أن تاسيان قد ولد حوالى عام (١٢٠م) وفى نفس العام كان توما قد توفى، إلا إذا ما كان قد بلغ المائة وخمسين عامًا عند مولد تاسيان!

إن تاسيان إذن قد كتب «**الدياتيسيرون**» بدون سلطة توما المباشرة.

ونوضح أنه يوجد منها ست نسخ، إن لم تكن سبعًا، واحدة بالسريانية،

(◆) مبشر مسيحى من أصل سورى (١٢٠-١٧٣) وهو معروف بصفة خاصة بمحاولته للتوفيق بين الأناجيل الأربعة فى إنجيل واحد هو «الدياتيسيّرون».

والتى يشتق منها نص بالبربية، وباللاتينية، وبالهولندية، وبالفارسية، وبالتوسكانية، وبالفينيقية ودراسة هذه الترجمات قد استوقفت كفاءات عديدة غيرى. وأدعو القارئ «للببليوجرافيا»، التى أعدها الأب ليلوار فى عمله المذكور آنفًا. والمهم فى هذا الموضوع هو السؤال التالى: هل تسمح النسخة الأولى من « **الدياتيسيرون**» بأن نكوّن فكرة عما كانت عليه النسخة الأولى لإنجيل توما؟ وخاصة أن نعرف إذا ما كانت الغنوصية المؤكدة لهذا الإنجيل أصلية أم لا؟

بلا شك أن علماء اللغة والمفسرين يأنفون بشدة من مثل هذه التأملات، لكن ذلك لا يمنع من أن هناك واقعتين تسمحان بافتراض قرابة مباشرة وأمينة بين «**الدياتيسيرون**» العربى، الذى هو غنوص وإنجيل توما.

إن الواقعة الأولى قد أوردها التحليل الذى قام به «متزجر»، المذكور آنفًا والذى أوضح وجود ستين توافقًا من بين مائة وخمسين نقطة بين «**الدياتيسيرون**» وإنجيل توما. اى إن تاسيان قد أخذ ستين نقطة من هذا الإنجيل.

أما الواقعة الثانية فتتعلق بقدم إنجيل توما، والذى يشير إلى ذلك شكله الآرامى الذى هو - كما أوضحت آنفًا - يبدو بوضوح عبر النسخة القبطية. وبالفعل، لقد اختفت النسخ الآرامية للأناجيل فى وقت مبكر جدًا من النصوص المسيحية القديمة، لأن اللغة الآرامية لم تكن مستخدمة أساسًا إلا فى فلسطين. ففى الشمال كانوا يتحدثون السريانية والفارسية والآرامية، أما فى الجنوب فكانت اللغة هى: العربية، أما فى الغرب ومجمل حوض البحر الأبيض المتوسط فقد كانت اللغة اليونانية.

ترى ما الذى تخرج به من كل هذا؟ أنه كانت هناك بكل تأكيد نسخة آرامية من إنجيل توما قد صيغت مبكرًا فى النصف الثانى من القرن، وربما قبل ذلك، افتراضًا فيما بين عامى (٤٠، ٦٠م) وسرعان ما ترجمت إلى اليونانية، ومنها إلى القبطية من أجل سكان مصر العليا وأثيوبيا. وأنه وفقًا

لكافة الاحتمالات، فإن النسخة اليونانية هى التى استعان بها «تاسيان». أو بقول أبسط، لا توجد أدلة مطلقة على أن غنوصية إنجيل «توما» المنعكسة بوضوح فى «الدياتيسيرون» العربى، لم تكن من صنع الغنوصيين فى أديسة، وأنه ليس من العبث أن نفترض، على العكس من ذلك، أن هذه الغنوصية كانت موجودة فى النسخة الأولى لإنجيل «توما». إنه لا يوجد شىء أكثر كثافة من علماء المفسرين إلا أن المنطق يسمح بأن نعتقد الآتى: إذا ما كان مسيحيو «أديسة» ومنهم «تاسيان» المتشدد قد اختاروا إنجيل «توما» ليشكلوا الدياتيسيرون بناءً عليه، فذلك لأنه قد كان بالفعل غنوصيًا. ولو لم يكن هذا الإنجيل متفقًا ومعتقداتهم لانفضوا - إن أمكننى القول - عن إنجيل «يوحنا» الذى يقدم لهم مجالاً يتفق وميولهم.

أى إنه من بين الأناجيل الخمسة هناك اثنان يرجحان تفسيرًا غنوصيا لتعاليم يسوع، وهما إنجيل «يوحنا» وإنجيل «توما».

إن الشخص العادى قد يتساءل: وما أهمية هذه النقطة؟ إنها جد شاسعة. والإسهاب النسبى للمناقشات اللاهوتية لما أقوله يوضح ذلك. إذ إن الفكر الغنوصى باختصار يعتبر أن هناك إلهين أو مبدأ مزدوجًا للخير والشر من جهة، والخالق من جهة أخرى، إنما هو أعلى من الله. ومملكة الثانى تغطى مملكة الأول. وهى المشكلة التى استبعدها اللاهوت الأرثوذكسى.

أولاً من سينودس إلى سنيدوس ثم فى مجمع نيقية الأول، وفى مجمع القسطنطينية الأول، وأخيرًا فى مجمعى نيقية الثانى وفى خلقيدونيا. فإذا ما كان الأمر يتعين بتصور افتراض وجود خالق أعلى من الله، فذلك يعنى أن الله سيحط من شأنه إلى درجة التناقض أى الشيطان. وكما كان هناك إمكانية تصور تجسد إلهى فى شخص يسوع الإنسان. وبذلك لما أصبح يسوع المسيح الذى يحثه المولى، وإنما مجرد شخص درس الأسرار، وأتى ليرشد الإنسانية تجاه الكشف، مثله مثل أبوللونيوس التيانى على سبيل المثال.

وبذلك فإن هذا الفرع من اليهودية التى هى المسيحية الوليدة، كان من الممكن أن يختلط بالهندوسية والبوذية. لذلك جاهدت الكنيسة منذ القرن الثانى فى قلفطة الشقوق التى كان يمكن من خلالها لرياح آسيوية عاتية أن تهدد بخلع البنيان الهش لتفسيرها ليسوع.

إن «الدياتيسيرون» بالفعل كان الكتاب الإنجيلى الذى سبب للكنيسة أكثر المصاعب؛ لا لأنه لم يكن مقروءًا أثناء القداس ومن أتباع الكنيسة السريانية وفى الشرق حتى القرن الخامس، أى بعد أن تم إعلان هرطقة تاسيان بكثير، وإنما لتأثيره على الكنيسة الغربية بعد أن تم فرض الأناجيل المعتمدة على المسيحيين (**الموسوعة البريطانية**، طبعة ١٩٦٤م).

لكن «الدياتيسيرون» لم يكن الإنجيل الوحيد الذى يختلف مع الأناجيل المعتمدة، فهناك كمٌّ حقيقى من الأناجيل المتداولة فى مجمع العالم المسيحى. ونذكر من أقدمها إنجيل العبريين، والإبيونيت، والمصريين، وإنجيل فيليب، ومتَّى، وبطرس، وكذلك خطب بطرس؛ وإنجيل برنابا.. وهناك حوار «نيسفور» ومختصر «أطناز» المزعوم.. وقد ضاع الكثير غيرها، ولا نعرفها إلا من تلك القائمة التى أفردها «أبيفانوس»، إلا أننا نجد بين الأناجيل «التوماسية» ترجمات أو صيغًا مختلفة مثل تلك الأجزاء الواردة من الفيوم، ومخطوط أوكسيرينخوس، بجانب حواشٍ من قبيل عقائد صوفيا، وقد عرف إنجيل توما بالفعل حماس الناسخين. وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك أناجيل لطفولة يسوع، مثل الإنجيل الأول ليعقوب (يعقوب الأصغر لا شك)، وإنجيل مولد مريم، والإنجيل العربى للطفولة، والأرمنى، وتاريخ يوسف النجار، بالإضافة إلى خطب ايفوديوس، وسريل القدسى، ودمتريوس الأنطاكى، وسريل السكندرى، وأناجيل الآلام، ومنها جزء من إنجيل بطرس، وإنجيل نيكوميد، الذى يقال عنه أيضًا أفعال بيلاطوس، وكمية هائلة من تلك الأجزاء والوثائق مثل خطاب بيلاطوس إلى قيريوس، وتاريخ يوسف الرامى، وحكايات

مليطون، وكمية من أفعال الرسل يوحنا وبولس وبطرس وأندريه وتوما وفيليب وماتياس وبرنابا وتدّى وكم من الرسائل وأسفار الرؤيا.

ولمعرفة كم هذه الوثائق بالتفصيل لابد من الرجوع إلى العمل الضخم لمونتاج رود جيمس Montague Rhode James **العهد الجديد المستبعد**.

إن المؤمن المعاصر الذى يتناول لأول مرة هذا الكم من الوثائق، التى يجهلها الجمهور العريض، لابد أن يصاب بالدوار، خاصة، وأن بعضها مثل المخطوط المطبوع عام (١٩٣٥م) والذى أصدره «بيل وسكيت» Bell & Skeat، وهو جزء من إنجيل مجهول يرجع إلى النصف الأول من القرن الثانى يحتوى على كلمات ليسوع كانت مجهولة حتى ذلك الحين، وهذه الكلمات تثير القلق بصفة خاصة. إن مثل هذا المؤمن لابد أن يتساءل: «أيها الجيد؟ لماذا هى محتجبة؟».

وفى واقع الأمر، فإننا إذا ما تتبعنا مسيرة التاريخ، فمن الواضح أن كل هذه الأناجيل وثائق أصيلة مثلها مثل الأناجيل المتوافقة، فقد تمت كتابتها فى فترات مختلفة من القرون الأولى للكنيسة المسيحية، على أساس روايات شفهية أو تراثية، مثل **الأوديسا** مثلا إنها بالطبع ليست نصوصًا تاريخية، كما أن الأناجيل المتوافقة كما رأينا ليست تاريخية هى الأخرى - إذا ما استثنينا إنجيل «يوحنا». إن المفهوم العصرى للتاريخ، أى تسجيل الوقائع المحددة المحققة لم يكن معروفًا آنذاك، والذين اقتربوا إلى حد ما من هذا المفهوم فى المؤلفين القدامى هم: «تاسيت» فى (**الحوليات**)، و«يوليوس قيصر» فى (**تعليقات إلى حرب الغالبين**)، و«فلافيوس جوزيف» فى (**حرب اليهود**)، الذين عرفوها أو الذين لم يعرفوها، لم يكن لديهم بالقطع أى اهتمام بتسجيل الأحداث التاريخية، وإنما فقط «**بالنبأ السعيد**» الإفانجلوس.

إن النصوص التى يطلقون عليها (سرية) تلك التى يرفضونها، إنما تعكس إلى جانب الوقائع الواردة بها، والتى عادة ما تم تحريفها بالاستبعاد أو تحسينها بهمة، تلك الحالة الذهنية لكاتبيها. وهى نصوص مجهولة؛ لأن

الكنيسة قد ألقت بها بعيدًا.

وهذا الاستبعاد كان يعتمد نظريًا على ثلاثة معايير: عقيدى، واستخدامى، وأصل رسولى. ومن هذه المعايير الثلاثة التى كان يجب أن تتوافر فى النص؛ ليعلن عنه أنه معترف به، ذلك الإنجيل الرابع هو الوحيد الذى يمثل طابعًا تاريخيًا بما أن التحديد ينص بالنسبة للاعتراف، بأن النص يجب أن يكون قد وصل إلينا بواسطة الرسل. وقد كان ذلك من الضرورى وإن لم يكن كافيًا؛ لأن النص إذا كان رسوليًا، ولا يتفق مع شرائع الكنيسة، فقد كان يستبعد هو الآخر أيضًا مثلما حدث مع إنجيل توما و«الدياتيسيرون» الناجم عنه جزئيًا.

ومن البديهى أن موقف الكنيسة المتحيز لا يمكن أن يفيد أو يرشد المؤرخ بأى حال. وكل فرد عليه أن يفترض أن الكنيسة قد استبعدت أعمالاً تتفق والطابع الرسولى لكنها لا تتفق والمعيار العقيدى. وقد تم ذلك بسهولة خاصة، وأن علم اللغة لم يكن موجودًا آنذاك، وأن آباء الكنيسة كانوا يتخذون القرارات التى تبدو لهم أنها تتفق ومصالح جماعاتهم دون مراعاة دقة علمية.

ولم يكن من السهل أن يحرم ببساطة بعض تلك الأناجيل. ففى أواخر القرن الثانى مثلاً، كان «إيرينى» أسقف مدينة ليون، المذكور آنفًا، وهو من مدينة «أزمير» أصلاً، وواحد من أكبر علماء اللاهوت فى الكنيسة الأولية، يستخدم الأناجيل الأربعة المعتمدة الحالية، ربما لأنها كانت تمثل أقل قدر من المشاكل العقيدية، بالإضافة إلى ثلاثة عشر خطابًا لبولس وبطرس ويوحنا، والرؤيا، و«الراعى هرماس»؛ وفى القرن الخامس، عقب قرار البابا جيلاسيوس الأول، تم استبعاد «الراعى هرماس» مع الأناجيل المستبعدة الأخرى. ونجد مثالاً آخر فى القرن الرابع، فقد كان أسيبيوس، المذكور آنفًا، يعترف بكتابات يعقوب التى كان يتقبلها الأتباع، وذلك إلى جانب نصوص أخرى من بينها إنجيل العبرانيين، وفى القرن الخامس استبعد قرار

جيلاسيوس كل هذه الأعمال أيضًا كما ضم إليها النصوص المستبعدة. وفى القرن الرابع أيضًا كان الدستور السينوى Codex Sinaiticus يعترف برسائل برنابا (وكذلك أيضًا بالراعى هرماس) الذى تم استبعاده طبعًا مع بقية الأناجيل المستبعدة.

ومثلما أوضحت آنفًا لم تكن المهارات اللغوية أو الكتابية هى التى تستوجب الاستبعاد. لذلك نرى فى القرن الثامن أن الشريعة الموراتورية(*) ينص على أن سفر الرؤيا فى إنجيل بطرس صالحة للقراءة على الرغم من أصلها المشكوك فيه، فى حين أنها كانت مستبعدة منذ ثلاثة قرون بموجب قرار جيلاسيوس.

ويمكن مضاعفة هذه الأمثلة طوال عدة صفحات، لكننى أعتقد أننى وصلت لهدفى وهو توضيح أن الإجماع لم يكن واحدًا لمدة قرون بين علماء اللاهوت فيما يتعلق بالنصوص الإنجيلية. وبصفتى مسيحيًا، فإننى أتساءل ـ عرضًا ـ ألم يكن من الأصوب اتباع سياسة «كليمنتس السكندرى»، الذى لم يكن يعبأ كثيرًا بالشرعية، ولا يهتم إلا بالمضمون ويقوم بتعليم نصوص قد تم استبعادها وذلك مثل إنجيل العبرانيين وإنجيل المصريين، وإنجيل الرسل الاثنى عشر وإنجيل برنابا وكثير غيرها؟! وأيًا كان الأمر فلم يكن كليمنتس السكندرى فى مكانة سيّئة آنذاك لكى يحكم على أصالة النص، وقد انضم إليه لوثر فيما بعد، معترضًا على التمييز الشرائعى، معلنًا أن المهم هو ما يؤدى إلى يسوع، فليسمح لى أن أشك - دون اعتبار ذلك وقاحة منى - أن المسيحيين الذين كان كل من كلمينتس السكندرى وإيرينى يقرآن عليهم نصوصًا قد تم اليوم استبعادها، قد ضللوا أو زج بهم فى الانقسام والهرطقة..

(*) ترجع إلى نهاية القرن الثانى، وهى كشف رسمى يتضمن قائمة النصوص المعقدة الأولى، وسُميت كذلك نسبة إلى موراتورى، أمين المكتبة الذى عثر عليها فى القرن الثامن عشر (المترجمة)

وأود أن أذكر ببساطة بهذا الصدد أن كلمة «مختلف» والتى تأخذ اليوم معنى «مزيف» كانت تعنى فيما مضى شيئًا آخر تمامًا: فالنص المختلف كان يعنى أنه ثمين، ولا يمكن تركه بين كافة الأيدى (على حد قول م. ر. جيمس المذكور آنفًا)، و«كان يجب أن يحفظ لعارفى الأسرار، وحتى تلك الطائفة المحدودة من المؤمنين». وبالفعل كانت هناك نصوص تقرأ علنًا فى الكنائس وفى القداسات، قد أصبحت فجأة وخاصة بعد قرارات جيلاسيوس، نصوصًا سرية. وقد استمر بعض الرهبان المنشقين فى نسخها لمدة قرون، وبذلك أصبح لدينا اليوم نسخ قبطية وسلافية وعربية وفارسية من النصوص السرية المستبعدة.

كما أحب أن أوضح أيضًا أن النصوص التى يقترحونها (أو يفرضونها!!) على أنها بلا تغيير لنصوص الأناجيل هى نصوص تستوجب المناقشة ومشكوك فيها. ولا نذكر سوى برديات النصوص الإنجيلية التى عثر عليها فى مصر، إذ إن الموسوعة البريطانية (طبعة ١٩٧٨م) قامت بإحصاء مالا يقل عن مائة وخمسين ألف تحريف. فمن ذا الذى يمكنه تحديد النص المباح؟

وعند هذه النقطة من هذا العرض لابد للقارىء العام أن يتساءل: ولماذا اتخذ البابا جيلاسيوس الأول مثل هذا القرار السلطوى، ومصادرة عشرات النصوص التى يبجلها الأتباع؟ ذلك لأن هذا البابا العنيف قد أعيته احتجاجات الكنيسة الشرقية وخاصة هرطقة أكاس الناجمة عن رفض روما قبول صيغة السلام التى كان الإمبراطور «رينون» البيزنطى قد عرضها على المرنوفيزيقيين، لقد كان هناك، فى العالم المسيحى الشاب، ما فيه الكفاية من الثورات العقيدية دون أن نقول شيئًا عن المجال الرومانى، لتأتى كتابات إنجيلية غير متفقة، يقوم كل فرد بتفسيرها وفقًا لهواه، بما فى ذلك الأساقفة. وقد حل جيلاسيوس مشكلة النصوص لتثبيت الشرائع وتدعيم سلطة البابوية.

إن المسيحى المعاصر ينسى ذلك، أو لا يقره أو يجهله بسهولة؛ إلا أن حقيقة الأمر هى: أن الاختلافات حول النقاط العقيدية فى القرون الأولى كانت دائمًا ما تكتسب أهمية سياسية. وحتى فى يومنا هذا فإن الخلافات حول تفسير ماركس فى البلدان الشرقية، لا تتسم بأصداء المعارك التى دارت حول تحديد طبيعة المسيح فى الكنيسة أو على الأقل فى الكنائس الأولى. فعندما كان سفريوس أسقف أنطاكية يساند فكرة طبيعتين للمسيح، وإن رأى أن جسده قابل للتحلل، كما أن ذكاءه لم يكن مطلقًا، فإن جوليان أسقف هاليكرناس كان يساند عكس ذلك، وأن الطبيعتين كانتا متحدتين إلى **اللوغوس** بحيث لا تصبحان مشاركتين فى الجوهر مع إنسانية الشخص نفسه، أى إن جسد يسوع لم يكن قابلاً للتحلل، وإن ذكاءه كان مطلقًا، لقد كانت هذه المناقشات تثير المظاهرات فى الشوارع.

وقد اندلعت حرب أهلية فى القدس والإسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية. وكانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية الممتدة، من طيسفون إلى أعمدة هرقل، ترتجف على قواعدها. كما أن العواقب المالية والاقتصادية كانت شاسعة عندما يذهب بقية الأمراء والشعب إلى هذه الكنيسة بدلاً من تلك.

أما التميزات اللاهوتية التى لا نهاية لها، وكانت تطرحها المجامع، والتى قد تبدو لنا «بيزنطية» فقد كانت تتضمن بداخلها عواقب سياسية مهولة. فالصيغ المختلفة لحياة وكلمات يهودى اسمه يسوع، كان قد عاش فى القرن الأول وعمل على تجديد العقيدة اليهودية، قد تحولت على مدى خمسة قرون أعمالاً ذات أهمية سياسية. ونتيجة لذلك، فإن العلاقات بين نسق المرجع الميتافيزقى والنسق السياسى أكثر قربًا وتداخلاً مما تحاول بعض العقول المعاصرة أن تفصح عنه.

وعلى أى حال فإن الدراسة التاريخية للنصوص الإنجيلية لا علاقة لها بالاهتمامات السياسية للكنيسة البدائية ولا بالتراث الذى قام بتثبيت

الشرائع. ولقد كنت عازمًا على استخدام أى جزء يناسبنى من الأناجيل المستبعدة بغية إعادة صياغة حياة يسوع. وهنا يكمن التحفظ الثالث من تلك التحفظات التى ذكرتها فى مطلع هذا الفصل.

وهنا أيضًا كان يجب أن أختار:

فمن بين أناجيل الطفولة استعنت أولاً بإنجيل يعقوب أو بالإنجيل الأول وفقًا للاسم الذى أطلقه عليه مقدمه «غليوم دى بوستل» فى القرن السادس عشر. وهو يتعلق بنص كان شديد التداول ويرجع إلى القرن الثانى. وأود بهذه المناسبة أن أحدد وجهة نظرى حول مدى هذا القِدَم. إن الإنجيل كان يعنى نسخ وتدوين تراث شعبى ولم يكن من الممكن أن يكتب خلال بضعة أيام ولا بضعة أشهر أو سنوات، وإذا ما كانت بعض الأجزاء (الأول والثانى) متداولة حوالى عام (١٣٠م) فذلك يعنى أن بقية النصوص ترجع إلى أواخر القرن الأول، وتكمن أهميته فى الإصحاح الثامن، ومن الإصحاح الثانى إلى العشرين، فهو يحتوى على بذخ من المعلومات حول ظروف زواج يوسف (النجار) من مريم، وكلها تفاصيل لا توجد فى أى نص إنجيلى آخر. وهى تفاصيل تسترعى النظر لواقعيتها بين مجمل نصوص تميل للسهولة فى الرسوليات الخيالية. وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه المعلومات تناقض بعض تلك التفاصيل الواردة فى الأناجيل المعتمدة خاصة فيما يتعلق بأشقاء يسوع. وتجد العديد منها فى إنجيل متّى إلاّ أن هذا الإنجيل، فى نظر المختصين، ليس إلاّ نسخة مشتقة من الإنجيل الأول.

وقصة يوسف النجار هى نص متأخر إذ إنه يرجع إلى القرن الرابع، وإن كانت بعض تفاصيله الهامة حول تقدم سن هذه الشخصية متضمنة فى نسخة من الإنجيل الأول، والأمر يتعلق بنص رسولى انتشر فى مصر.

إن إنجيل بطرس مهم هو الآخر من حيث القدم بما أنه يرجع إلى منتصف القرن الثانى: ونرى أصداء فى كتابات هذا القرن، إذ يتكرر ذكره

باستمرار، كما يبدو أن جستان الشهيد، الفيلسوف والمدافع عن العقيدة، وهو مولود حوالى عام (١٠٠م) كان على علم به هو الآخر. إلاّ أن هذا النص يكتسب أهميَّة أيضًا لتناقضه الشديد الوضوح إذْ يكشف بشكل هزلى عن أخطاء التفسير السائدة آنذاك بين المسيحيين الأوائل، والتى تجدها فى الأناجيل المعتمدة. فهو مثلاً يقدم هيرودوس انتيباس على أنه «ملك إسرائيل» وبذلك يكشف عن معاداة مذهبة للسامية بالنسبة لذلك العصر، ولعله بذلك يصبح أول النصوص المعادية للسامية.

أما أفعال «توما» وهو من أطول النصوص وأكثرها ثراءً أدبيًا بين مجمل الأناجيل المستبعدة فقد منحتنى مادة مهولة للتفكير. وهى موجودة بالسريانية واليونانية، وأُسندت أحيانًا إلى الكاتب السورى «بردسان» الذى حظى بشهرة مدوية لمدة قرنين بعد وفاته عام (٢٢٢م)، ومن المحتمل، وفقًا لـ : «م. ر جيمس»، المذكور آنفًا، أن تكون النسخة اليونانية أقدم، وأفترض شخصيًا أن النص اليونانى قد اسْتُعين به فى كتابة نص سريانى، كما يبدو من ذلك الأسلوب الشرقى الانسيابى لهذه النصوص الشديدة الطول والجميلة عادة.

إن أفعال توما تحكى رسالة تبشير توما فى الهند. كما أن النصوص الوحيدة بين كافة النصوص الإنجيلية التى تذكر وجود يسوع فى الهند فى نفس الوقت مع «توما». وهو معطَى سأتناوله فيما بعد نظرًا لأهميته المعقولة.

وإلى جانب ذلك فقد استعنت بعدد من النصوص الكلاسيكية، مثل مسرح «ارستوفان» و«يوربيدس» وكتابات فلافيوس جوزيف وعدد من أبحاث علماء الآثار والتاريخ، والنقاد وجميعها واردة فى البيلوغرافيا.

وهناك كم وفير من الكتابات حول مخطوطات البحر الميت التى يمكن أن نضيف إليها شيئًا. لكن فيما يتعلق بمهمتى فإن هذه الوثائق تحتوى على أهمية عامة وأخرى ثانوية. كما أنها تبين ـ على عكس بعض الأفكار السائدة ـ أن الاكتشافات لم تنته بعد فيما يتعلق بالعالم اليهودى المسيحى. وإن كان

الهدف الأساسى إنما هو توضيح المضمون الدينى لوظيفة يسوع. ذلك أن «فيلون السكندرى»، و«جوزيف»، وبعض المؤلفين السابقين على اكتشاف المخطوطات عام (١٩٤٧م)، مثل «آرنست رينان» قد ذكروا الأسينيين لكنهم ذكروهم بشكل عابر ربما لقلة الوثائق أو لعدم اهتمام ذلك العصر بهم.

ومعرفة هذه الطائفة بشكل أفضل يزيد من غرابة الصمت المطبق ليسوع نحوها. إذ يبدو كأنه يجهل وجودها، الأمر الذى يعد من المستحيل بالطبع.

أن الأسينيين الذين كانوا يتباعدون باحتقار عن بقية الجماعة اليهودية، وخاصة عن كهنة المعبد، الذين كانوا فى نظر الأسينيين يساهمون فى ارتداد إسرائيل، لابد أنهم كانوا يبدون كالعثرة بين أقدام الكهنة. ولم يكن هؤلاء الكهنة يجهلون أن الأسينيين كانوا يعتبرون المعبد الذى أعاد هيرودس بناءه عملاً شائنًا، وكانوا يعلنون بوضوح هدفهم من «تحرير» القدس وتحريم ارتياد أماكن العبادة على «الزناة والغرباء» (وكلمة زناة هنا يجب أن تؤخذ بمعنى «وثنى» فاليهود آنذاك كانوا يعتبرون أى وثنى «ابن سفاح».. انظر جريميا المذكور آنفًا).

وهذه النقطة فى غاية الأهمية إذ توضح أولاً ذلك الخلاف العام السائد آنذاك بين الشعب اليهودى المنقسم من جراء العداء المتبادل بين السامريين والفريسيين والصدوقيين، كما أنها تكشف أيضًا كيف أنه كانت توجد فى بنى إسرائيل جماعة تتقاسم وجهة نظر «يسوع» فيما يتعلق بالمعبد وبكهنته.

إن «جوزيف»، الدسّاس الثائر والجاحد، الذى رفع الأسينيين إلى درجة الأبطال، لشديد الحرج من هذه النقطة. فهو يحاول بالفعل أن يوحى بأن أناس المعبد هم الذين كانوا لا يسمحون للأسينيين بنحر الذبائح، وهو أمر مدحوض، كما أوضحه «جون نولاند» J.Nolland (مجلة قمران، رقم ٣٦ صفحة ٥٥٥ – ٥٦٢): فالأسينيون هم الذين كانوا يبغضون أناس المعبد.

وهناك أهمية أخرى لمخطوطات البحر الميت، إذ تكشف عن تيار غنوصى، يبدو من هذه الآيات التالية من «النشيد»: التبرير الذى هو من عمل الرب، وذلك من قانونهم الجنائى: «فى الكيان الخالد تأملت عينى حكمة محجبة عن رجل العلم، ورقة رهيفة مختفية عن أبناء الإنسان، فهى ينبوع العدالة ونفورته القوية، كما أنها مجال المجد المتحجب عن الجمع الجسدى».

والأهمية الخاصة لهذه المخطوطات تكمن فى هذه النقطة، التى تمت مناقشتها طويلاً، حول التأثير المحتمل للأسينيين على يسوع. وهناك ثلاث نقاط عقيدية تؤيد هذا الاقتراح، وإن كانت لا تبدو بهذا الوضوح أو بهذه الخاصية فى كافة الكتابات العبرية السابقة، فهى - والحال هذه - نقاط جديدة لا نجدها ثانية إلاّ فى تعاليم يسوع، وهى: المحبة الأخوية، واحتقار ملذات الحواس والثروات، والاهتمام بالنقاء. «لن أرد لأحد جزاء الشر»، ذلك هو ما ينص عليه قانون الجماعة (١٠: ١٧-١٨) «إنك لم تضع سندى فى المكسب» هذا ما يقوله الأسينيون إلى الرب، (نشيد / ١٠، ٢٢) وأخيرًا، تلك الحيطة التى يتخذها الأسينى عندما يذهب لقضاء الحاجة، وخشية من أن يصبح غير طاهر، حتى عن طريق لمس الزيت، إلى جانب بقية القواعد الخاصة بالنظافة الجسدية والجنسية، المنصوص عليها بوضوح فى ذلك القانون. إذ لا يبدو «يسوع» مأخوذًا بقواعد النظافة الجسدية، فإن تبتله المعروف على الأقل فى السنوات الثلاث لرسالته العامة إنما يشهد على اختياره للامتناع.

وهناك نقطة خاصة تؤكد بوضوح انتماء «يسوع» إلى هذه الطائفة «بقمران» هى: أن يسوع احتفل بالعشاء الأخير عشية عيد الفصح، الأمر الذى يمثل غرابة واضحة، لا يمكن تفسيرها مثلما أوضحته آنى جوبير Annie Jaubert ببراعة فى تاريخ العشاء الأخير، إلاّ إذا كان يسوع قد التزم بالتقويم الأسينى، الذى كان عيد الفصح يقع بالنسبة له فى ١٤ نيسان (أبريل)، أى

قبل عيد الفصح بالقدس بيومين. حتى إن يسوع بعد أن غادر الأسينيين بعدة سنوات قد احتفظ بعادة الاحتفال بعيد الفصح فى هذا اليوم المحدد الذى تم اختياره منطقيًا.

إن افتراض انتماء يسوع إلى جماعة الأسينيين يؤكده شخصية ابن خاله. ذلك أن يوحنا المعمدان كان راهبًا وحيدًا مثلما تصفه الأناجيل، ولا ينتمى فى اللحظة التى يظهر فيها على المسرح إلى جماعة الأسينيين إلاّ أن هناك العديد من التفاصيل التى تشير إليه على أنه إنسان قد اتبع هو أيضًا التعاليم الأسينية وممارساتهم: فطعامه طعام الأسينيين، ومعمديته تذكرنا بمعمديتهم، ومثلهم أيضًا نراه يذكر كلمة أشعياء: «أعدوا الطريق فى الصحراء ليهوذه». وما أكثر عدد الذين يرون - ومن بينهم الكاردينال يوحنا دانييلو فى كتابه عن «**مخطوطات البحر الميت وأصول المسيحية**» أن الشبه من الكثرة بحيث لا يمكن اعتباره عرضيًا، ويخرجون من ذلك بأن «يسوع» و«يوحنا المعمدان» كانا ينتميان إلى الأسينيين: ويقول الكاردينال: «إن اكتشافات قمران تحل عددًا كبيرًا من المشاكل التى لم يكن بوسع التفسير أن يحلها، وذلك مثل أصل يوحنا المعمدان، وتاريخ عيد الفصح، وأصل التدريج، ومفردات القديس يوحنا» ثم يضيف الكاردينال بشىء من الجرأة: «وأصل الغنوصية»، تلك التى سألام عليها عندما أتناول وجهة نظره.

ذلك لأن أهمية مخطوطات البحر الميت الأساسية إنما تكمن فى هذه النقطة: إنها تكشف أن الأسينيين كانوا شديدى التأثر بالغنوصية، وأن «يسوع»، باتباعه تعاليمهم، قد كان هو أيضًا غنوصيًا.

ومنذ هذه اللحظة فإن غنوصية إنجيل «يوحنا» لا تبدو كأنها دخيلة، كما أن أصالة إنجيل «توما» تصبح آنئذٍ أكثر حقيقة.

كما أن التحفظ الدائم ليسوع حيال لقب المسيح يتبدى بشكل آخر: إذ لم يكن بوسعه أن يكون المسيح، فى العقيدة الأسينية، ليس إلاّ تجسد القوى

الإلهية التى ستظهر عند نهاية العالم وعندئذٍ فحسب. وإذا كان الانتظار التبشيرى قويًا فى قمران، ومثلما كان انتظار استهلاك الزمان الذى كان مرتبطًا به، فإن الأسينيين لم يتصوروا المسيح أبدًا على أنه إنسان يمكن إدراجه فى مجرى التاريخ: إن المسيح بالنسبة لهم إنما هو: «الغصن المنبثق من شجرة يشه Jessé والذى سيظهر فى نهاية العالم. وذلك هو السبب الذى من أجله أن سيد العدالة الذى يعد بمثابة المرجع فى جماعتهم، لم يختلط أبدًا بالمسيح.

إن كل هذه الاعتبارات تثير نقطة أخيرة، لم يتصد لها على ما أعلم - أى باحث، وهى: لماذا ترك يسوع الأسينيين؟ ولم يكن لأحد أن ينفصل عنهم إلا إذا طرد من جراء خطيئة جسيمة، أو بسبب خلاف أساسى، وإننى شخصيًا استبعد الخطأ الجسيم، حتى وإن كان تزمتهم قد تعارض مع يسوع، الذى كان الأكثر تمسكًا بروح القانون لا بحرفيّته.

إن افتراضى هو أن «يسوع» لم يكن بوسعه أن يظل غير مكترث حيال الانتظار التبشيرى لبنى إسرائيل، الذين لم يتوقعوا بأية حال أن المسيح سيأتى بنهاية العالم. بل على العكس، بالنسبة لليهود فإن المسيح كان سيبدأ عهدًا جديدًا. لكن كما رأينا آنفًا، إن الأسينيين قد ابتعدوا عن الشعب اليهودى، وهو موقف من الصعب على «يسوع» أن يتضامن معه خاصة أنه مصحوب باليأس الضمنى لكافة الألفيات.

وبالنسبة لقوم «قمران» فإن الموقف كان محسومًا، ولم يكن أمامهم إلاّ انتظار نهاية العالم. من هنا كان على «يسوع» أن ينفصل عنهم.

وربما كان ذلك أيضًا هو السبب فى ابتعاد «يوحنا المعمدان». لكن ربما كان «يسوع» بالنسبة «ليوحنا المعمدان» هو المسيح، وهو إذ يترك قمران؛ فذلك لأن حماسه لا يستقيم ويأس الأسينيين كما أنه كان ينتظر مع بقية اليهود مجئ المسيح الذى سيندمج فى التاريخ لتجديده.

من هنا نرى كيف كان تأثير مخطوطات البحر الميت غير مباشر على مفهومى، وإن كان حاسمًا وربما ستقرون أيضًا أن جرأتى لم تكن سوى استخلاص للنتائج من تفكير ومعتقدات المفسرين. بما فيهم الكاردينال دانييلو.

ومع ذلك فيجب أن نتحاشى التطرف أيًا كان فيما يتعلق بهذه المخطوطات، الشهيرة وغير المعروفة والتى تسببت فى صراعات مقنّعة، وإن كانت شديدة وقريبة من الشجار: إن المخطوطات لا توضح ما إذا كان الأسينيون هم «أوائل المسيحيين» مثلما سارع، وأعلن ذلك بعض ورثة الكنيسة عام (١٩٨٠م)، أو أنهم ليسوا غرباء على تكوين الكنيسة، مثلما نادى بذلك منذ ثلاثين عامًا ورثة آخرون لنفس الكنيسة.

إن قارئ هذه التنويعات البسيطة القوية وغير الحاسمة ربما استطاع أن يدركها بشكل أفضل على النحو التالى، إذا كانت مخطوطات البحر الميت «تعلن» بشكل مًا أفضل عن مجىء «يسوع»، وبالتالى تسبق رسالته، فمعنى ذلك أن «يسوع» يقع فى خط تاريخ دينى وروحى له تبريره الشرعى، حتى إذا لم يخط بشرعية داوودية (نسبة لداود ﷺ). مثلما حاول بعض المبشرين ذلك عبثًا.

فمنذ بدايات المسيحية يحاول مؤيدو يسوع بإلحاح لا معنى له، تبرير شرعيته.

أولاً: عن طريق نسب مزيف يجعل منه وريث العرش اليهودى.

وبعد اكتشاف مخطوطات البحر الميت، ها هم يحاولون إثبات أنه كان المسيح الذى ينتظره الأسينيون باعتباره المختار من بين المختارين.

وعلى العكس من ذلك، إذا ما كانت نفس هذه المخطوطات غريبة تمامًا عن تكوين يسوع، فإنها لن تمثل سوى كشف أثرى بلا أى معنى فى التعاليم التراثية الكنسية.

ومن الغريب أن الموقفين قد تتابعا: منذ الخمسينيات عندما بدأ فك طلاسم المخطوطات، وبدأت نشر بعض الفقرات، قام بعض الخبراء، ومنهم «جون اللجرو» John Allegro، الذى ذكرناه عدة مرات فى هذه الصفحات، بالتنويه إلى الصلة الشديدة الوضوح بين تعاليم «يسوع» والأسينيين. وهاجمت بعض السلطات الكنسية: فإذا ما تم إثبات أن عقيدة «يسوع» سابقة له، فإن ذلك يعنى سحب أية أصالة منه، بل وأكثر من ذلك فإن معناه إلغاء كيانه المنزَّل. ولا تعد الكنيسة آنئذٍ غير فرع نحيل من اليهودية، وهو أمر غير محتمل بالطبع.

وفى البحث المقدم إلى أكاديمية النصوص والآداب، تحت عنوان: ثلاثون عامًا من البحث فى مخطوطات البحر الميت، عام (١٩٧٧م)، أشار السيد «أندريه دوبون – سومر» André Dupont-Sommer السكرتير الدائم لهذه الأكاديمية والحجة الكبرى فى مجال الكتابات الإنجيلية، إلى بعض الحقائق بشىء من المكر قائلاً: «من الواضح أن الازدراء المعلن منذ البداية من بعض رجال اللاهوت قد تم تخطيه ففى فبراير عام (١٩٥١م) رأت إحدى المجلات الدينية أن تحيط قراءها علمًا بأنه: «منذ بضع سنوات قام مؤرخو أصول المسيحية بدراسة شتى أنواع الوثائق التى يمكنها أن تمدنا بالمعلومات حول تاريخ «يسوع» وتعاليمه وأوائل حوارييه. إلاّ أن الوثائق المكتشفة حديثًا لا تضيف شيئًا إلى معلوماتنا حول هذه النقطة.

إن الربط بين أعضاء العهد الجديد (حواريى يسوع) والأسينيين لا يمكن تأكيده حاليًا بشكل قاطع».

لنغض الطرف عن ألفاظ الاحتقار مثل «شتى أنواع الوثائق» فيما يتعلق بمخطوطات البحر الميت. إلاّ أنه فى العام التالى، كما يقول دوبون – سومر فإن نفس المجلة قد نشرت تحت اسم مستعار، مقالاً بمضمون مخالف: «لا توجد هناك أية حاجة تذكر للتنويه لأهمية هذه المخطوطات... فبعض

المسيحيين لن يروا - بلا سعادة وبلا انفعال: أن الاكتشافات الحديثة تسمح لهم بأن يدركوا عن قرب حياة الشعب اليهودى أيام العصر المسيحى»، ويسارع «دوبون - سومر» قائلاً: «يا له من تغيير فى الموقف»! لنغفل تهرب النص الثانى: فالأمر لا يتعلق مطلقًا بأن «يدركوا عن قرب حياة الشعب اليهودى أيام العصر المسيحى»، وإنما رؤية الصلات الحميمة بين تعاليم طائفة اليهود وتعاليم يسوع. وفى عام (١٩٥٧م) قام الآب «يوحنا دانييلو» فى بحثه المذكور آنفا: **مخطوطات البحر الميت وأصول المسيحية** بحسم القضية بجرأة مدهشة قائلاً: إن سيد العدالة يعد واحدًا من الذين مهدوا لمجىء المسيح قبل يوحنا المعمدان» (صفحة ٨١).

وبالطبع لقد امتنع الأب المبجل عن تحديد شخصية سيد العدالة الذى يبجله الأسينيون وربطه بيسوع، وإن جعل منه واحدًا من سابقيه. فإذا ما كان سيد العدالة - إذن - أحد سابقى يسوع، فإن ذلك يعنى أن هرقل وبريس Prisse وأدونيس كانوا أيضًا من سابقيه، كما سأوضحه فى الفصل التالى.

إن الحقيقة التى ترتسم بوضوح شديد، بعد نصف قرن، هى: أن الأسينيين كان لهم أثرهم على «يسوع»، لكنهم لم يكونوا أوائل المسيحيين: إنهم يهود بالقطع، حتى وإن كانوا يمثلون شكلاً متأخرًا من اليهودية: ومثلما نقول ذا طابع «هللينى» عندما نشير إلى الثقافة اليونانية المتأخرة، فيمكن أن نطلق عليهم لفظة: «متهودين». إلاّ أنهم يظلون يهودًا كلية، أى إن «يسوع» قد تم تكوينه جزئيًا على يد اليهود. وتلك هى «نواة المشكلة» على غرار ما نقوله فى لغة أواخر الثمانينيات. أى إنه لا يوجد أى تنزيل أو تبشير مسبق، وإنما هو مجرد تسلسل تاريخى.

إنه من غير الممكن دراسة «يسوع» بعيدًا عن الإطار التاريخى وبالتحديد بعيدًا عن إطار تاريخى يهودى.

ولقد بدت لى كبرى المشاكل منذ أولى لحظات أبحاثى وهى: تحليل

«يسوع» من وجهتىْ نظر مختلفتين ومتتاليتين. وإذا ما أردنا خفض أكبر نسبة من احتمالات الخطأ فى إعادة تكوين شخصيته، كان لابد من تناول المصادر من زاوية التحليل التاريخى المعاصر، وكما فرضته على نفسى، من زاوية حساسيات العصر.

لقد كانت هذه الصعوبة تتكشف أكثر عند تناول الفقرات الخوارقية التى تتناقلها المصادر، وخاصة تلك المصادر المعتمدة والتى كانت أكثر ما رجعت إليه. فمن وجهة النظر المعاصرة المعتمدة على الروح العلمانية للواقع، وإذا لم ينسقّ المرء خلف خرافات طفولية، فإن هذه الفقرات تبدو شديدة السذاجة والتناقض ولابد من استبعادها.

إن القارئ المعاصر الذى يقرأ فى أناجيل يسوع مثلاً: انه قد أصبح مضيئًا يتلقى وصف هذا التحول بنفس الحذر لانبهار شاؤول فى الطريق إلى دمشق. إنها فى نظره حليات وخرافات قد أضافها كاتبو الأناجيل لجعلها أكثر جذبًا.

وذلك صحيح إلى حد ما، وينكشف التزوير بوضوح مريك، عندما نقرأ معظم الأناجيل المحتجبة.

إن الأناجيل المعتمدة عبارة عن أساطير منمقة تتزايد خرافتها كلما تباعد كُتّابها زمنيًا عن «يسوع». لكن من ناحية أخرى، من الخطأ إنكار حقيقة بعض الظواهر المادية للتصوف. فلدى شخصيات فى مثل قامة يسوع لا يوجد أى مجال للشك فى أن بعض «الخوارق» قد حدثت مثل تلك التى تم إثباتها لدى متصوفة فترات تالية. إن المؤرخ الدينى «مرسيا إلياد» عمد إلى حالات من «تجارب النور» قام بتحليلها أو شعر بها بعض علماء النفس المعاصرين.

وفى آليتهما التعويذية فإن قراءة الأناجيل أو ترتيلها الحديث لا يحبذ التحليل النقدى مطلقًا. أو على الأقل، فإن هذا التحليل لا يمنح إلاّ لبعض

أولئك المؤلفين الذين يجيد أسلوبهم العلمى مواربة غرضهم، والذين لا يتناولون سوى نقاط محدودة، ولا يغيرون شيئًا يذكر فى القراءة العادية للأناجيل، وكما سنرى فى هذا الكتاب، فإن التوضيح المزدوج يسمح بمنح هذه القراءة إيضاحًا شديد الاختلاف فى الكثير من النقاط.

وبالطبع، فإن مثل هذا العمل سيدفع القارئ إلى أن يتساءل عن شهاداتى العلمية كباحث إنجيلى. وأكررها ثانية: إننى لا أمتلك سوى أكثر من ثلاثين عامًا من الممارسة فى فك طلاسم هذه النصوص العلمية و«ترجمتها» إلى لغة سهلة لأى فرد مزود بشىء من الثقافة؛ لذلك استغرق منى هذا البحث كل ذلك الزمن.

إن النظرية التى مؤداها رفض أية قراءة نقدية للأناجيل وكافة النصوص الملحقة بها لأى فرد لم يقم بدراسات لغوية أو خطية تعد دون جدوى بل وقحة.. وإذا ما خشى أحد من أن أكون قد أخطأت، فيمكن الرجوع إلى نفس المراجع التفصيلية حول أكثر النقاط صعوبة أو جدلاً. فإن قوة حجتها ستبدد أية شكوك لتخيلات أو سوء تفسير فى عمل هذا المبحث.

وأضيف أن الهوامش الموجودة فى هذا الجزء الثانى لم تستخدم كلها فى كتابة «**الرجل الذى أصبح الله**»، وكثير منها قد ساعد فى بناء نسق النقد الذى اعتمدت عليه، كما تم استخدام غيرها فى الفصول التى تم استبعادها من باب الاختصار. ورغم ذلك، فلعل قارئ هذا العمل يجد فيه بعض الجوانب الهامة».

وهذا الجزء يمثل التفاصيل الموجودة فى حوالى خمسين صفحة من كتاب صدر عام (١٩٨٩م)، وعدد صفحاته ثلاثمائة وثلاثون صحيفة، كلها مليئة بالمقارنات والأدلة وكشف حقائق جديدة جد مثيرة، لكنها تخرج عن إطار هذا البحث إلا أنها تكشف بالقطع أن الأناجيل الحالية ليست منزلة كما يحاولون فرضها على الأتباع وعلى العالم أجمع..

الفصل الرابع

أهـــداف التحـــريـف

أهداف التحريف

«لقد تخلى مفسرو النصوص الدينية فى العصر الحديث عن النظرية القائلة بالوحى والتى تجعل من الكتاب المقدس كتابًا منزلاً أملاه الله كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على الناس.. فالنقد التاريخى لم يظهر قبل عصر النهضة: وكان لابد من الاعتراف بأن موسى لم يكن بقادر على وصف وفاته أو أن يقدّم كشفًا بملوك إيدوم، مثلما هو وارد فى سفر التكوين (٣٦: ٣١)، وحتى من قبل أن توجد ملوك فى إسرائيل»!! (ذلك هو ما نطالعه فى (موسوعة بورادس) Encyclopédie Bordas فى الجزء الثانى الخاص بالفلسفة والديانات، تحت عنوان «مشاكل النقد والتاريخ» صفحة ٢٢١).

إلاّ أن التحريف لا يتعلق بموسى وحده، بل ولا بالعهد القديم فحسب، بل لقد امتدت الأيدى المتعصبة بالكتاب المقدس بعهديه - وإن كان نصيب العهد الجديد من التحريف والاستخفاف أكبر وأعتى.

وقد قام التيار المتعصب طوال القرون الماضية بفرض فكرة بعينها أن تلك النصوص منزلة، على الرغم من كل ما أحدثته فيها من تحريف، مستعينًا بالتعسف والتعتيم لنسج صورة للعقيدة المسيحية وفقًا لهواه وأغراضه.. كما قام فى نفس الوقت بعملية تحريف وتعتيم أخرى، وإن كانت مواكبة لكنها فى خط مغاير، ترمى إلى استبعاد التبشير بسيدنا محمد ﷺ، ومحاربته حتى قبل أن يولد..

وذلك بغلق باب النبوة واعتبار السيد المسيح آخر الأنبياء.. وهذان الخطان هما ما سنتناوله بشيء من التفصيل في هذا البحث.

ومن المسلَّم به أنه ما من إنسان يقرأ الكتاب المقدس بعهديه، وخاصة الأناجيل الأربعة تباعًا إلا ويصاب بدهشة من تلك الفجوات والمتناقضات بين رواياتها، ومن عدم مصداقية الأحداث ذاتها، أو من مقارنة الأحداث بعضها ببعض.. وكم تزداد الدهشة عند مقارنتها بالأناجيل المحتجبة أو المستبعدة، بل وتصل الدهشة إلى ذروتها حينما ترى أن هذه الخلافات تتعلق حتى بتفاصيل ووقائع تتصل بأحداث حياة السيد المسيح وأقواله ووفاته، أى بمن يمثل كيان العقيدة وجوهرها!.. الأمر الذى كان من البديهى أن يحظى باهتمام من تناولوا هذه النصوص لفحصها وإعادة دراستها..

ومن ناحية أخرى، فما من إنسان يقرأ هذه الأناجيل الرسمية او المعتمدة - كما يسمونها - إلاّ ويخرج بالعديد من الأسئلة التى تظل عالقة بلا إجابة، من قبيل: ما الذى حدث ليسوع من سن الثانية عشرة إلى سن الثلاثين؟ أين إنجيل السيد المسيح؟ وإنجيل بولس؟ ومن هم أولئك الذين يطلق عليهم إخوة المسيح؟ ولم كل هذا التضارب فى الأفعال والوقائع والأقوال؟! بل إن الإنجيل الواحد يتناقض فى رواية الحديث الواحد فى السفر الواحد بأقوال الشخص الواحد! وذلك ما نطالعه فى سفر أعمال الرسل عندما كان شاؤول بطرس الرسول فى الطريق بصحبة آخرين، متجهًا إلى دمشق، وسمع صوتًا يناديه فقال: «وأما الرجال المسافرون معه **فوقفوا صامتين** يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدًا» (٩:٧)، ثم نراه يقول عن نفس الوقعة: «والذين كانوا معى نظروا النور وارتعبوا **ولكنهم لم يسمعوا** صوت الذى كلمنى» (٢٢:٩).

وتزداد التساؤلات حيرة وإبهامًا عندما يتناول القارئ تاريخ العهد الجديد بالدراسة ويعلم أن هناك فى الأصل - نصين أساسيين عن اللغة

اليونانية، أحدهما باللغة السريانية، وهو الأقدم، والآخر باللغة اللاتينية. والكم الهائل من المراجع المتعلقة بدراسة هاتين النسختين يثير حيرة أكبر المؤرخين وأبرعهم على حد قول جمهرة من الباحثين.

فالواضح من العهد الجديد أن السيد المسيح كان له إنجيلٌ يبشر به، وهو ما نراه فى العديد من الآيات نذكر منها «قد أكملت التبشير **بإنجيل المسيح**» (بولس إلى أهل رومية ١٩: ١٥)، ثم «فى ملء بركة **إنجيل المسيح**» (رومية ١٥: ٢٩)، وما يقوله بولس إلى أهل غلاطية: «إنى أتعجب أنكم تتقلون هكذا سريعًا من الذى دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعجونكم ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح» (١: ٦-٧). والمعروف يقينًا أن الأناجيل الأربعة المعتمدة لم تكن مكتوبة عند كتابة رسائل أعمال الرسل.. ولا نملك إلاّ أن نتساءل أين ذلك الإنجيل الأول «المنزَّل» الذى كان يبشر به المسيح ﷺ؟ وأين إنجيل بولس؟ بما أنه يقول: «فى اليوم الذى فيه يدين الله سرائر الناس حسب إنجيلى بسوع المسيح» (رومية ٢: ١٦) فقد كان يكرز بإنجيل السيد المسيح ثم أخذ يكرز بإنجيله.

بل والواضح من قول بولس إلى أهل غلاطية (١: ٦-٧) الوارد فى الفقرة السابقة أن الخلافات والتلاعب بالأناجيل قد بدأ فور وفاة السيد المسيح، إذ أن بولس يلومهم على سرعة تنقلهم من إنجيل لآخر..

ومن ناحية أخرى، فمن المعروف أن كنيسة روما طوال القرون الأربعة الأولى لم يكن لديها أى نص دينى باللغة اللاتينية، وإنما كانت نصوصها باليونانية، وقبل مجمع نيقية الأول، المنعقد عام ٣٢٥ ميلادية، لم تكن أجزاء العهد الجديد قد استقرت بعد بشكلها الحالى، وكان هناك العديد من النصوص التى يتداولها المسيحيون ويعتبرونها مقدسة. إلاّ أن هذا المجمع قد استبعدها من ضمن ما استبعد وحرّف من نصوص..

وبعد انعقاد هذا المجمع، تمت ترجمة نصوص العهد الجديد من اللغة

اليونانية فى مدينة أنطاكية - ولم تكن هذه المدينة مركز اللغة السريانية، وإنما مدينة أديسة، كما كانت اللغة الآرامية هى اللغة التى يستخدمها المسيحيون الأوائل فى قداساتهم لأنها كانت اللغة الدارجة التى يستخدمها اليهود وعامة سكان المنطقة. وكان من الأفضل والمتاح لهم جميعًا أن يقرأوا ويصلوا باللغة المتداولة بينهم وليس باللغة اليونانية.

وما من كنيسة من الكنائس فى انطاكية أو اديسة أو بيزنطة أو حتى روما كانت تمتلك كل الأسفار الحالية أو حتى الأناجيل الأربعة قبل مجمع نيقية الأول. كما أن «النص السريانى لم يكن يتضمن ما يطلق عليه «أساسى» أو «كلمات أساسية»، تلك الكلمات الخاصة بالعقيدة كالقربان والتعميد والثالوث وآخر اثنتى عشرة آية من الإصحاح السادس عشر لإنجيل مرقس غير موجودة فى الأصل اليونانى القديم وأن الجزء المعروف باسم «صلاة الرب» (متى ٦ : ٩ ولوقا ١١ : ٢) غير موجود فى «إنجيل مرقس». وذلك ما يؤكده الأسقف بنيامين كلدانى المولود عام (١٨٦٧) والذى اعتنق الإسلام عام (١٩٠٤) واتخذ اسم عبدالأحد داود، وكرس كل كتاباته للتعريف بما تم تحريفه، ومن أهم مؤلفاته «محمد فى الإنجيل» الذى استشهدنا منه بالنص السابق (وارد فى صفحة ١٤٤).

ولا شك فى أن محاولة التوفيق بين كل ذلك الكم المتراكم من المعطيات المتداخلة المحرفة وفقًا لمتطلبات العصر وأحداثه السياسية والاجتماعية الناجمة عن بنيات متعددة، لمذاهب تشعبت وتاهت فروعها فى طيات جذورها، قد أدى إلى طمس معالم الكثير من الحقائق.. ورغم ذلك، فهناك العديد من التساؤلات التى تفرض نفسها، نذكر منها على سبيل المثال: هل من الممكن الا يكون للسيد المسيح وحوارييه أى نص أصلى باللغة التى كانوا يتحدثونها، خاصة وأننا رأينا إشارات متعددة لها؟ وإذا ما كان الرد بالإيجاب ـ ونحسبه كذلك ـ ترى ما هو مصير هذا النص ومن أضاعه أو أخفاه؟! لماذا

لم تحتفظ الكنيسة بالمخطوط الأصلى للإنجيل أو حتى بترجمته الأولى؟! ومن الملفت للنظر أو الأدعى إلى التساؤل: لماذا قام كل الرسل ـ وكلهم كانوا من اليهود ـ بعدم استخدام لغتهم وإنما كتبوا جميعًا باللغة اليونانية؟! ترى هل تعلموا هذه اللغة لكتابة الأناجيل؟ فمن غير الطبيعى أو المنطقى أن تكون كل الكتابات المقدسة فى العهد الجديد قد كتبت باليونانية من أجل اليهود الذين فى الشتات، وكان عليهم اعتناق الديانة الجديدة، ولا يكتب نص واحد من أجل يهود فلسطين – خاصة أن أورشليم كانت آنذاك مركزًا للمسيحية، العقيدة الجديدة، كما أن يعقوب «أخو الرب» كان مقيمًا بها (غلاطية ١ : ١٩) كما أنه كان رئيسًا للكنيسة آنذاك!!

وهنا يؤكد عبدالأحد داود قائلاً: «إنه لمجهود ضائع، لا طائل منه، أن نحاول العثور على أية نبوءة أو كتابة أو أية رسالة قالها يسوع المسيح فى لغته الأم. ولا بد من اعتبار مجمع نيقية الأول مسئولاً إلى الأبد عن هذا الضياع الإجرامى للنص الأصلى للإنجيل فى لغته الآرامية» (المرجع السابق).

ومما تؤكده المراجع الأجنبية والعربية أنه منذ مجمع نيقية الأول (٣٢٥م) وحتى مجمع لاتران الرابع (١٢١٥م) كان على فئة المتعصبين أن يتفننوا فى اختلاق الحلول حول ما أطلقوا عليه الهرطقة الآريوسية، والمعارك الدائرة حول تاريخ عيد الفصح وطبيعتى يسوع، وثنائية إرادته، إلى جانب ما اعتبروه أخطاء أورجنوس Origène، وخلافات أخرى لا مجال لذكرها وإن كان كل الغرض منها استبعاد أى ارتباط للمسيحية بأية عقيدة أخرى.. أى استبعاد أية صلة باليهودية، على الرغم مما قاله السيد المسيح: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس او الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (متّى ٥ : ١٧)، واستبعاد أى أثر للديانات الأخرى السابقة لها وخاصة الديانة المصرية القديمة التى تبدو حميمة الصلة، ولا يسع المجال هنا لتناولها؛ واستبعاد أية صلة بجماعة الأسينيين الذين أثبتت الاكتشافات الحديثة لمخطوطات قمران

انتماء السيد المسيح إليهم. الأمر الذى يؤكد أن هناك اتصالاً بين العقائد الأخرى السابقة. كما تثبت أنه نبى من الأنبياء وليس بإله كما لقّبوه فيما بعد - على الرغم مما هو وارد بالأناجيل ومنها: «يسوع الناصرى الذى كان إنسانًا نبيًا مقتدرًا فى الفعل والقول أمام الله وأمام جميع الشعب» (لوقا ٢٤ : ١٩). وإن كان هذا ليس بجديد فكثيرًا ما رددها بنفسه قائلاً: «ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله» (مرقس ١٠ : ٨)، «أبى أعظم منى» (يوحنا ١٤ : ٢٨) والأهم من ذلك كله، كان المقصود من عمليات التحريف هذه استبعاد أية إشارة تدل على مجىء سيدنا محمد ﷺ.

والجدير بالذكر هنا، ذلك التناقض الصارخ فى عملية استبعاد السيد المسيح عن أصله اليهودى، وفى نفس الوقت محاولة تلك الأيدى العابثة ذاتها لتقديمه من خلال هذه الأناجيل المعتمدة على أنه خليفة أنبياء العهد القديم، وأنه آخر المرسلين، ثم يقومون بتأليهه ليقفلوا باب النبوة نهائيًا فى وجه محمد ﷺ وهو ما سنوضحه فيما بعد، إذ نؤثر أن تكون لنا هنا وقفة حول الختان وأهميته كمثال صارخ لتحريف بدأ، وافتعال نُسق متعسفة لنقض العهد القديم الذى أتى السيد المسيح ليتممه.

فالختان لا يمثل طقسًا مثلما كان عندالمصريين القدماء حيث كان مرتبطًا بالنضج والزواج، وذلك ما يصادفه موسى عند وصوله أرض مصر (خروج ٤ : ٢٤ - ٢٦)، وإنما أصبح يمثل العهد الذى قطعه الله على سيدنا إبراهيم إذ قال: «هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر فتختنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذلك فى أجيالكم. وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يختن ختانًا، وليد بيتك والمبتاع بفضتك. فيكون عهدى فى لحمكم عهدًا أبديًا. وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها. إنه قد نكث عهدى» (تكوين ١٧ : ١٠-١٤).

ثم نقرأ فى نفس الإصحاح: «فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضة كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لحم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله. وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته. وكان إسماعيل(*) ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته فى ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم ابنه. وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه» (تكوين ١٧: ٢٣-٢٧).

ومن الغريب أن نرى بطرس الرسول يستبعد إسماعيل تمامًا - أو يوضع الاستبعاد على لسانه - إذ نقرأ: «ولم يعطه فيها ميراثًا ولا وطأة قدم ولكن وعد أن يُعطيه ملكًا له ولنسله من بعده ولم يكن له بعد ولد.. وأعطاه عهد الختان وهكذا إسحاق وختنه فى اليوم الثامن»! (أعمال الرسل ٧: ٥-٨). وقد رأينا للتو أن العهد تم مع إبراهيم وابنه إسماعيل البالغ من العمر ثلاثة عشر عامًا ولم يكن إسحاق قد ولد بعد!

ولا تتوقف أهمية الختان عند كونها تمثل ذلك العهد وإنما ترتبط بعيد الفصح وتمثل جزءًا من الشريعة، إذ «قال الرب لموسى وهرون هذه فريضة الفصح. كل ابن غريب لا يأكل منه. ولكن كل عبد رجل مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه. النزيل والأجير لا يأكلان منه... وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحًا للرب فليختن منه كل ذكر ثم يتقدم ليصنعه. فيكون كمولود الأرض. وأما كل أغلف فلا يأكل منه تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنزيل النازل بينكم» (خروج ١٢: ٤٣-٤٩). وفى سفر اللاويين يكلم الرب موسى قائلاً: «إذا حبلت امرأة وولدت ذكرًا... فى اليوم الثامن يختن لحم غرلته» (١٢: ٢-٣).

وفى يشوع توجد آيات أخرى تدل هى أيضًا على أهمية الختان: «فى

(*) لم يكن إسحاق قد ولد بعد لذلك لم يرد ذكره، الأمر الذى يثبت قطعًا أن إسماعيل هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم.

ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لنفسك سكاكين من صوان[*] وعد فاختن بنى إسرائيل ثانية. فصنع يشوع سكاكين من صوان وختن بنى إسرائيل فى تل القلف.. وكان بعدما انتهى جميع الشعب من الختان أنهم أقاموا فى أماكنهم فى المحلة حتى برئوا. وقال الرب ليشوع اليوم قد دحرجت عنكم عار مصر فدعى باسم ذلك المكان الجليل إلى هذا اليوم» (٥:٢-٩). أى أن منطقة الجليل هذه تمثل ذكرى تجديد العهد وتطبيق الشريعة مثلما ورد فى الآيات السابقة. بل ها هو الختان يأخذ معنى رمزيًا فى «أرمياء»، إذ قال الرب لرجال يهوذا ولأورشليم: «اختتنوا للرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهوذا وسكان أورشليم لئلا يخرج كَنَار غيظى فيحرق وليس من يطفىء بسبب شر أعمالكم» (٤ : ٣-٤).

وفى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية نراه يعقد مقارنة بين الختان بالإيمان والغرلة بالإيمان وينتهى إلى أنه أخذ علامة الختان ختمًا لبر الإيمان» (٤ : ١١).. ولا غرابة فى ذلك إذ أن السيد المسيح قد ختن فى اليوم الثامن: «لما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سُمى يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حُبل به فى البطن» (لوقا ٢ : ٢١). بل وتقول بعض المراجع إنه منذ لحظة ختانه هذه اعتبر أنه النور الذى سيضىء الأمم» F.Comte: **Les Livres Sacrés** صفحة ٣٥).

وهنا لا نملك إلا أن نتساءل كيف يكون الختان بهذا المعنى الحيوى بالنسبة للمسيحية، إذ يمثل العهد الذى قطعه الرب على سيدنا إبراهيم وابنه البكر إسماعيل، كما يمثل شريعته أو على الأقل جزءًا منها فالدم المنبثق من الجرح هو رمز الارتباط، ثم يقوم أحد الحواريين باستبعاده أو باستبداله بطقوس أخرى؟! ولا داعى للقول إنه كان سائدًا ومعمولاً به بعد وفاة السيد المسيح بدليل أن بولس الرسول اعتبره «ختمًا لبر الإيمان» ثم قام بعد ذلك

(*) وهى نفس السكاكين التى كان يستخدمها قدماء المصريين.

بإلغائه واستبداله بالتعميد (أعمال الرسل ١١: ١- ١٨) ليصبح من التعديلات الجديدة التى أجراها - أو أجرتها تلك الأيدى - لاستبعاد ارتباطها باليهودية؟! فها هو بولس يقول لأهل غلاطية: «ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئًا. لكن أشهد أيضًا لكل إنسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس»!.. أم لعله قام بذلك لسرعة وسهولة استقطاب الناس إلى المسيحية إذ كان الختان يمثل عثرة بالنسبة للبعض.

ولنتناول هنا بعض نماذج من عمليات التحريف التى أصبحت تغص بها المراجع الأجنبية والعربية، لندلل فحسب على عمق الخلط والبلبلة التى تصيب قارئها، فقد أدى العديد من هذه التحريفات إلى اختلافات فى أمور ما كان يجب الاختلاف فيها إن كانت صادقة منزلة، من قبيل الاختلاف حول تاريخ مولد يسوع: هل هو فى العام التاسع أو السابع قبل الميلاد، أم فى العام السادس الميلادى؟.. واختلاف فى اليوم إذ نجد أنه وُلد فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر، وفى السابع من شهر يناير، وفى الخامس عشر من شهر إبريل!.. وكذلك الاختلاف الجلىّ فى تاريخ صَلْبه بناء على اختلاف فى تاريخ احتفال السيد المسيح بعيد الفصح.. فهل احتفل به يوم الأربعاء كما هو واضح فى إنجيل يوحنا (١٣: ١-٥)، الأمر الذى يربطه بتقاليد الأسينيين، أم احتفل به يوم الجمعة، وهو من ناحية يربطه باليهود، ومن ناحية أخرى لا يستقيم وبقية الأحداث كالقبض عليه.. إلخ.

بل تقول الأناجيل يسوع الناصرى أو يسوع الناصرة وإن كان كل من متّى ولوقا ويوحنا يقول إنه ولد فى بيت لحم! ومن المعروف أنه ما من نص يهودى قديم يذكر مدينة الناصرة قبل القرن الثانى الميلادى! (موسوعة بورادس).

وها نحن نرى مزيدًا من الاختلاف فى نَسَب السيد المسيح أو فى «شجرة العائلة» كما يقولون حديثًا.. ففى الإصحاح الأول من إنجيل متّى نجد نسبه يتصاعد إلى إبراهيم الخليل عبر تسعة وثلاثين أبًا، بينما نجدهم فى

الإصحاح الثالث من إنجيل لوقا نيفًا وخمسين أبًا!!.. بل والغريب أن نقرأ فى إنجيل يوحنا: «وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو» (٧: ٢٧)!..

وهناك مسائل عقيدية - ليس لنا أن نقطع فيها برأى - حول اختلاف طبيعة يسوع وثنائيتها، وثنائية إرادته، وإن كنا قد أوضحنا فى بحث الدين والدولة كيف تم نسجها فى المجامع الأولى، وأنها غير واردة فى الأناجيل الأربعة.. أما الاختلافات الجذرية حول تنقلاته أثناء فترة تبشيره المحددة بثلاث سنوات فتدعو للغرابة.. وقد أوضحها ج. ميساديية فى أربع خرائط وفقًا لما ورد بكل إنجيل من الأناجيل الأربعة (راجع الجزء الثانى من كتابه، صفحة ١٥١ - ١٥٤) وهناك أيضًا اختلافات حول عدد الحواريين الذى يتأرجح فيما بين اثنى عشر وأربعة عشر - وإن كان الاتفاق يدور حول أحد عشر اسمًا منهم!! ومن المعروف أن أول رئيس للكنيسة هو يعقوب الحلفى، وفقًا لإنجيل توما وليس بطرس كما يقول متّى (١٦: ١٧-١٩) - خاصة وأنه وفقًا لإنجيل مرقس إن السيد المسيح يقول لبطرس: «اذهب عنى يا شيطان، لأنك لا تهتم بما لله ولكن بما للناس» (٨: ٣٣)!! وهو الذى أنكر يسوع ثلاث مرات، فكيف لمثل هذا الإنسان الشيطان أن يكون رئيسًا أو مؤسسًا للكنيسة؟!

ووفقًا لإنجيل يوحنا فإن توما كان يشك فى أن الشخص الذى بُعث بعد الصلب هو يسوع (يوحنا ٢٠: ٢٤-٤٥)، كما أن يوحنا يوضح أنه بعد ذلك بأسبوع قام يسوع برجاء توما أن يضع أصابعه فى ندبات جراحه (يوحنا ٢٠: ٢٦-٢٧).. وهى تفاصيل غير واردة فى أناجيل متى ومرقس ولوقا..

ولن نشير هنا إلى التضارب فى المعجزات التى أتى بها يسوع، الأمر الذى يمس ورسالته مما نأباه ونتسامى بقدره عن أمثالها - وإن كشفت دلائل أخرى للتحريف، بل وما كان لمثلها أن توجد، وبخاصة أن الخلط والاختلاف فى تناول أفعاله قد جعلت منه شخصية مشاغبة، غير مكترثة بل نهمة، ذلك أن تحديه للشمائل القديمة ومخالفة الصوم وعدم الالتزام بقدسية يوم

السبت، وهو الذى أتى ليكمل، واختلاطه بأشخاص سيئى السمعة واحتسائه الخمر تعد من الأمور التى لا تليق بقدسيته ﷺ، ومن قبيل ما نسب إليه من قول: «جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون هو ذا الإنسان أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة» (لوقا ٧: ٣٤)، أو أن تقرأ عن لسانه: «أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم» (متّى ٥:٤٤) التى لا تستقيم وقوله: «أما أعدائى أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامى» (لوقا ١٩: ٢٧). بل حتى القسم الذى نطقوا به أثناء العشاء الأخير كل إنجيل يورده بكلمات مغايرة..

وإن كان ما تقدم يعد بمثابة بضعة شذرات تتعلق بمولد وحياة السيد المسيح، فإن الاختلافات والتحريف قد امتدت إلى أواخر أيامه وصلبه ودفنه وبعثه. فبينما يؤكد إنجيل يوحنا على ضرب السيد المسيح وجلده بعد إلقاء القبض عليه، فإن الأناجيل الثلاثة الأخرى لا تذكر شيئًا عن هذه الواقعة. وبخلاف ما يتناقله التراث عن السيد المسيح وحمله صليبه حتى صارت مثلاً، فإن من حمل الصليب ليس السيد المسيح وإنما سمعان (متّى ٧: ٣٢)، سمعان القيروانى والد الإسكندر دروفس (مرقس ١٥: ٢١)، وهما اسمان لم يظهرا فى أى موضع آخر من الأناجيل، بالإضافة إلى أن سمعان هذا الذى حمل الصليب خلف يسوع (لوقا ٢٣: ٢٦) لا يذكره يوحنا مطلقًا فى إنجيله، بل إنه يؤكد أن يسوع «خرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذى يقال له موضع الجمجمة ويقال له بالعبرانية جلجثة» (١٧: ١٩)!!

ويزداد الاختلاف حول لحظة وفاة السيد المسيح كما هى واردة فى الأناجيل الأربعة، وتختلف معها فترة بقائه مصلوبًا وفترة ما بعد الوفاة.. ومنها ذلك الظلام الذى ساد ساعات ثلاثا، خاصة أن إنجيل متى يتحدث عن وقعة لا يمكن لإنسان أن يغفلها لهولها، إذ يقول: «وإذا حجاب الهيكل قد انشق اثنين من فوق إلى أصل. والأرض تزلزلت والصخور تشققت. والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين. وخرجوا من القبور بعد

قيامته ودخلوا المدينة المقدسة وظهروا لكثيرين» (٢٧: ٥١-٥٣)..

وحتى صرخة السيد المسيح، تلك الصرخة التى اختلفوا فى نصها واختلف المؤرخون فى تفسيرها، لا تذكرها كافة الأناجيل، ومن يذكرها منها يوردها باختلاف شديد فى نصها.. ولا تفوتنا هنا الإشارة إلى ضربة الحربة الشهيرة التى أصبحت من السمات المميزة لصورة السيد المسيح فى المتخيل العام، والتى لم يذكرها سوى إنجيل يوحنا (١٩: ٣٤)، بل إن الفنانين التشكيليين القدامى، الذين كانوا يصورون بتوجيه من رجال الدين بعد معركة الأيقونات، قد اختلفوا فى وضعها: فمنهم من يصورها على الجانب الأيمن من صدر السيد المسيح، ومنهم من صورها على الجانب الأيسر!..

ولا داعى لذكر الحرج الناجم عما قاله السيد المسيح نفسه - أو عما وُضع على لسانه - عن فترة بقائه مدفونًا قبل بعثه: «لأنه كما كان يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان فى قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال» (متى ١٢: ٤٠).. والثابت بحساب الأيام والوقائع أنه لم يمض أكثر من ليلة واحدة وفقا لنفس الأناجيل!..

وهنا لابد من الإشارة إلى الاختلاف حتى حول الكفن.. إذ أن الفارق يمتد ما بين ملاءة من الكتان الرفيع إلى شرائط أو لفائف من الكتان على حد قول إنجيل يوحنا، مؤكدًا: «كما لليهود عادة أن يكفنوا» (١٩: ٤٠).. ولا داعى للقول هنا أن عادة لف الجثمان «بلفائف وطيب» هى عادة مصرية قديمة ضرورية لتضميد الفتحات الناتجة عن عملية التحنيط.. أما اليهود، فالمعروف أنهم كانوا لا يمسون الجثة.. اللهم إلا إذا كانت لفائف لتضميد «جراح» السيد المسيح وفقًا لوجهة نظر ج. ميساديبه الذى يؤكد فى كتابه بالأدلة والبراهين أن السيد المسيح لم يمت مصلوبًا ولم يكفن وإنما ضمدت جراحه... وهو ما يتفق وما جاء عنه فى القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧).

بل حتى يهوذا الأسخريوطى اختلفوا فيما وقع له.. ذلك أن إنجيل متّى يقول: «ثم مضى وخنق نفسه» (٥:٢٧).. أما بطرس فى الإصحاح الأول من سفر أعمال الرسل فيقول إنه «سقط على وجهه وانشق من الوسط فأسكبت أحشاؤه كلها» (١٨)!!

ولا نقول شيئًا عن ألوهية السيد المسيح التى يقحمها يوحنا طوال إنجيليه ولا أثر لها فى الأناجيل الأخرى!!؟

وننهى هذا العرض الخاطف لبعض ما تتضمنه الأناجيل الأربعة من اختلاف وتحريف يسىء للأسف فى عديد من مواضعه لقدسية السيد المسيح، بتساؤل جد مبهم، ناجم عن تأكيد ج. ميساديبه بأن «المنبع الأصلى الذى يشار إليه بحرف Q (ويعنى النص الأصلى الذى أخذت عنه الأناجيل الأربعة) لا يتضمن شيئًا عن آلام يسوع» (الجزء الثانى صفحة ٢٥٦)! أى أنها أضيفت فيما بعد.. (ويطلق تعبير «آلام المسيح» على تلك الحقبة التى تتضمن ضرب وجلد وقتل السيد المسيح مصلوبًا)، إذ الجدير بالذكر أن مخطوطات قمران التى تتضمن تراث الأسينيين العقدى لا تكشف فحسب عن تشابه حميم بينها وبين المسيحية، كما أوضحه العديد من الباحثين، ومنهم ديبون - سومير Dupont-Sommer (**الكتابات الأسينية المكتشفة عند البحر الميت، ١٩٧٠**)، وجان دانييلو Jean Daniélou (**مخطوطات البحر الميت، ١٩٩٢**)، وإنما تكشف عن نقطة تستوجب البحث والدراسة، وإن كانت تخرج عن نطاق هذا البحث. ذلك أن معلم الأسينيين الملقب «سيد العدالة» قد تعرض للاضطهاد والجلد ومات مصلوبًا، قبل السيد المسيح بحوالى قرن تقريبًا.

أما فيما يتعلق «بآلام المسيح» غير الواردة فى المنبع الأصلى Q، والتى تختلف الأناجيل حول تفاصيلها، وتمثل نقطة الاختلاف الجوهرية مع ما ورد عنها فى القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧)، فعلى الرغم من كل ما كتب فى هذا الموضوع، سواء أكان مؤيدًا ومفسرًا أم معارضًا،

فلا يسعنا إلا أن نتناوله باقتضاب ولا نتعرض لهذه النقطة إلا بسبب كل ما لحق بها من تحريف وتزييف لا تخطئه العين، ذلك أن موضوع الصلب فى العقيدة المسيحية مرتبط بخطيئة آدم ﷺ، الذى أكل من الشجرة التى حرم الله عليه أن يأكل منها. وبالتالى فإن كل أفراد ذريته إنما يحملون الخطيئة منه. وقد أراد الله أن يتصالح مع الناس على خطيئة آدم وتم ذلك بالفداء وبشروط لا يمكن أن تتوافر فى غير الله الذى تجسد بشرًا من الروح القدس ومريم العذراء، كما يقولون..

وتورد الأناجيل عن عملية القبض على السيد المسيح لصلبه ما يلى: فى إنجيل متّى: «حينئذٍ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذى يُدعى قيافا. وتشاوروا لكى يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه. ولكنهم قالوا ليس فى العيد لئلا يكون شغب من الشعب» (٢٧ : ٣-٥)، وفى إنجيل مرقس: «**وكان رؤساء الكهنة والمجمع كله** يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه» (١٤ : ٥٥)، وفى نفس الإنجيل، فى الإصحاح التالى، سأل بيلاطس الجماهير المطالبة بصلبه قائلاً: «.. وماذا تريدون أن أفعل بالذى تدعونه ملك اليهود.. فصاحوا أيضًا اصلبه. فقال لهم بيلاطس وأى شر عمل. فازدادوا صراخًا اصلبه» (١٥ : ١٢-١٤)؛ وفى إنجيل لوقا: «**وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه**» (١٩ : ٤٧)؛ وفى إنجيل يوحنا: «فجمع رئيس الكهنة والفريسيون مجمعًا وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة وإن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا.

فقال لهم واحد منهم وهو قيافا. كان رئيسًا للكهنة فى تلك السنة: «أنتم لستم تعرفون شيئًا ولا تتكرون أنه خير لنا أن يموت إنسان واحد من الشعب ولا تهلك الأمة كلها.. فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (١١ : ٤٧-٥٣) ويضيف إنجيل متى قائلاً: «فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئًا بل بالحرى يحدث شغب

أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلاً إننى برئ من دم هذا البار. ابصروا أنتم فأجاب جميع الشعب وقالوا دمه علينا وعلى أولادنا» (٢٧ : ٢٤-٢٦).

أى إن رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب والمجمع كله وجماهير الشعب هم جميعًا الذين طالبوا بصلب السيد المسيح، وليس فردًا واحدًا فحسب كما قيل عند تبرئتهم من قتله عام ١٩٦٥. بل لقد تعمد الإسرائيليون قتله مع سبق الإصرار لا لما يبشر به من تعاليم جديدة، وإنما خوفا من الرومان وإرضاء لهم وحفاظًا على موضعهم وأمنهم! أى إن جميع اليهود قد تمسكوا بصلب السيد المسيح لمطلب سياسى واضح وليس لسبب دينى، وأصروا على هذا القتل بكل تحدٍّ آخذين وزر دمه عليهم وعلى أولادهم.

ولا يسعنا إلا أن نورد ما كتبه المستشار منصور عبدالعزيز، نائب رئيس محكمة النقض، وهو يتحدث كرجل قضاء قائلاً: «جريمة قتل كاملة، تلك هى التى ارتكبها اليهود، مع سبق الإصرار الكامل عليها، فمن تآمر للقتل، إلى قبض للقتل، إلى طلب شهود زور للقتل، إلى طلب من الوالى للقتل، إلى إصرار على القتل حين يتردد الوالى، إلى قبول كامل بتحمل عاقبة هذه الجريمة ووزرها ليس عليهم وحدهم وإنما أيضًا على ذريتهم من بعدهم فقالوا إن دمه عليهم وعلى أولادهم.. ومن هنا فالجريمة فى حد ذاتها قائمة وأركانها متوافرة.. والذى لا يمكن الجدل فيه، أنه إذا كانت خطيئة آدم تورث، فمن باب أولى خطيئة اليهود هذه يجب أن تورث، بل إن من الممكن أن نتصور الثانية تورث دون الأولى، أما العكس، فلا وألف لا، فليس لعقل أن يقبل أن خطيئة آدم بأكله من الشجرة التى حرم الله عليه أن يأكل منها بعد أن أغوته حواء فأكل منها، تورث، وأما صلب الإله وقتله وسفك دمه كما يعتقد المسيحيون وبعد أن قبل قتله فى تحد أن يكون دمه عليهم وعلى أولادهم لا تورث، لا وألف لا هنا يقولها كل عاقل وكل منطق» (**دعوة الحق، أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام**).

وأوضحنا عند بداية تناولنا لهذه النقطة أننا لم نتعرض لها إلا لما لحق بها من تزوير وتحريف فى أواخر الستينيات من هذا القرن العشرين وهو الموقف الذى تمخض عنه مجمع الفاتيكان الثانى لتبرئة اليهود من قتل السيد المسيح واعتراف الكرسى البابوى بالكيان الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين المحتلة والمسمى «إسرائيل»!

والكاردينال الألمانى أغسطس بيا، الذى صاغ هذا المشروع هو أيضًا صاحب الإشارة بتعديل ما ورد فى صلاة الأحد من «أن اليهود هو الشعب العاصى»، بل إنه يندفع فى التبرير لتبرئة اليهود من دم السيد المسيح بأن يحمل البشرية جمعاء مسئولية موته.. وما أثقل هذا الحمل الذى حمله للبشرية جميها، فهو «دم الله» كما يعتقدونه... ولم يفت نيافة الكاردينال توضيح أن مثل هذا القرار تم وضعه على أساس «أنه مشكلة دينية بحتة لا علاقة لها بأى مسألة قومية أو سياسية» (**وثائق المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى**)!!

أهناك ضرورة أو مجال للتعليق على مثل هذا التحريف والتزييف التاريخى لما هو ثابت بصريح العبارة فى الأناجيل الأربعة؟! وإن كانت الإشارة واجبة - فى ظننا - للتعليق فحسب على نيافة الكاردينال فيما يتعلق بتحميله جريمة القتل مع سبق الإصرار هذه إلى «البشرية جمعاء».. ترى هل فات نيافته أن البشرية جمعاء لا تتكون من المسيحيين فحسب، أم أنه حكم مسبق بما يتطلع إليه ذلك التيار المتعصب، إذا علمنا أن الإسلام من حيث العدد يمثل الديانة الثانية بعد المسيحية، وهو ما قد يشى أيضًا بما يضمره الغرب المتعصب للإسلام والمسلمين. وذلك ما بثته أيضًا وثائق المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى المنعقد فيما بين ١٩٦٣، ١٩٦٥، فما من صفحة من صفحاته تقريبًا تخلو من إشارة واضحة إلى هذا المخطط وإلى كيفية تنفيذه سواء بالوسائل العلنية أم بالمواربة والتحايل الخفى.. بل ذلك هو المعلن أيضًا فى صفحات الكتاب الدينى الجديد للكاثوليكية!.

وقبل أن ننهى هذه النقطة لا يسعنا إلا أن نورد آخر جزء مما كتبه رجل القضاء المستشار منصور عبدالعزيز: «اليهود عندما ارتكبوا هذه الخطيئة إنما ارتكبوها باعتبارهم اليهود، أو باعتبارهم يمثلون اليهود، فرأس المؤامرة هو قيافا رئيس كهنتهم، والمخططون والمدبرون هم رؤساء كهنتهم والمنفذون هم كل هؤلاء مع شعب اليهود، وإذا كان هناك من يُسأل عنها إذن فهم شعب اليهود فى ذلك الزمان، وإذا كانت هذه الخطيئة تورث فإنما لنسل اليهود من بعدهم، ولهذا لم يكن عبثًا أبدًا أن يشار لليهود على مر الزمان فى صلاة الأحد على أنهم الشعب العاصى، فذلك من صُلب عقيدة المسيحيين وإيمانهم، وبغيره لا تستقيم أبدًا تلك العقيدة عندهم، لأنه إذا كانت جريمة صلب المسيح الذى هو الله فى اعتقادهم، لا تقع على غير من قاموا بها أنفسهم، ولا تورث لشعب اليهود من بعدهم فإنه من باب أولى فإن خطيئة آدم إذا عصى ربه وأكل من الشجرة التى حرم الله عليه أن يأكل منها، هذه الخطيئة من باب أولى لا تورث، ولا يستقيم مجال القول بتوارث هذه دون الأخرى، وإنما الذى يمكن أن يستقيم فى العقل هو العكس كما بيّنا، ولذا، فإن البشر جميعًا من غير المسيحيين لا يمكن بحال أن يقبلوا من أصحاب هذه الوثيقة وممن أقروها القول بأن خطيئة شعب اليهود المتمثلة فى صلبهم المسيح الإله - كما يعتقدون - لا تورث لشعب اليهود من بعدهم، بينما خطيئة آدم هذه تورث ويولد البشر من بعده خطؤه بها، بل يجب أن يرفعوا من باب أولى عن باقى البشر خطيئة آدم أيضًا، فإن فعلوا، فقد التقوا مع الإسلام، وانتهت عقيدة الصلب عندهم، لزوال سببها والغرض منها، وما هم أبدًا بفاعلين، ولذا فليس أمامهم من سبيل، لتلافى هذا التناقض البيّن فى أساس عقيدتهم وديانتهم، إلا بأن يعودوا إلى ما كانوا عليه من تحميل لشعب اليهود فى عهد المسيح وذريتهم من بعدهم، وزر وإثم صلب المسيح الإله كما يعتقدون، فهل يفعلون؟ هنا أعتقد أنه يظل الجانب الذى ادّعى صاحب الوثيقة عدم وجوده بقوله إن المشروع وضع على أساس أنه مشكلة دينية بحتة لا علاقة لها بأية

مسألة قومية أو سياسية، ذلك أنهم إن يفعلوا، فلن يكون ذلك بحال لسبب دينى أو عقيدى كما يدّعى، وإنما - بيقين - لأسباب قومية أو سياسية محضة، وإنما على أى حال فإننا هنا، مسلمين كنا أو مسيحيين، لا يجوز أن نقبل هذه الوثيقة، وبهذه الحجج وحدها فى تقديرى، يجب أن نجابهها ونجابه القائلين بها» (المرجع المذكور آنفًا).

إلا أن عمليات التزييف هذه لم تتوقف.. ففى العشرين من شهر نوفمبر عام ١٩٩٢، نشرت مجلة الإكسبرس L'Express الفرنسية فى موضوع الغلاف نبأ ظهور الطبعة الجديدة لكتاب «التعليم الدينى للكنيسة الكاثوليكية Cathéchisme de L'Eglise Catholique. وكان آخر كتاب للتعليم الدينى يرجع إلى القرن السادس عشر.

ويبدأ كاتب المقال بتوضيح أن مجمع الفاتيكان الثانى لم يكن قد قرر أى شىء بشأن إصدار كتاب جديد للتعاليم الكاثوليكية. بل إنه فى عام ١٩٧٧ وأثناء المجمع المنعقد آنذاك تم استبعاد الفكرة. وخلال مجمع آخر انعقد عام ١٩٨٥ غير الآباء آراءهم. وبين التاريخين كان قد تم تعيين الكاردينال البولندى كارول فويتلا، ليتولى كرسى البابوية تحت اسم يوحنا بولس الثانى.. ولا يتسع المجال هنا لتناول كل الأدوار السياسية التى يقودها نيافته منذ توليه منصبه، كما لا يتسع المجال أيضًا لعرض هذا الكتاب الدينى الجديد الذى يؤكد الدور السياسى الواضح الذى تلعبه الكنيسة فى الدولة.. فعلى حد قول ميشيل لوجرى M. Legris إن هذا النص يحدد الاتجاهات التى يتعين على الحكومات أن تتخذها إن عاجلاً أو آجلاً، سواء أرادت أم لم ترد» (**إكسبرس صفحة ٢٩**).

أما الأمر الذى يعنينا من هذا الكتاب الدينى حاليًا فهو ما يتضمنه من تحريف وتزييف جديد، إذ يصر على اعتبار «أن العهد القديم جزء لا يتجزأ من العهد الجديد لأن فصوله منزلة وتحتفظ بقيمة دائمة إذ أن التحالف

القديم لم ينقضه أحد (صفحة ٣٨).. ومع مراعاة أن أخطاءنا تمس المسيح نفسه، فإن الكنيسة لا تتردد فى تحميل **كافة المسيحيين المسئولية الكبرى فى مقتل يسوع**، تلك المسئولية التى كثيرًا ما أدانوا بها اليهود وحدهم.. بل إن المسئولية التى تقع على المسيحيين أشد وأعظم» (**كتاب التعليم الدينى صفحة ١٣١**)!!؟

والموقف الواضح هو إصرار التيار المتعصب فى الفاتيكان على تبرئة اليهود من دم السيد المسيح، قادة وحكامًا وشعبًا، على الرغم مما تقرؤه فى إنجيل لوقا: «فقام كل جمهورهم وجاؤوا به إلى بيلاطس. وابتدأوا يشتكون عليه قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر» (٢٣: ١-٢). بل وعلى الرغم مما تمتلئ به «أعمال الرسل» من اتهامات صارخة ضد الإسرائيليين، نورد منها ما يقوله بطرس الرسول، رئيس الكنيسة الكاثوليكية: «أيها الرجال الإسرائيليون اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصرى رَجُلٌ قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم تعلمون. هذا أخذتموه مسلمًا بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق بأيدى آثمة صلبتموه وقتلتوه» (أ ٢١: ٢٢)، ثم يقول للإسرائيليين أيضًا: «يسوع الذى سلمتموه أنتم وانكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو حاكم بإطلاقه... ورئيس الحياة قتلتموه» (أ ٣: ١٣ ـ ١٥)، ثم يقول لهم أيضًا: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان... أنتم الآن صرتم مسلّميه وقاتليه» (أ. ٧: ٥١-٥٢).. ولما سمعوا منه هذا القول هجموا عليه وأخرجوه خارج المدينة ورجموه!

وغنى عن القول بأن الحواريين اقرب زمنًا من الأحداث التى عاصروها من القائمين حديثًا على الفاتيكان فى القرن العشرين! وغنى عن التعليق أيضًا قول بطرس عن أن «يسوع الناصرى رَجُلٌ» اى انه حتى ذلك الوقت لم يكن بإله!! وهو ما يتفق أيضًا مع ما قاله لهم السيد المسيح نفسه: «تطلبون

أن تقتلونى وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله»! (يوحنا ٨: ٤٠).

أما التغيير الواضح هذه المرة لهذه النقطة فهو قصر التهمة على «كافة المسيحيين» وليس «على الإنسانية جمعاء» مثلما فى وثيقة ١٩٦٣.. ولا تعليق لنا سوى أنه لم يكن هناك مسيحيون عند وفاة السيد المسيح، وأن اللفظ استخدم لأول مرة فى أنطاكيا فيما بين عامى ٤٥ - ٥٠، أيام كلوديوس سيزار. وذلك ما نقرأه فى أعمال الرسل: «ودعى التلاميذ مسيحيين فى أنطاكيا أولاً» (٦: ١١).. فكيف يمكن تحميل كافة المسيحيين العبء الأكبر فى مقتل السيد المسيح؟!

ولاشك فى أن هذا الكتاب الذى يحدد مسار الحكومات المسيحية وشعوبها سوف يثير العديد من المواقف والصراعات لكل ما يتضمنه من تغيير ومهادنة ليس مع اليهود فحسب، وإنما فى أمور شتى، نذكر منها على سبيل المثال: استبدال عبارة يسوع المسيح «ابن الله» بـ «يسوع الناصرى».. أما عن الكنائس الأرثوذكسية فيقول: «إن ما ينقصها هو جد قليل لتصل إلى الكمال الذى يسمح لها بالانضمام فى قربان الرب» (صفحة ١٨٤)، أى إنها على وشك الانضمام للواء الكاثوليكية المتسلطة. كما تغيرت وجهة نظر الكنيسة بالنسبة للعلوم والمواصفات الاجتماعية لتشمل حتى المنحرفين جنسيًا، إذ يوضح الكتاب الدينى الجديد أنه «**لابد من أن نقبلهم باحترام وتعاطف ورهافة حس**» (صفحة ٤٨٠) واللهم لا تعليق!!

أما الغرض الحقيقى من هذا الكتاب الدينى فهو، بخلاف تبنيه نفس خط المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى، وكما يحدده الأسقف هونوريه Mgr.Honoré: «أنه فى زمن مثل زمننا حيث سوق الأفكار دائمة، وحيث تتأكد **العقائد الدينية**، وحيث ينتشر الخلط، أليس من المهم أن تعلن الكنيسة عن موقفها؟» وهذا الموقف يحدده الكاردينال راتزنجر J.Ratzinger فى حديثه مع جريدة ليموند Le Monde الفرنسية، قائلاً: «مثلما كان الإرهاب

الناجم عن الماركسية يضع يدنا بالأمس على بعض العيوب فى أدائنا الاجتماعى، فإن الإرهاب العدمى اليوم يوضح لنا الطريق الذى يتعين علينا أن نسلكه لنتدبر الأسس اللازمة لعلم أخلاقى وجماعى جديدة (١٩٩٢/١١/١٧).. وغنى عن البيان توضيح المعنى المقصود «**بالعقائد الدينية التى تتأكد» وبهذا «الإرهاب العدمى»، فبعد ضرب الشيوعية لم يعد هناك سوى ضرب الإسلام والمسلمين كما أعلنها أكثر من مسئول فى الغرب، وأكثر من مصدر، حتى صارت على صفحات الجرائد..**

أما عن هذا التحول المتعصب وعن كيفية اختراق معقل البابوية العنيد، فمن المعروف فى العصر الحديث أن الصهيونية المتمركزة فى الولايات المتحدة، والمحركة لها، قد اعتمدت على المسيحيين الأمريكيين لتنفيذ مآربها.. خاصة وأن البابا كان يمثل السلطة العليا، أو الأولى والأخيرة، فى شئون الدنيا واللاهوت.. وأى تغيير أو تعديل لابد وأن يمر عبر البابا «خليفة الله على الأرض» - كما يقولون.. ومن هنا استطاع هرتزل أن يجد مدخله للاحتيال وفقًا لما أورده فى مذكراته: «منذ حوالى عامين أردت أن أجد حلاً للمسألة اليهودية بمساعدة الكنيسة الكاثوليكية على الأقل فى النمسا. أردت التوصل لمقابلة البابا، بالطبع بعد التأكد من تأييد رؤساء الكنيسة النمساوية ومخاطبته بما يلى: ساعدونا ضد المعادين للسامية وأنا أقود حركة كبيرة لدخول اليهود الحر المستقيم فى المسيحية (الجزء الأول، برلين ١٩٣٤)..

وكان المدخل الحديث إلى الفاتيكان هو المجمع المسكونى الثانى، ومناقشته موضوع المركزية وضرورة توسيع مسئوليات كبار رجال الكنيسة فى أماكن تواجدهم، واستجاب البابا بولس السادس لهذه الفكرة وأعلن فى الخطاب الذى ألقاه فى المجمع فى سبتمبر ١٩٦٣ أنه لا يعارض فى أن يشترك معه بعض ممثلى الكنيسة فى ممارسة السلطات العليا... وفى الدورة النهائية لهذا المؤتمر، أى فى سبتمبر ١٩٦٥ أعلن إنشاء مجلس محلى من

البطاركة لمعاونته فى شئون الكنيسة - وكان من بينهم أساقفة أمريكيون.. وبذلك تمخض المؤتمر - على الرغم من كل الآيات الواردة فى العهد الجديد والتى تكشف وتثبت تآمر اليهود وإصرارهم على قتله، قادة وحكامًا وشعبًا مع سبق الإصرار - بل وعلى الرغم من كل الآيات التى فى الكتاب المقدس بعهديه والتى تتهم هؤلاء اليهود، «المرائين» الذين انحرفوا بالعقيدة وحادوا عنها، والذين قال عنهم السيد المسيح: «لم أرسل إلاّ إلى خراف بنى إسرائيل الضالة» (متى ١٥ : ٢٤).. محملين فى قرار تبرئتهم هذا وزر قتله على البشرية جمعاء.. أو حتى على المسيحيين وحدهم كما سبق وأشرنا، إذ يأتون بعد سبعة عشر عامًا، يعدلون هذا القرار ثانية فى الكتاب الدينى الجديد الذى ظهر فى الأسواق الغربية فى ١٨ نوفمبر ١٩٩٢، والذى أعلن فيه: «أن الكنيسة لا تتردد فى تحميل كافة المسيحيين المسئولية الكبرى فى مقتل يسوع، تلك المسئولية التى كثيرًا ما أدانوا بها اليهود وحدهم» (**الكتاب الدينى صفحة ١٣١**).. والأكثر من هذا أنه تم استبدال تعبير «شعب إسرائيل» الذى لا يشار إليهم بتعبير سواه فى الكتاب المقدس بعهديه، استبدلوه بتعبير «أمة إسرائيل».. مما يعنى اعترافًا رسميًا ودينيًا بالكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة!!

وقبل الانتقال إلى الخط الثانى من التزييف والذى يرمى إلى استبعاد كل ما يتعلق بالتنبؤ بسيدنا محمد ﷺ ومحاربته حتى قبل أن يولد، وتناول ذلك الاستبعاد المواكب لعملية تزييف النصوص الدينية نفسها أو تحريف معناها، وهو ما أوضحنا طرفًا منه فى الصفحات السابقة. لابد لنا من الإشارة بشكل خاطف إلى تلك الأناجيل المستبعدة والتى يطلقون عليها «محتجبة» أو «سرية».. ولا نظنه غريبًا أن يثار هذا الأمر منذ حقب باكرة.

إذ يقول روفين Rufin (٣٢٥ - ٣٩٥). رجل السياسة الرومانى فى القرن الرابع ووزير تيودور: «إن الأناجيل التى يحجبونها عبارة عن نصوص لا يود الآباء أن يقرأها الجميع.. ومنها إنجيل «أفعال بولس» الذى ظهر فى

أواخر القرن الثانى وتم استبعاده، وخاصة إنجيل القديس بطرس، زعيم الحواريين، وكان من أوائل الأناجيل المستبعدة لاحتوائه على ما ترى الكنيسة أنه مخالف للحقيقة من حيث إن المسيح لم يتجسد بالفعل بعد وفاته وإنما ظهر على هيئة شكل إنسانى «أى أنه ظهر كروح (ف. اميو F.Amiot **الأناجيل المحتجبة**). ولا يسعنا هنا إلا أن نورد قول السيد المسيح لحوارييه: «ما بالكم مضطربين ولماذا تخطر أفكار فى قلوبكم انظروا يدىّ ورجلىّ إنى أنا هو جسونى وانظرو الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى. وبينما هم غير مصدقين من الفرح ويتعجبون قال لهم أعندكم ههنا طعام» (لوقا ٢٤ : ٣٨-٤١).. الأمر الذى يشير إلى اضطراب فى القول حيث إن الروح تختلف عن الجسد وأنها من مادة أثيرية.

ومن الغريب أن هذه الأناجيل المستبعدة تتضمن الكثير من الوقائع التى اصبحت تمثل جزءًا من الطقوس التعبدية فى الكنيسة ولا أثر لها فى أى واحد من الأناجيل الرسمية المعتمدة، وذلك مثل صعود السيدة العذراء «أم الله» إلى السماء والاحتفال به يوم أول نوفمبر، والاحتفال بالقديس يواكيم، والدها فى السادس عشر من شهر أغسطس، والاحتفال بالقديسة آن، والدتها، فى السادس والعشرين من شهر يوليو، وكثير غيرها من الوقائع التى لا وجود لها إلاّ فى الأناجيل المحتجبة.. وخاصة كل ما يتعلق بالقديس أندريا، الحوارى وشقيق القديس بطرس «الذى استشهد وهو يحاول منع الجماهير من تسليم المسيح وانطلق على الصليب بالفعل وظل يحتضر لمدة يومين لم يكف خلالها عن تكرار عقيدة المسيح - ولا أثر له فى «العهد الجديد» (ف. أميوا **الأناجيل المحتجبة**). ولا شك فى أن هذا القول يمثل مُعْطًى جديرًا بالبحث والدراسة، لذلك يتساءل المؤلف «كيف يمكن إنكار أهمية هذه الأناجيل؟.. إن مجرد معرفة أن بعض كبار كتاب المسيحية القدامى من أمثال القديس إيرينى وترتوليان، والقديس يوحنا كريزستوم قد تولوا أمر مهاجمتها

فى كتاباتهم المتعددة لدليل واضح على أهمية هذه الأناجيل».

وكان أوريجنوس (١٨٦-٢٥٤) وهو من كبار علماء اللاهوت فى القرن الثالث قد أوضح أن إنجيل بطرس وإصحاح يعقوب فى غاية الأهمية بالنسبة لفهم قضية أشقاء السيد المسيح، وأنهم أنصاف أشقاء، أى من زيجة سابقة للقديس يوسف النجار قبل خطبته للسيدة العذراء.. لذلك اضطهده المتعصبون وخاصة لسلاطة لسانه.. وفى مدينة أفسوس كانت عبادة السيدة مريم قد أدخلت منذ القرن الثالث بعض عناصر عبادة الإلهة عشتروت Astarté، ومنذ منتصف القرن الرابع بدأ نسّاجو المسيحية يحولون عيد انتصار ميترا Mithra على أنه مولد يسوع.. وكان كليمنتس الرومانى يصف هذه الاحتفالات بأنها بدعة خرافية، بينما أدانها أوريجنوس فى **خطبه الدينية** (حول اللاويين ٨) حيث قال: «إنهم يعاملون يسوع كفرعون»!!.

ولا تعليق لنا حول استبعاد إنجيل بطرس - الذى لا يعد زعيم الحواريين فحسب، وإنما يعتبر مؤسس الكنيسة الكاثوليكية أو «الحجر» الذى تم تشييدها عليه إلاّ بالإشارة إلى ما فعلته تلك الأيدى العابثة التى لا محرم عندها ولا مقدس..

ولم يكن القديس بطرس الوحيد من الحواريين الذين استبعدت كتاباتهم فإن ما أصاب برنابا أشد وأنكى.. فإذا ما نظر القارئ فى أى قاموس مدرسى بحثًا عن اسم برنابا لقرأ: «أن بولس وبرنابا كانا أول المبشرين بالإنجيل» (**لاروس الصغير**)!.

وإذا ما تتبعنا كل ما ورد عن برنابا أو بعضا منه فى العهد الجديد، وهو المرجع الدينى الرسمى والذى فى متناول يد كافة القراء، لقرأنا عنه ما يلى، وهو بعض مما جاء فى **أعمال الرسل**:

«فإذا علم بالنعمة المعطاة إلى يعقوب وصفًا ويوحنا المعتبرين أنهم

أعمدة أعطونى وبرنابا يمين الشركة لنكون نحن للأمم وأما هم فللختان» (٩:٢)؛ «ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ وهو لاوىّ قبرصى الجنس إذا كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعه عند أرجل الرسل» (٤ : ٣٦-٣٧). وفى النسخ الفرنسية ترد هذه الفقرات تحت عنوان «كرم برنابا»..

ونواصل القراءة: «ولما جاء شاؤول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ **فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل وحدثهم** كيف أبصر الرب فى الطريق وأنه كلمه وكيف هاجر من دمشق باسم يسوع. فكان معهم يدخل ويخرج فى أورشليم ويجاهر باسم الرب يسوع» (٩: ٢٦-٢٨).

ولقد كان له دور له أهميته فى أعمال التبشير التى يقوم بها الرسل: «فسمع الخبر عنهم فى آذان الكنيسة التى فى أورشليم فأرسلوا برنابا لكى يجتاز إلى انطاكيا . الذى لما أتى ورأى نعمة الله فرح ووعظ الجميع أن يثبتوا فى الرب بعزم القلب. **لأنه كان رجلاً صالحًا وممتلئًا من الروح القدس والإيمان. فانضم إلى الرب جمع غفير**» (١١: ٢٢-٢٤). «وترى تلك الأيام.. جوعًا عظيمًا كان عتيدًا أن يصير على جميع المسكونة.. ففعلوا ذلك مرسلين إلى المشايخ بيد «برنابا» و«شاؤول» (١١: ٢٧-٣٠).

والأهم من ذلك فى هذا التسلسل لمكانة برنابا أن نقرأ: وكان فى أنطاكية فى الكنيسة هناك أنبياء ومعلمون وبرنابا وسمعان الذى يدعى نيجر.. وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال **الروح القدس افرزوا لى برنابا وشاؤول للعمل الذى دعوتهما إليه**. فصاموا حينئذٍ وصلوا ووضعوا عليهما الأيدى ثم أطلقوهما. فهذان إذ أرسلا من الروح القدس انحدارًا إلى سلوكية» (١٣: ١-٤) «ولما انفضت الجماعة تبع كثيرون من اليهود والدخلاء المتعبدين بولس وبرنابا اللذين كانا يكلمانهم ويقنعانهم أن يثبتوا فى نعمة الله (١٣: ٤٢-٤٣).

وبعد طردهما من المدينة «قاما بالتبشير فى أيقونية وكانا يأتيان بالمعجزات والعجائب.. حتى **اعتبرهما أهلاً لسترة آلهة: برنابا «زفس» Zeus** و«بولس» هرمس Hermès. (١٢:١٤). وعندما قام الخلاف فى اليهودية حول الختان تم إرسال «بولس» و«برنابا» إلى أورشليم؛ «رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم **مع حبيبينا برنابا وبولس** رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح» (١٥: ٢٥-٢٦).

وإذا ما تتبعنا النص واستجمعنا العبارات الهامة فى هذه الآيات لوجدنا أنه كان «مليئًا بالروح القدس، ثم اختار الروح القدس لأنه كان من الأنبياء والمعلمين وأفرزه للعمل الذى دعاه إليه، ثم إنه كان يعلم الناس ويقنعهم وهو ملىء من الفرح والروح القدس حتى اعتبره أهلاً لسترة الإله «زفس» Zeus وكان الحبيب الذى بذل نفسه وأعطى كل ما عنده لأجل يسوع.

ولا يحق لنا أن نقول «بأى حق»، لكنا نكتفى بعبارة بأى عقل يمكن لمثل هذا الإنسان الذى اختاره الروح القدس وأفرزه من بين الآخرين وظل يعظ ويبشر حتى اعتبره أهلاً لسترة الإله «زيوس».. ذلك الإنسان «الإله» الحبيب إلى من حوله والذى ظل يعمل «لمدة عام بأكمله وعندئذٍ أطلق تعبير مسيحيين لأول مرة» (أعمال الرسل ١١: ٢٦)، بل والأكثر من هذا فإننا نقرأ عن برنابا الذي اختاره الروح القدس وكان من الأنبياء، أنه مؤسس كنيسة أنطاكيا، ثم.. استبعدته الأيدى العاتية ولما تزل!! ففى كتاب «**مقامع الصلبان**» للخزرجى، وهو من القرن الثانى عشر ميلادية يقول: «وكذلك تتأولون من الإنجيل الذى بأيديكم أنه لا نبى بعده وفيه من جهة أخرى أنه سيبعث أنبياء وفى كتبكم أنه كان بعده بأنطاكية أنبياء منهم «برنابا» و«شمعون» و«لوقيوس»!! ولا داعى للقول إن اسم «برنابا» قد تم تحريفه فى الطبعة التى رجع إليها محقق هذا الكتاب التراثى، إذ يورده فى الهامش بعد أن تغير إلى «فاربه»! (**مقامع الصلبان** صفحة ٧٠).

ولا يملك المرء إلاّ أن يتساءل كيف يمكن استبعاد مثل هذا الإنسان النبى الذى «يأتى بالمعجزات والعجائب» مع كل مكانته الفريدة المتميزة التى رأيناها، وكيف يمكن استبعاد إنجيله ورسائله من ضمن ما تم استبعاده؟! والإجابة جد مريرة واضحة، ذلك أنه يصعب إدخاله أو الاستعانة به فى لعبة التحريف المزدوجة لكل ما يتضمنه من حقائق مغايرة لما تم نسخه.. ويقوم الدكتور خليل سعادة بتلخيص هذه الحقائق منها:

١ - أن يسوع انكر الوهيته وأنكر أنه ابن الله، وذلك على مرأى ومسمع من ستمائة ألف جندى وسكان اليهودية من رجال ونساء وأطفال.. وقد رأينا أن الفاتيكان فى كتابه الدينى الحديث قد استبدل تعبير «ابن الله» بتعبير «يسوع الناصري»).

٢ - أن الابن الذى عزم إبراهيم على تقديمه ذبيحة إنما هو إسماعيل وليس إسحاق، وان الموعد إنما كان بإسماعيل.. (وهو ما سوف نؤكده فى الجزء التالى من هذا البحث).

٣ - أن مسيا أو المسيح المنتظر ليس هو يسوع بل محمد ﷺ.. (وهو ما قام العديد من الباحثين بإثباته ومنهم عبدالأحد داود وميسادييه..).

٤ - أن يسوع لم يصلب بل حمل إلى السماء وأن الذى صلب إنما كان يهوذا الخائن.. (وعدم وفاة السيد المسيح مصلوبًا أصبح من النقاط التى يثبتها عديد من الباحثين الغربيين المسيحيين وغيرهم لكى لا نشير إلى آية القرآن التى تقول صراحة: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ (النساء: ١٥٧).

ويؤكد عبدالأحد داود أن إنجيل برنابا يتضمن آيات شديدة الوضوح تدل على «أن السيد المسيح أكد فى أكثر من موضع أن أحمد الناس القادم، من نسل إسماعيل وليس من إسحاق وداود» (**محمد فى الإنجيل** صفحة ٨٩).

وهنا نستشهد بقول القس الدكتور «شارلس فرنسيس بوترن»، فى كتابه

«**السنون المفقودة من المسيح**» تكشف: «أنه لدينا الآن وثائق كافية تدل على أن المخطوطات (**مخطوطات قمران** المكتشفة عام ١٩٤٨) هى حقيقة موهبة الله إلى البشر لأنه فى كل ورقة تفتح تأتى إثباتات جديدة على أن المسيح كان كما قال عن نفسه «ابن الإنسان» أكثر منه «ابن الله» كما ادعى عليه ذلك أتباعه وهو منه برىء. ويقول فى نفس الكتاب: «إن إنجيلاً يدعى إنجيل برنابا استبعدته الكنيسة فى عهدها الأول، وأن المخطوطات التى اكتشفت جاءت مؤيدة لهذا الإنجيل» (وارد فى كتاب **هكذا بشرت الأناجيل** صفحة ١١٤-١١٥).

ويبدأ إنجيل برنابا بالفقرة التالية: «أيها الأعزاء إن الله العظيم العجيب قد افتقدنا فى هذه الأيام الأخيرة بنبيه يسوع برحمة عظيمة للتعليم والآيات التى اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين بدعوى التقوى مبشرين بتعليم شديد الكفر داعين المسيح ابن الله ورافضين الختان الذى أمر به الله دائمًا مجوّزين كل لحم نجس، الذين ضل فى عدادهم أيضًا بولس الذى لا أتكلم عنه إلاّ مع الأسى وهو السبب الذى لأجله أسطر ذلك الحق الذى رأيته وسمعته أثناء معاشرتى ليسوع لكى تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا فى دينونة الله وعليه فاحذروا كل أحد يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه لتخلصوا خلاصًا أبديًا» (٢-٩).

وليس بغريب أن نجد اسم «بولس» هنا مقترنًا بالشيطان، فقد سبق للسيد المسيح أن نهره بنفس هذا النعت.

ومن الواضح أيضًا أن النزاع الذى نشب بين بولس وبرنابا هو السبب فى كتابة هذا الإنجيل وهو السبب أيضًا فى استبعاده.. وقد ثبت هذا النزاع فى سفر أعمال الرسل: «فحصل بينهما مشاجرة حتى فارق أحدهما الآخر» (١٥: ٣٩).

ولا تعليق لنا سوى الإشارة إلى النقطة الأولى وهى «أن يسوع أنكر ألوهيته وأنكر أنه ابن الله وبالمثل الإشارة إلى ما ورد فى **الكتاب الدينى**

الكاثوليكى الجديد الذى أشرنا إليه للتو وفى صفحات سابقة، حيث تم فيه استبدال لفظة «ابن الله» بتعبير «يسوع الناصرى» من ضمن ما تم من تغيير يهدف إلى التقارب مع اليهود وتبنى موقفهم الاستيطانى.

بل ومن الغريب أن نجد الفاتيكان الذى دأب على استبعاد برنابا وإنجيله ورسائله منذ القرن الخامس، على الرغم من مكانته كنبى مختار. لأنه قال صراحة إن عيسى نبى وليس إله، وأن الذبيح إسماعيل وليس إسحاق، وإن النبى القادم محمد ﷺ خاتم الرسالات، ها هو يستعين ويستشهد به فى الكتاب الدينى الكاثوليكى الجديد فى باب «المساهمة فى الحياة الاجتماعية» بند رقم ١٩٠٥ صفحة ٣٩٨، فى نقطة «الصالح العام». بمعنى أن هذه المساهمة تمثل مجمل الظروف الاجتماعية التى تسمح للجماعات وكافة أعضائها أن تصل إلى الكمال بصورة عامة وأكثر يسرًا، إذ يقول برنابا: «لا تعيشوا منعزلين، منطوين على أنفسكم، وكأنه قد تم تبرئتكم، وإنما تجمعوا لتبحثوا معًا عما يمثل الصالح العام» (رسائل ٤ : ١٠).. كما يستعين به فى باب الوصية الخامسة، مادة «احترام الحياة الإنسانية» (بند ٢٢٧١ صفحة ٢٦٥) المتعلق بتحريم الإجهاض!.. ذلك لأن نيافة البابا شخصيًا يعارض الإجهاض ووسائل منع الحمل، كما يعارض الطلاق وترسيم الراهبات، ويعتبرها من الموضوعات التى أعلن محاربتها بلا هوادة.

وها هو يستشهد برسالة أخرى لبرنابا إذ يقول: «إن الله سيد الحياة، قد عهد إلى الإنسان بمهام الحياة النبيلة، وعلى الإنسان أن يتولاها بطريقة جديرة بمكانة الله. فلابد إذن من حماية الحياة بعناية فائقة منذ بداية الحمل: إن الإجهاض وقتل الأطفال يعد من الجرائم المبغوضة» (رسائله ١٩ : ٥).

ولا نملك إلاّ أن نتساءل: ترى هل هى بداية عودة إلى الطريق الصواب والاعتراف ببرنابا وإنجيله ورسائله، أم إنها مجرد نظرية الغاية تبرر الوسيلة والمطلوب هو أى استشهاد يفى بالغرض؟!.

لذلك لم يكن بغريب أن يقول «ج. ميساديه»: «لقد تم اختراع المسيحية بواسطة ورثتها، وذلك ابتداء من القرن الثانى، أي بعد قرن من وفاة يسوع» (**الإنسان الذى أصبح الله** الجزء الثانى، صفحة ١٤٦).. ولم يكن ذلك بجديد إذ إن أحمد الخزرجى كان قد كتب فى القرن الثانى عشر قائلاً: وأما دين الصليب الذى أنتم عليه فإنما أنشأه قسطنطين ابن هيلانى بالقهر والرئاسة.

والدين الذى جاء به المسيح لم يلبث بعده أربعين سنة مغموراً وأهله مستضعفون، ثم اختل كما قدمت ذكره» (**مقامع الصلبان** صفحة ١٩٢).

بقى أن نتناول عمليات التحريف التى تمت لاستبعاد الإشارة إلى سيدنا محمد من الكتاب المقدس بعهديه، لغلق باب النبوة وجعل عيسى ابن مريم آخر الأنبياء.. فعلى الرغم من كثرة ما كتب فى هذا الموضوع، فى مختلف العصور وبشتى اللغات، إلاّ أنه لا بد من إعادة تناوله من جديد، من خلال الآيات التى لاتزال باقية شديدة الوضوح، على الرغم من كل ما لحق بهذه النصوص من تحريف منذ القرن الأول الميلادى حتى يومنا هذا، آملين المساهمة فى وضع حد لذلك التعصب الأصم الأكمه ـ الذى لا يسمع ولا يرى ـ والذى يجتاح الغرب.

ولن نذكر هنا إلاّ بعضًا من أسماء علماء أجلاء تناولوا هذا الموضوع وأثبتوا بالأدلة والقرائن التنبؤ بمجىء سيدنا محمد ﷺ كما هو وارد بالكتاب المقدس بعهديه، ومنهم على سبيل المثال: الجاحظ، واليعقوبى، والمسعودى، والخوارزمى، وابن الوردى، والطوافى، والقرطبى، والخزرجى، والطبرى، وابن عباس المغربى، والقلقشندى، والمقدسى، وابن إدريس، وابن تيمية، وابن قيم الجوزية، وأبو القاسم القيسى، وعبدالله الترجمان، وعبدالصمد السهراوى، وعبدالأحد داود، وابن الخطيب، ومحمود قراعة، والدكتور السقا وغيرهم.. وهى أسماء تمتد من القرن التاسع الميلادى حتى يومنا هذا.

ولو أننا تتبعنا بدايةً ما كتب فى العهد القديم، فى موضع سيدنا إبراهيم وابنه البكر إسماعيل، لقرأنا الآتى: «بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى إبرام فى الرؤيا قائلاً: لا تخف يا أبرام. أنا ترس لك. أجرك كثير جداً، فقال إبراهم أيها السيد الرب ماذا تعطينى وأنا ماضٍ عقيمًا ومالك بيتى هو اليعازر الدمشقى. قال إبراهم أيضًا إنك لم تعطنى نسلاً وهو ذا ابن بيتى وارث لى. فإذا كلام الرب إليه قائلاً. لا يرثك، هذا الذى يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى الخارج وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال له هكذا يكون نسلك فآمن بالرب فحسبه له برًا. وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها» (تكوين ١٥: ١- ٧).

ثم ينتهى الإصحاح الخامس عشر بتأكيد الميثاق: «فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

ونخرج من هذا النص بالنقاط التالية:

١ - أن سيدنا إبراهيم كان عقيمًا وعلى وشك الوفاة، ومالك بيته اليعازر الدمشقى.

٢ - تحديد الرب له أن اليعازر لن يرثه وإنما الوارث هو من يخرج من أحشائه.

٣ - أخرجه الرب وأراه عدد نسله الذى سيكون فى مثل عدد نجوم السماء.

٤ - أن وعد الأرض لنسل إبراهيم.

ثم تتوالى الأحداث ونفهم أن سارة عاقر ولم تلد: «وأما ساراى امرأة إبراهم فلم تلد له. وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر. فقالت ساراى لإبراهم هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة. ادخل على جاريتى لعلّى أرزق

منهـا بنين. فسـمع إبرام لقـول سـاراى. فـأخـذت سـاراى امـرأة إبرام هـاجـر المصـرية جاريتها من بعد عشـر سنين لإقامة إبرام فى أرض كنعـان وأعطتهـا لإبرام رجلها زوجة له. فدخل على هاجر فحبلت ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها فى عـينيهـا. فقـال سـاراى لإبـرام ظلمى عليك أنا دفعت جاريتى إلى حضنك فلما رأت أنها حبلت صغرت فى عينيها. يقضى الرب بينى وبينك. فقال إبرام لساراى هو ذا جاريتك فى يدك افعلى بها ما يحسن فى عينيك. فأذلتها ساراى. فهربت من وجهها» (تكوين ١٦: ١-٦).

ونخرج من هذا النص بعديد من الدلالات منها:

١ – أن ساراى عاقر.

٢ – أن هاجر إنسانة أمينة، فهى فى الدار منذ عشر سنوات ولم تتعد على ساراى.

٣ ـ أن ساراى قد دفعت بهاجر فى حضن سيدنا إبراهيم كزوجة.

٤ – أن إبراهيم قد اتخذها زوجة شرعية ودخل عليها وحملت.

٥ – وأن ساراى قد غارت من هاجر عندما حملت فأذلتها لدرجة دفعتها إلى الهروب.

وتتتابع القصة فى نفس سفر التكوين: «فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية. على العين التى فى طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراى من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى. فقال لها ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها. وقال لها ملاك الرب **تكثيرًا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة**. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنًا وتدعين اسمه إسمعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك **وأنه يكون إنسانًا وحشيًا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه. وأمام جميع إخوته يسكن**. فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل رئى لأنها قالت

أههنا أيضًا رأيت بعد رؤية لذلك دعيت البئر بئر لحى رئى. ها هى بين قادش وبارد. **فولدت هاجر لإبراهم ابنًا. ودعا إبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسمعيل.** وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة، لما ولدت هاجر إسمعيل لإبرام» (تكوين ١٦: ٧-١٦).

وقبل أن نخرج بالنقاط الأساسية من هذا النص نود توضيح الفارق الشديد بين صياغة هذا النص فى الإنجيل الذى طبع عام ١٩٦٦. والإنجيل الذى رجع إليه الإمام القرطبى فى القرن الثانى عشر إذ يقول بدلاً من الجزء المكتوب بالخط الأسود الفاحم «**ويكون ابنك هذا وحشيًا من الناس. يده على كل. ويد كل به**. وسيحل على جميع حدود إخوته. فدعت اسم الرب الذى كلمها: فقالت أنت الله ذو الوحى والرؤيا» (**الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد**، صفحة ٢٣١).

اى إن عبارة «يده على كل. ويد كل به» قد أصبحت: «يده على كل واحد ويد كل واحد عليه» فالعبارة الأولى تعنى القسم والتماسك، بينما الثانية تعنى التطاول.. كما أن عبارة وسيحل على جميع حدود إخوته» فى النص القديم قد أصبحت: «وأمام جميع إخوته يسكن»، وهى تعنى فى النص القديم أن نفوذه سيمتد إلى كافة حدود إخوته، بينما تعنى فى النص المحرف أنه سيسكن فحسب أمام كافة إخوته، وإن كان النص فى كلتا الحالتين يثبت إقامة إسماعيل فى المناطق التى على حدود إخوته.

علمًا بأن نص هذه الآية فى اللغة العربية ووفقًا لما أورده الطبرى فى القرن التاسع كما يلى: «ارجعى إلى سيدتك واخضعى لها فإنى سأكثر ذريتك وزرعك حتى لا يحصون كثرة، وها أنت تحبلين وتلدين ابنًا وتسميه إسماعيل لأن الله قد سمع تبتلك وخشوعك، وهو يكون عَيِّرَ الناس وتكون يده فوق الجميع ويد الجميع مبسوطة إليه، ويكون مسكنه على تخوم جميع إخوته (**الدين والدولة** صفحة ١٣١).

وهنا لابد من توضيح تعبير «عَيْرَ الناس»، مثل «عير النصل» أى الخط البارز فى وسطه طولاً، أى أبرز وأحدّ ما فى النصل. كما أن كلمة عير وحدها تعنى الحمار الوحشى. وهو ما لا مكان له إطلاقًا فى قول الله هنا. إلاّ أن هذه العبارة قد تحولت فى القرن الثانى عشر إلى وحشيًا كما رأينا وسنشرحها بعد قليل، كما تحولت فى النص الفرنسى إلى حمار وحشى بدلاً من معنى التمييز!.

وأهم ما نخرج به من هذه الجملة الأخيرة على الرغم من كل ما اعتراها من تغيير هو لفظة «إخوته» أو «جميع إخوته» الذى سنتناوله بالإيضاح فيما بعد أما بقية الفقرة فى النص القديم: فدفعت اسم الرب الذى كلمها فقالت: «أنت الله ذو الوحى والرؤيا وهى تقرير واقع وخضوع من هاجر لمشيئة الله، إلاّ أنه تم تحريفها لاستبعاد الوحى والرؤيا عن هاجر أم إسماعيل.

وما نخرج به من هذه الفقرة الثانية، والتى تمتد فى الإصحاح السادس عشر من الآية السابعة إلى الآية السادسة عشرة فهو أن:

١ - ملاك الرب أمر هاجر بالعودة والخضوع لسيدتها ولا شك فى أن طلب عودتها حفاظًا على نسل سيدنا إبراهيم.

٢ - وعدها ملاك الرب بأن يكثّر نسلها تكثيرًا فلا يعد من الكثرة.

٣ - أخبرها أنها حامل وستلد ابنًا اسمه إسماعيل.

٤ - وأن هذا الابن سيكون وحشيًا، أى من أهل اليمن، وسيسيطر على جميع إخوته.

٥ - أن ملاك الرب قد بشر هاجر وكرمها بأنها ستلد ابنًا عظيمًا واسع النسل والنفوذ، وأنه بذلك قد وضع هاجر فى مصاف النساء المكرمات اللائى كرمهن الله بالبشارة مثل اليصابات أم يوحنا المعمدان والسيدة مريم العذراء.

وكلمة الوحشى تعنى الجانب الأيمن من كل شيء، وهى تختلف تمامًا عما تعنيه كلمة «المتوحش» أى المنتمى إلى الحيوانات المتوحشة، كما ترد فى ترجمة الآية فى النص الفرنسى من الإنجيل طبعة ١٩٨٦.

La Bible de Jérusalem:

"Tu es enceinte et tu enfanteras un fils, et tu lui donneras le nom d'Ismaël car Yahvé a entendu ta détresse celui-là sera un onagre d'homme, sa main contre tous, la main de tous conte lui, il s'établira à la face de tous ses fréres" (P.45)

وتعنى هذه الصياغة: «أنك حامل وستلدين ابنًا وتسمينه إسماعيل، لأن يهوه قد سمع شكواك وهذا الابن سيكون رجلاً كالحمار المتوحش يده ضد الجميع ويد الجميع ضده، وسيسكن أمام جميع إخوته»!؟..

ولا تعليق على تحريف متدنى الهدف والمغزى، إلاّ أن نشير إلى الهامش الذى يوجد فى الطبعة الفرنسية ليشرح معنى كلمة onagre، أى حمار متوحش، حيث يرد فيها: «أن سلالة إسماعيل هم عرب الصحراء، المستقلون المتشردون كالحمار المتوحش»! (صفحة ٤٥) وكلمة المستقلون فى صياغتها هذه تعنى الهائمون الخارجون على أى قانون!.. وذلك هو ما ترضعه أجيال الغرب من تعصب وتحريف دنى فى كتابها المقدس على مر العصور.. خاصة وأن هذا الهامش الفرنسى ينتهى بالإشارة إلى سفر أيوب، إصحاح ٣٩، الآيات من ٥ إلى ٨.. ويا للدقة والأمانة العلمية شكلاً لتثبيت المغالطات فى أذهان القارئ.. فهذه الآيات بل والإصحاح بأسره يشير إلى الله وعظمته المحرك لجميع خلقه ولا علاقة أو أية إشارة إلى العرب فى هذا الإصحاح إلاّ إيهام القارئ بأن هذه الكلمة السبة ترد فى أكثر من موضع!.

بقى تعبير «جميع إخوته».. فمن الواضح أن إسماعيل، وحيد والده آنذاك سيرزق بإخوة آخرين وأنه سيسكن على كل حدودهم وأمامها. وهو ما

جاء فى بقية السفر وإقامته فى شبه الجزيرة العربية.. أما فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين، فنقرأ استكمالاً للموضوع:

«ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير سر أمامى وكن كاملاً. فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرًا جدًا.

فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً: أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبًا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم.

لأنى أجعلك أبًا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيرًا جدًا وأجعلك أممًا، وملوكًا منك يخرجون. وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدًا أبديًا لأكون **إلهًا لك ولنسلك** من بعدك. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا وأكون إلههم» (١-٨).

ونخرج من هذه الفقرة بالنقاط التالية:

١ - العهد تم بين الله وإبراهيم بانه سيكون أبًا لجمهور من الأمم، شريطة أن يكون كاملاً مستقيمًا.

٢ - تغيير اسمه من إبرام إلى إبراهيم.

٣ - تحديد أن العهد يقع بين إبراهيم ونسله مع تكرارها ثلاث مرات.

٤ - أن إسماعيل هو ولا يزال عند إتمام هذا العهد - وحيد والده، سيدنا إبراهيم وكان إسماعيل فى الثالثة عشرة من عمره.

٥ - استخدام النص تعبير «نسلك» هنا إشارة إلى أن إبراهيم سيرزق بابن أو بأبناء آخرين سيولدون فيما بعد.. وبالفعل سينجب بعد ذلك بعام من سارة، وبعد موتها سيتزوج من «قطورة فولدت له زمران ويقشان ومران ومديان وشياق وشوحا» (تكوين ٢٥: ١-٢).

والمكتوب أن سيدنا إبراهيم عاش حتى بلغ مائة وخمسة وسبعين عاما من عمره (٢٥:٧).. إلاّ أن العهد قد تم لسيدنا إبراهيم وابنه البكر إسماعيل. وذلك يعني أن وعد الله وميراث الأرض من النيل للفرات وكل ما وعد به يخص إسماعيل وذريته. وذلك وفقًا للشريعة اليهودية السائدة آنذاك ووفقًا لأهمية الابن البكر. الأمر الذى نطالعه بلا مواربة: «إذا كان لرجل امرأتان إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة فولدتا له بنين المحبوبة والمكروهة. فإن كان الابن البكر للمكروهة فيوم يقسم لبنيه ما كان له لا يحل له أن يقدم ابن المحبوبة بكرًا على ابن المكروهة البكر بل يعرف ابن المكروهة بكرًا ليعطيه نصيب اثنين من كل ما يوجد عنده لأنه هو أول قدرته له حق البكورية» (تثنية ٢١ : ١٥ -١٧).

وهو ما لا يدع مجالاً للشك فى أن إسماعيل حقًا وشرعًا وقانونًا هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم. وإن لم يكن هذا الأمر بجديد، فقد أوضحه العديد من الأمناء فى أبحاثهم وأن استبعاده يعد أكبر جريمة تزوير ومغالطة تاريخية.

بل إنه القانون الذى لا يزال ساريًا حتى يومنا هذا. لأن قانون الأحكام الشرعية للإسرائيليين المعمول به حاليًا لا يزال يلتزم بتطبيق هذا القانون، إذ تنص المادة (٤٩١) من الباب الخامس عشر، حول امتياز الابن البكر فى الميراث على ما يلى: «للولد البكر من الأب مثل حظ الولدين فهو مميز بسهم بعلة البكورة».

وهذه المادة مأخوذة عن كتاب حوش مشباط مادة (١ ف. ٢٧٧) كما تنص المادة (٩: ٥) من نفس الباب الخامس عشر للأحكام الشرعية للإسرائيليين على ما يلى: «إذا أقر الأب بالبكورة فلا يجوز له إنكارها بعد». وهذا البند أيضًا مأخوذ عن كتاب حوش مشباط، حاشية مورام مادة (١٢) فصل (٧٧).

أما المادة رقم (٥٠٢) من الباب الخامس عشر والخاص بأحوال امتياز الابن البكر فى كتاب الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية عند

الإسـرائيليين، والتى تنص على أن: «البكر من الجـارية أو الأجنبيـة لا يمنع البكورة عن الإسرائيلية بعدها، وهى أيضًا مأخوذة عن كتاب حوش مشباط مادة ٩ ف ٧٧، فلا يمكن أن تنطبق على إسـماعيل لأن هاجر لم تعد جارية عندما دخل بها إبراهيم وإنما كانت زوجة شرعية كما هو ثابت فى سفر التكوين كما أن العهد الذى تم بين الله وإبراهيم والممثل فى الختان، قد قام إبراهيم بتنفيذه فورًا على نفسه وعلى ابنه الوحيد البكر إسماعيل، وعلى جميع رجال بيته. وأن ذلك لهو أكبر دليل على الاعتراف بإسماعيل وبأنه الابن البكر و«المميز بسهم البكورة» والذى يحق له شرعًا ضعف نصيب جميع إخوته سواء أكانوا من سارة أم من قطورة. وأن استبعاده على لسان سارة ليس إلاّ خرقًا لشرع الله وتحريفًا وتزويرًا لما نزله.

وتتضمن الفقرة التالية ميثاق العهد، إذ نقرأ:

«وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى، أنت ونسلك من بعدك فى أجيالكم. هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك يختتن منكم كل ذكر. فتختتون فى لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بينى وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم» (٩-١٢).

ونخرج من هذا الجزء من هذه الفقرة بما يلى:

١ - تغيير اسم إبرام كتابة ليصبح إبراهيم، بالتشكيل الجديد، وكأنه جزء من العهد.

٢ - اعتبار الختان هو العهد الذى يلتزم به إبراهيم ونسله وكافة أجيال الذكور من بعده.

ثم نقرأ فى نفس الإصحاح السابع عشر عن تبشير سارة بأنها ستحمل وتلد.. «وقال إبراهيم لله ليت إسمعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحق.. وأقيم عهدى معه عهدًا أبديًا لنسله

من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرًا جدًا. اثنى عشر رئيسًا يلد وأجعله أمة كبيرة ولكن عهدى أقيمه مع إسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت من السنة (١٨-٢١). ثم أخذ سيدنا إبراهيم ابنه إسماعيل وجميع ولدان بيته وكان هو فى التاسعة والتسعين من عمره أما إسماعيل، ابنه البكر فكان فى الثالثة عشرة.

والملفت للنظر فى الآيات السابقة هو تكرار «أن العهد يقام مع إسحاق» الأمر الذى لا يستقيم وما سبق من نفس الإصحاح إذ أن العهد قد تم بالفعل مع سيدنا إبراهيم بدءًا بتغيير اسمه ثم أمره الله مكررًا العبارة ثلاث مرات أن يكون العهد: «بينى وبينك وبين نسلك»، «لأكون إلهًا لك ولنسلك». و«أعطى لك ولنسلك» (٧-٨) ولم يقل لابنك فى كل هذه الآيات. ثم قال فى الآية العاشرة «هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك» وقام إبراهيم بتنفيذ ذلك العهد فورًا واختتن هو وابنه البكر - فلم يكن إسحاق قد ولد أو حتى قد حُبل فيه.. كما ختن أهل بيته من الذكور.. فهل يستقيم ذلك مع ما ورد فى جزء من الآية التاسعة عشرة من إقامة العهد مع إسحاق وحده؟!.

وحيث إنه لا يمكننا اتهام كلام الله بالتناقض أو التحريف والمغالطة فلا يبقى إلاّ تأكيد أن هناك تحريفًا يقينًا لتمييز إسحاق ونسله واستبعاد إسماعيل ونسله.. فإن كان ما يقصده الله هو التفرقة والاستبعاد لما باركه وأقره وكثره كثيرًا جدًا كما وعد، ولما تحدد أنه سيلد اثنى عشر رئيسًا ولما جعله أمة كبيرة.

ثم يبدأ الإصحاح الثامن عشر ويتضمن البشارة بالابن الثانى لإبراهيم: «ويكون لسارة امرأتك ابن». ومرة ثانية يؤكد الرب ما وعد به إبراهيم قائلاً: «وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض لأنى عرفته لكى يوصى بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا برًا وعدلاً

لكى يأتى الرب لإبراهيم بما تكلم به» (١٨-٢٠). ونخرج من هذا الوعد الثانى بما يلى:

١ - التأكيد على أنه سيكون لإبراهيم أمة كبيرة قوية ويتبارك به جميع أمم الأرض. ولا يوجد من هم يتباركون بسيدنا إبراهيم فى صلواتهم الخمس يوميًا كالمسلمين الذين هم نسل ابنه البكر إسماعيل.

٢ - التأكيد على شرط الاستقامة وعمل البر والعدل لكى يتحقق كلام الرب. وما قام به الإسرائيليون من تكرار خروجهم عن الدين وما اقترفوه من ظلم وعودة للوثنية وتعدد الآلهة المعروف على مر العصور بعد ذلك الوعد، وإلاّ لما أرسل الله السيد المسيح إلى «خرافه الضالة». ثم ننتقل بعد ذلك إلى الإصحاح الحادى والعشرين من نفس سفر التكوين الذى نحن بصدده، ونقرأ عن مولد الطفل الثانى لإبراهيم فى الوقت الذى حدده الرب ودعا إبراهيم اسم ابنه المولود له والذى ولدته سارة، إسحق. وختن إبراهيم إسحق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله. ثم كبر الولد وفُطم «وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق».

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق. فقبح الكلام جدًا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك» (٩-١٣). ونخرج من هذه الفقرة بما يلى:

١ - الكشف عن نفسية سارة التى امتهنت كرامتها كأنثى أملاً فى تحقيق وعد الله ودفعت بجاريتها فى حضن زوجها لتنجب له.. وعندما أكرمها الله بولد فإنها طردت جاريتها بابنها.. (ولا تعليق).

٢ - الإصرار فى النص على التمييز بين إسحاق وإسماعيل.

٣ - أن سارة هى التى غارت وطلبت من إبراهيم أن يطرد هاجر وابنها وهى التى حددت أنه لا يجب أن يرث مع إسحاق - وليس الله أو الكتاب كما سيقال فيما بعد فى «أعمال الرسل»!.

٤ - التأكيد ثانية على أنه سيكون لإسماعيل أُمة لأنه من نسل إبراهيم.

٥ - التناقض الواضح فى عبارة «بإسحق يدعى لك نسل» وعدم مصداقيتها فى هذا السياق لأن نسل إبراهيم بدأ بإسماعيل الذى كان أول من نفذ العهد وختن، فكيف يلغى هذا الواقع المعاش ولا يحسب له أى حساب - خاصة وأنه فى الآية التالية يؤكد لإبراهيم أنه سجعله أمة لأنه من نسله وبعد بضعة آيات من نفس الإصحاح يؤكد الله لهاجر أنه سيجعله أمة عظيمة؟!.

ونعلم من الفقرة التالية أن سيدنا إبراهيم قد رضخ لقرار سارة وأعطى هاجر خبزًا وماءً ورحلت مع ابنها البالغ من العمر خمسة عشر عامًا تقريبًا، إذ إنه طرد عقب وليمة فطام إسحاق، والفطام عادة ما يكون بعد سنة أو سنتين.. وتاهت هاجر وبكت وتضرعت فقال لها ملاك الرب: «لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومى واحملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن فى البرية وكان ينمو رامى قوس. وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر» (١٧ - ٢١).

ونخرج من هذه الفقرة بما يلى:

١ - سارة هى التى قررت طرد هاجر وابنها إسماعيل، وسارة هى التى قررت أن إسماعيل لا يرث مع ابنها إسحاق. أى إنه ليس الله هو الذى حرم إسماعيل من الميراث كما يقال تحريفًا.

٢ - قَبح الكلام فى عين إبراهيم فأكد له الله انه سيجعل لإسماعيل أمة لأنه نسل إبراهيم. وهو تكرار وتأكيد لحقيقة أن إسماعيل الابن البكر لإبراهيم ونسله.

٣ - يحث الملاك هاجر على تحمل معاناتها مؤكدًا لها «سأجعله أمة عظيمة».

٤ - أن الله لم يتخل عن الغلام الذى نما راميًا للقوس وسكن برية فاران.

٥ - بعد سكن إسماعيل فى فاران تزوج بمصرية من أرض مصر.

ولم نتابع ما تقدم بهذا التأنى إلاّ للتأكيد على أن إسماعيل هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم، وأن سارة زوجة أبيه، هى التى طردته وهو غلام وهى التى قررت حرمانه من الميراث، وأنه نزح مع أمه هاجر إلى برية فاران وسكن بها وتزوج بمصرية. وإن ذريته نمت وترعرعت فى فاران. الأمر الذى سنوضح أهميته بعد قليل، وهو من الوقائع التى يحاول متعصبو الغرب طمس معالمها وتحريفها.

وها نحن نقرأ فى بداية الإصحاح التالى، أى الثانى والعشرين، أن الله قال لإبراهيم: «خذ ابنك وحيدك الذى تحبه إسحق» (٢) ليذهب به إلى المحرقة ويضحى به ذبحًا.. كيف يمكن أن يكون وحيده وإسماعيل أكبر منه ومازال على قيد الحياة؟! ثم تتكرر نفس العبارة حيث يقال: «ولم تمسك ابنك وحيدك» (١٦).. وهنا لابد أن نتساءل هل كون إسماعيل قد طرد وسكن بعيدًا فهل ذلك يعنى أنه لم يعد ابن أبيه؟! أم أن هناك تحريفًا يقصد به استبعاد إسماعيل عن التسلسل الطبيعى للأحداث؟.

إن ابن الخطيب يؤكد قائلاً: «إن اليهود هم الذين أول من نادوا بهذه الفرية» (**هذا هو الحق صفحة ٤٣**). ولقد رأينا إسماعيل ظل الابن البكر الوحيد طوال أربعة عشر عامًا، إذ أن سيدنا إبراهيم عليه السلام كان فى السادسة والثمانين حين أنجبه، وكان فى المائة من عمره حين رزق بإسحاق».

وهنا يقول الخزرجى: «وفى التوراة أن إسحاق هو الذبيح وإنما الذبيح

إسماعيل ودليل ذلك أن النحر والذبح بمنى بموطن إسماعيل وأيضًا قرون الكبش كانت معلقة فى الكعبة فى عهد إبراهيم إلى زمان دخول الحجاج بن يوسف على عبد الله بن الزبير فأحرقت» (**مقامع الصلبان** صفحة ١٥٣).

وفى الإصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين نجد كشفًا «بأبناء إسماعيل بن إبراهيم الذى ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم. وهذه أسماء بنى إسماعيل حسب مواليدهم. نبايوت بكر إسماعيل، وقيدار، وأدبئيل، ومبسام، ومشماع، ودومه، ومسّا، وحدار، وتَيّمَا، ويطور، ونافيش، وقدمه.

هؤلاء هم بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم. اثنا عشر رئيسًا حسب قبائلهم وهذه سنو حياة إسمعيل مئة وسبع وثلاثون سنة. وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه. وسكنوا من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجىء نحو أشور. أمام جميع إخوته نزل (١٢-١٨).

وما نخرج به من هذه الفقرة هو:

١ - إثبات نسل إسماعيل والاعتراف به.

٢ - تحقيق النبوءة بعظمة إسماعيل وأنه سيكون له اثنا عشر عظيمًا بديارهم وحصونهم.

٣ - أنهم سكنوا أمام جميع إخوتهم أى أمام جميع أبناء إبراهيم الآخرين من سارة وقطورة، وأقاموا فى المنطقة الممتدة من حويلة إلى آشور بما فيها جبال فاران. وذلك تحقيقًا لما ورد فى (سفر التكوين ١٦: ١٢) وأشرنا إليه.

وما نود التأكيد عليه فيما يتعلق بإسماعيل أنه الابن البكر لسيدنا إبراهيم وظل ابنه الوحيد طوال أربعة عشر عامًا حتى رزق بأبناء آخرين من سارة ثم من قطورة. وأن تكون الغيرة قد دفعت بسارة إلى استبعاده عندما رأته يمزح يوم حفل فطام إسحاق فذلك لا ينفى عنه البكورة حقًا وشرعًا كما رأينا. وبما أن ملاك الرب قد أسكنه برية فاران وباركه ووعد بأن يكثره

تكثيرًا ويجعله عظيمًا جدًا جدًا فذلك يعنى استمرار العناية الإلهية به كابن لإبراهيم عليه أن يعمّر منطقة أخرى من الأرض، ذلك لأن الصلة لم تنقطع بينهم. فما تبقى من إشارات يؤكد على استمرار الصلة بين الإخوة وبين أبنائهم حتى إن خيام قيدار قد صارت مثلاً يتغنون بجمالها (**نشيد الإنشاد** ١ : ٥).

وها نحن نقرأ فى **قصص الأنبياء** لابن كثير عن إسماعيل الذى كان أول من ركب الخيل، وأول من أجاد التحدث باللغة الفصحى: «ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحق. وزوّج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحق، فولدت له الروم، ويقال لهم بنو الأصفر» (صفحة ٢٩٥). كما نقرأ فى سفر التكوين عن وفاة سيدنا إبرهيم: «وأسلم إبراهيم روحه ومات بشيبة صالحة شيخًا وشبعان أيامًا وانضم إلى قومه، ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون» (١٥:٨-٩).

وعلى الرغم من استقدام النص لاسم إسحاق زورًا وتحريفًا لأن إسماعيل هو الأكبر بأربعة عشر عامًا، إلاّ اننا نخرج بأن نصوص العهد القديم تؤكد أنه منذ مولد إسماعيل حتى وفاة والده فهو يعد ابنه وأن الصلة ظلت قائمة بين أولاده ونسلهم. وأن استبعاد إسماعيل ونسله تحريف لاحق لاستبعاد أية صلة لنسب الرسول محمد ﷺ - بإبراهيم عليه السلام، وفصم امتداده الطبيعى لغلق الباب أمام نسل سيدنا إسماعيل، ومنهم سيدنا محمد ﷺ.

بل على العكس، لقد رأينا للتو كشف أبناء إسماعيل فى سفر التكوين (١٢:٢٥-١٦). ومنهم «قيدار» الذى هو أحد أجداد سيدنا محمد ﷺ وكيف أن العلاقة بين أبناء إبراهيم ظلت قائمة وتزوج الأبناء من أبناء عمومتهم.. مما يؤكد الخلط أو التحريف الذى نطالعه فى رسائل بولس إلى أهل رومية حين يعلن: «بإسحاق يدعى لك نسل أى ليس أولاد الجسد هم أولاد الله» (٩: ٧-٨). وهو ما يقصد به بولس أن إسماعيل مرتبة دنيا، بل يكاد قصده يشى بأنه أقرب للسفاح، وذلك على الرغم من أن كلا من إسماعيل وإسحاق قد

ولدا ببشارة ووعد من الله لإبراهيم. وأن ملاك الرب قد بشر هاجر أولاً - مثلما بشر سارة بعد ذلك بأربعة عشر عامًا كما رأينا، وكما سيقوم ملاك الرب بتبشير اليصابات والسيدة العذراء فيما بعد.. وبالتالى فإن تأكيد بولس الرسول للمعنى السابق الإشارة إليه مرة ثانية فى رسالته إلى أهل غلاطية يؤكد بداية تحريف النصوص عمدًا منذ عهده إذ نراه يكرر:

«كان لإبراهيم ابنان واحد من الجارية والآخر من الحرة. لكن الذى من الجارية **ولد حسب الجسد** وأما الذى **من الحرة فبالوعد**. وكل ذلك رمز لأن هاتين هما العهدان أحدهما من **جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر لأن هاجر جبل سيناء فى العربية** ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها. وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعًا فهى حرة. لأنه مكتوب افرحى أيتها العاقر التى لم تلد. اهتفى واصرخى أيتها التى لم تتمخض فإن أولاد الموحشة أكثر من التى لها زوج. وأما نحن أيها الإخوة فنظير إسحق أولاد الموعد. ولكن كما كان حينئذ الذى ولد حسب الجسد يضطهد الذى حسب الروح هكذا الآن أيضًا. لكن **ماذا يقول الكتاب** اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة. إذًا أيها الإخوة لسنا أولاد جارية بل أولاد الحرة» (٤:٢٢-٣١).

التعليق جد مرير.. فلقد رأينا بوضوح أن الذى طرد هاجر هى سارة «ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها» (تكوين ٢١: ٩-١٠) وليس «الله» أو «الكتاب» كما يزعم بولس الرسول بنص يؤكد بمرارة على تفرقة طبقية تمثل نغمة نشازا بالنسبة لرسالة السيد المسيح المنادية بالمحبة أولاً وأخيراً.. كما نرى أن نفس الآيات التى يذكرها بولس تربط شبه الجزيرة العربية التى سكنها إسماعيل وذريته بالعبودية.. كما أن استبعادهم كان سبب تحقيره لأمهم.

وتزداد الدهشة مرارة حينما نطالع إصرار بولس الرسول على المغالطة

قائلاً: فى محاولاته الدائبة لاستبعاد إسماعيل عن نسل إبراهيم قائلاً: «ولكن ليس هكذا حتى إن كلمة الله قد سقطت لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون. ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولاد. بل بإسحاق يدعى لك نسل. أى ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً. (رسالة بولس إلى أهل رومية ٩:٦-٨).

ويالها من مغالطات ممجوجة على لسان من يعتبرونه أول بابا فى روما، وهى مغالطات يتشربها الغرب على مر العصور فينمو كارهًا للعرب محتقرًا محقرًا من شأنهم، وبأنهم يتمسحون عنوة فى إبراهيم بحثًا عن نسب يتلفعون به.. وذلك ما نطالعه فى كتابات العديد من الذين يتناولون القضايا العربية أو الإسلامية فى كتبهم أو حتى فى القواميس والمعاجم.

ولا يعد تطاولاً منا أن نقول: إن المعروف تاريخيًا أن نظام العبيد هو الذى ساعد على انتشار المسيحية. ذلك أن ثلثى الإمبراطورية الرومانية كانوا من العبيد الذين يعانون قهر الحكام وطغيانهم. والعبد، على حد قول فارون Var-on لم يكن سوى آلة ناطقة.. ومن الغريب أن أحدًا فى تلك العصور القديمة لم يقم بشىء من أجل إلغاء العبودية التى قام عليها الغرب وطغاته المتعصبون.

لقد أوضحنا فيما تقدم ما لمكانة إسماعيل وكل ما خصه الله به من تكريم ونبوءات، وكيف أنه بانتقاله وإقامته فى جبال فاران وانتشار ذريته يثبت بوضوح لا مواربة فيه صحة كل النبوءات الخاصة بسيدنا محمد ﷺ، مهما حاولت الأيدى المتعصبة طمسها أو تحريفها باستبعاد إسماعيل وذريته.

الواضح من كافة المراجع التى تناولت موضوع إثبات نبوة سيدنا محمد ﷺ أن الإنجيل بعهديه يتضمن العديد من الإشارات، لا يكاد يخلو منها سفر من الأسفار، وإن كانت درجة الوضوح فيها متباينة وفقًا لما لحق بها من حذف وتبديل أو تحريف. ولا يسع المجال هنا لتناولها جميعًا، وإنما سنتعرض لأكثرها وضوحًا - على سبيل المثال لا الحصر.

ففى الفصل الحادى عشر من التوراة فى السفر الخامس وهو الأخير لبنى إسرائيل نقرأ: «أن الرب إلهكم يقيم نبيًا مثلى من بينكم ومن إخوتكم فاسمعوا له». وتقول التوراة فى نفس ذلك الإصحاح بعد عدة آيات: «أنى مقيم لهم نبيًا مثلك من بين إخوتهم، وأيما رجل لم يسمع كلماتى التى يؤديها ذلك الرجل باسمى أنا انتقم منه» (الطبرى صفحة ١٣٧). ويوضح الطبرى قائلاً: ولم يقم الله نبيًا من إخوة بنى إسرائيل إلاّ محمدًا ﷺ. وقوله من بينهم تأكيدًا وتحديدًا أنه من ولد أبيهم لا من ولد عمومته. فأما المسيح ﷺ وسائر الأنبياء صلى الله عليهم فإنهم كانوا منهم أنفسهم (**الدين والدولة** صفحة ١٣٨).

وحتى قراءة الآية فى نص حديث كما هو وارد فى طبعة ١٩٨٠. فإن المعنى لا يتغير: «يقيم لك الرب إلهك نبيًا من وسطك من إخوتك مثلك له تسمعون.. أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوحى به» (تثنية ١٨ : ١٥-١٧). وهو ما يتفق مع ما جاء فى إنجيل يوحنا فى الآيات الخاصة «بالفريقليطس» والتى سنتناولها عما قليل، وغنى عن القول إن عبارة «وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوحى به» لا تنطبق إلاّ على سيدنا محمد، النبى الأمى ﷺ، الذى كانت الرسالة توحَى إليه ويبلغها هو بالكلمة..

ولقد أوضحنا آنفًا أهمية تعبير «إخوته» أو «جميع إخوته» عند التحدث عن إسماعيل وسكنه أمام إخوته أو عند جميع إخوته.. أى إن النبى القادم المشار إليه سيأتى من بين هؤلاء الإخوة الذين هم نسل إبراهيم ويسكنون فاران.

وهنا يقول عبدالصمد السهواري: «فاليهود يقولون إن هذه البشرى لسيدنا يوشع ﷺ لكن هذا غير صحيح لأن يوشع ﷺ ما كان من إخوان بنى إسرائيل وقد قال الله تعالى «من إخوته» هذا وجه، والوجه الثانى أن يوشع كان نبيًا فى عهد موسى ﷺ فلا يحتاج إلى بشارة، والوجه الثالث أن موسى كان صاحب شريعة وكتاب، ويوشع ما كان صاحب شريعة أو كتاب، بل

كان من أتباع موسى فكيف يقال إن التابع كالمتبوع؟ والوجه الرابع أن هذه البشرى ليست ليوشع عليه السلام كما جاء فى «بيبل» الاستثناء باب ٢٤ ورس ٤ لغاية ورس ١٠ ما نصه «مات موسى عبد الله بأمر ربه فى أرض المواب ودفن فى صحراء المواب قرب البيت الغفور ولا يعرف أحد أين قبره. ما جاء فى بنى إسرائيل نبى مثله». فثبت من هذا الجزء الأخير أن البشرى ليست ليوشع عليه السلام. فإذا نظرنا بإمعان فى هذه النصوص علمنا أن بنى إسماعيل هم إخوان بنى إسرائيل والبشرى عن النبى فى أمر بنى إسماعيل وما جاء نبى فى بنى إسماعيل إلاّ محمد ﷺ وقد كان صاحب كتاب وشريعة وجهاد كما كان موسى عليه السلام كذلك وولد رسول الله محمد ﷺ ومات على مثل ما كان لموسى عليه السلام أى موتًا عاديًا بلا حادث غريب عند موته بخلاف ما كان لعيسى عند ولادته وموته فقد كان موضع دهشة العالم حيث ولد من غير أب وما تزوج وصلب (كما يقولون) فهذه البشرى فى حق نبينا محمد ﷺ بلا ريب وتسمى هذه البشارة بالبشارة المثالية (**البشائر** صفحة ١٥ - ١٧).

أما السيد بشرى زخارى ميخائيل، فيقول عن هذه الآية / البشارة، إنها «ليست بشارة يوشع كما يزعم أحبار اليهود، كما أنها ليست بشارة السيد المسيح كما يفسر ذلك علماء اللاهوت المسيحى، بل هى بشارة محمد ﷺ وذلك لعدة أسباب: أن اليهود المعاصرين للمسيح كانوا منتظرين نبيًا آخر مبشرًا به. وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح بدليل أنهم سألوا يوحنا قائلين: أأنت المسيح؟.. إنه جاء فى هذه البشارة لفظ «مثلك» ويوشع والمسيح لا يصح أن يكونا مثل موسى بدليل الآية العاشرة فى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية: «ولم يقم بعد ذلك نبى فى بنى إسرائيل مثل موسى يعرف الرب وجهًا لوجه» فإن قام أحد مثل موسى بعده من بنى إسرائيل يلزم إذن تكذيب هذه الآية.. ومن ناحية أخرى موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهٍ ويوشع لم يكن كذلك بل هو تابع

للشريعة.. ولفظ «من بين إخوتهم» ولا شك أن الأسباط الاثنى عشر كانوا موجودين فى ذلك الوقت مع موسى حاضرين معه فلو كان المقصود كون النبى المبشر به منهم لقيل «منهم» لا «من بين إخوتهم» لأن الاستعمال الحقيقى لهذا اللفظ أن لا يكون المبشر به له علاقة الصلبية والبطنية ببنى إسرائيل، أى من فرع آخر غير فرعهم وهو ما لا يكون إلاّ من إسماعيل. كما جاء لفظ الإخوة بهذا الاستعمال الحقيقى فى وعد الله لهاجر فى حق إسماعيل «وقبالة جميع إخوته ينصب المضارب» (تكوين ١٦ : ١٢ طبعة ١٨٤٤)، وفى الترجمة العربية المطبوعة عام (١٨١١) هكذا وبحضرة جميع إخوته يسكن «والمقصود بالإخوة ها هنا بنو عيسى وإسحاق وغيرهم من أبناء إبراهيم.. وجاء بالبشارة لفظ «سوف أقيم» ويوشع كان حاضرًا عند موسى داخلاً فى بنى إسرائيل نبيًا فى ذلك الوقت فكيف يصدق عليه هذا اللفظ؟!... فالآية تصدق على سيدنا محمد ﷺ أكمل صدق لأنه غير السيد المسيح ولأنه يماثل موسى فى أمور كثيرة.. وكان من إخوة بنى إسرائيل لأنه من بنى إسماعيل.. ولم يكن وعد الله فى حقهم (بنى إسرائيل) وإنما الوعد كان لبنى إسماعيل» (**هكذا بشرت الأناجيل** صفحة ٦٥-٧٠).

وبعد تناول تسع بشارات من العهد القديم يختتم السيد بشرى زخارى ميخائيل ذلك الفصل قائلاً: هذا بعض ما جاء فى العهد القديم من بشارات ليس لها فى رأيى سوى هذا التفسير وهو أن القادم من نسل إسماعيل هو النبى المنتظر ولذا يجب أن نعترف بأن رسالته رسالة صدق وحق» (صفحة ٨٥).

أما فى الإصحاح الثالث والثلاثين، فترد إشارة واضحة أخرى، بل إنها آخر رسالة قالها موسى لقومه والبركة التى باركهم بها، إذ يقول النص: «وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى إسرائيل قبل موته فقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. فأحب الشعب. جميع قديسيه

فى يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك» (تثنية ٣٣: ١-٣).

ونخرج من هذا النص الذى يمثل البركة التى بارك بها موسى قومه قبل وفاته، وهى تتضمن الإشارة إلى الديانات التوحيدية الثلاث بدرجات نزولها وترتيبها، مع تشبيه مراحل نزولها كنور الشمس فقد جاء الرب من سيناء، وهى مهبط الوحى، بالتوراة على يد سيدنا موسى، ثم أشرق أى لاح من جبال سعير وهى جبال الروم عند أدوم وتجاور القدس، أى ازداد وضوحًا علي يد سيدنا عيسى، ثم تلألأ من فاران، وهى جبال مكة أى على يد سيدنا محمد ﷺ الذى أتى بالشريعة التى تضمنها القرآن.

وتشبيه الوحى الإلهى فى هذه الآية النبوءة / البركة بنور الشمس يذكرنا بأخناتون، أول الأنبياء، وأول من ألغى الآلهة مناديًا بعبادة الإله الواحد.

القوى المتجلية خلف قرص الشمس واهب الحياة والحركة، والذى يرتبط اسمه بالآية الواردة فى رسالة بولس إلى أهل رومية: «لأنه يقول الكتاب لفرعون إنى لهذا بعينه أقمتك لكى أظهر فيك قوتى ولكى يُنادى باسمى فى كل الأرض» (٩:١٧) فأخناتون هو أول من تغنى بالتسابيح «للإله الأحد الذى وجد منذ الأزل والذى لا شريك له» (النشيد الكبير)، «وأناشيده إلى الشمس هى التى نقلها موسى فى «المزامير» كما أكدها العديد من علماء الآثار ومنهم جولينشوف وبرستد وسليم حسن.

كما أن ما نقرأه عن موسى يؤكد ذلك «**فتهذب موسى بكل حكمة المصريين** وكان مقتدرًا فى الأقوال والأعمال» (أعمال الرسل ٧: ٢٢).

أما الغريب فى صيغة هذه الآية البركة كما هى واردة فى طبعة ١٩٨٠ العربية، التى أوردناها آنفًا فهى عبارة: «وأتى من ربوات القدس» التى تغير من ترتيب نزول الوحى. فلو رجعنا إلى النص الذى استعان به الطبرى فى القرن التاسع الميلادى لوجدناه على النحو التالى: «أن الرب جاء من طور

سينين وطلع لنا من ساعير وظهر من جبل فاران ومعه عن يمينه ربوات **القديسين** فمنحهم العز وحببهم إلى الشعوب».. أى أن كلمة القديسين» قد تحولت إلى كلمة «القدس»، لنقل الدلالة إلى السيد المسيح واستبعادها عن سيدنا محمد ﷺ – على الرغم من الوضوح الشديد لهذه النبوءة التى تمثل آخر ما نطق به سيدنا موسى من رسالات مباركة..

إن متابعة تغيير نص هذه الآية بالذات فى عدة طبعات فرنسية متباعدة للكتاب المقدس تغنى عن أى تعليق.. إذ نقرأ فى طبعة ١٨٦٠ باللغة الفرنسية.

"L'Eternel est venu de Sinaî. et s'est levé sur eux de Séir, il leur a resplendit de la montagne de Paran, et il est sorti d'entre les dix milliers des saints, et de sa dextre le jeu de la loi est sorti vers eux" (P. 188).

ومعناها: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران وخرج من بين العشرة آلاف من القديسين. ومن يمينه خرجت نار الشريعة تجاههم». وهو الرقم الذى يمثل بالفعل عدد المجاهدين الذين كانوا مع سيدنا محمد ﷺ عند فتح مكة. أما في الطبعة الفرنسية لعام ١٩٣١ فنقرأ:

"L'Eternel est venu de Sinaî. Il s'est levé sur eux de Séir, Il a resplendit de la montagne de Paran, et il est sorti du milieu des saintes myriades :Il leur a de sa droite envoyé le feu de la loi" (p. 188).

ومعناها: «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وخرج من وسط عدد لا يحصى من المبجلين: وبيمينه أرسل لهم نار الشريعة». مع استبدال تعبير "Les dix miliers de saints" المحدد الرقم بعشرة آلاف مجاهد، بتعبير "des saintes myriades" أضاع التحديد الرقمى، الذى يشهد على الواقعة التاريخية عند فتح مكة بصحبة عشرة آلاف مجاهد، لأن كلمة "myriade" مشتقة من اليونانية "murias" وتعنى

عشرة آلاف، ووضعها فى صيغة الجمع قد أضاع قيمتها كدليل على الرقم بالتحديد.. وفى كل الأحوال فالدليل بيِّن وإن أرادوا حتى طمس الرقم.

أما فى أحدث الطبعات الفرنسية المنقحة، الصادرة عام ١٩٨٦، أى بعد مجمع الفاتيكان الثانى، فنقرأ:

"Yahvé est venu de Sinaî. Pour eux, depuis Séir, il s'est levé à l'horizon, il a resplendi depuis le mont le mont parân. Pour eux, il est venu depuis les ressemblements de Cadés, depuis son midi jusqu' aux Pentes" (p. 237)

ومعناها: «يهوه جاء من سيناء. من سعير، أشرق لهم فى الأفق، وتألق من جبل فاران. جاء لهم من تجمعات قادش، من جنوبها حتى تخومها»!! وبذلك انحصرت النبوءة فى اليهود، فقد جاء لهم يهوه من سيناء وأشرق لهم من سعير ولاح تألقه حتى فاران! وبذلك تم استبعاد أى أثر لسيدنا محمد ﷺ، كما انحصرت تحركات يهوه فى منطقة قادش، أى فى فلسطين، من جنوبها حتى أطرافها.. وقد راعت الأيدي العاتية تبرير غموض الآية فى نصها الجديد المحرّف بأن وضعت لها هامشًا يقول: «إنها فقرة صعبة وأجروميتها قديمة مهجورة» "La Bible de Jérusalem" Paris 1986 p. 237"

ولا تعليق لنا سوى ما ينضح به النص..

أما فى الطبعة الإنجليزية التى استخدمها الأسقف بنيامين كلدانى / عبدالأحد داود فى القرن التاسع عشر، فهى تتفق والنص المتداول آنذاك. وهذا نصها:

The lord came from Sinai, and rose up from seir unto them, he shined forth from mount Paran, and he came with ten thousands of saints, from his right hand went a fiery law for them" (**Mohammad in the Bible** p. 3).

ويورد القرطبى، وهو من القرن الثانى عشر الميلادى، نصًا آخر بخلاف ذلك النص الذى أورده الطبرى؛ معتمدًا على ترجمة أخرى، إذ يقول «وفى بعض التراجم: «أقبل السيد من سيناء ومن سعير تراءى لنا، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف الصالحين، ومعه كتاب نارى وهو ختم الأجناس. وجميع الصالحين فى قبضته ومن تدانى من قدميه يصب عليه علمه» (**الأعلام** صفحة ٢٦٥).

وعلى أى حال، فمن المعروف أنه ما من نبى يهودى، بما فيهم السيد المسيح، كانت له أية علاقة بجبال فاران. وأن الذى سكن فاران هو إسماعيل وزوجته المصرية وأبناؤه الاثنا عشر، ومنهم قيدار الجد المباشر نسلاً لسيدنا محمد ﷺ، الذى ظهر فى جبل فاران ودخل مكة بصحبة عشرة آلاف مجاهد وأعطى شعبه الشريعة التى يعيش بها.. الأمر الذى يعد بمثابة تحقيق لنص آخر النبوءات التى نطق بها سيدنا موسى وبارك بها شعبه.

ويورد الطبرى آية أخرى: «فى المزمور الثامن والأربعين: أن ربنا عظيم محمود جدًا، وفى قرية الهنا وفى جبل قدوس ومحمد، وعمت الأرض كلها فرحًا (**الدين والدولة** صفحة ١٣٩). وقد تحول النص ليصبح فى الطبعات العربية الحديثة للكتاب المقدس: «عظيم هو الرب وحميد جدًا فى مدينة الهنا جبل قدسه» (مزامير ٤٨ : ١)! أى أنه تم حذف اسم سيدنا محمد ﷺ وتغيير صفته من «قدوس» إلى كلمة «قدسه» التى تقع على الجبل!! ولتصبح العبارة «في مدينة الهنا – جبل قدسه» غير مفهومة بالمرة..

أما فى الطبعة الفرنسية التى ظهرت عام ١٩٨٦ بعد المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى فنجدها على النحو التالى:

“grand, Yahvé, et louable hautement dans la ville de notre Dieu, le mont sacré, superbe d’élan, joie de toute la Terre” p. 765.

وتعنى: «عظيم يهوه ومحمود جدًا صبرًا فى مدينة الهنا، الجبل المقدس

الرائع الحمية فرحة كل الأرض».. وهنا نلاحظ أيضًا إضافة اسم يهوه، ولم يكن موجودًا فى الطبعات الفرنسية السابقة، وحذف اسم محمد ﷺ.

وفى إصحاح أشعياء نقرأ: لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا. ليعطوا الرب مجدًا ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر. الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه» (٤٢: ١١-١٣). ومن الواضح الجلى أن النص يعنى المنطقة التى سكنها قيدار وأن من خرج منها كرجل حرب هو سيدنا محمد ﷺ إذ أن عيسى عليه السلام لم يحارب. إلا أن طبعة ١٩٨٦ الفرنسية قد أضافت بعد كلمة «ليهتفوا» العبارة التالية «ليمجدوا يهوه» (صفحة ١١٣٤).. وقد رافق النص هامش يقول فى نفس الصفحة: «قيدار: تعنى قبيلة من الرحل»!!

وآية أخرى فى نفس إصحاح أشعياء تقول: «... حينئذ تنظرين وتنيرين ويخفق قلبك ويتسع لأنه تتحول إليك ثروة البحر ويأتى إليك غِنَى الأمم. تغطيك كثرة الجمال بكران مديان وعيفة كلها تأتى من شبا تحمل ذهبًا ولبانًا وتبشر بتسابيح الرب كل غنم قيدار تجتمع إليك. كباش نبايوت تخدمك. تصعد مقبولة على مذبحى وأزين بيت جَمَالى» (٦٠: ٥-٧).

من الواضح أن النص يتعلق بالعرب، فمديان وعيفة وشبا فى شبه الجزيرة العربية، وقيدار الابن البكر لإسماعيل، ونبايوت هو ابنه الثانى وشقيق قيدار.. إلا أن الطبعة الفرنسية قد أضافت اسم يهوه أيضًا كما نجد هامشًا يوضح أن «نبايوت اسم قبيلة عربية» ولا يذكر شيئًا عن أنه ابن إسماعيل وشقيق قيدار، الذى سبق وأشرنا إلى أنهم زعموا أنه «قبيلة من الرحل»!!

وإن كان ما تقدم يعد مجرد نماذج جد قليلة مما ورد فى العهد القديم، فإن ما لا يزال يوجد فى العهد الجديد، وخاصة فى إنجيل يوحنا، وهو أحد الأناجيل الأربعة الرسمية، لهو أكثر وضوحًا وأشد دليلاً. إنها الآيات التى ترد فيها كلمة «الفريقليط».. تلك الكلمة التى كانت سببًا فى إشهار القس «انسلم تورميدا» Encelm Turmeda إسلامه فى القرن الخامس عشر، ليتخذ اسم عبدالله الترجمان (**تحفة الأريب** صفحة ١٣٦).

وما أكثر الذى كتب حول هذه الكلمة المحرفة Periclytos إلى Paraclete والتى تشير إلى اسم أحمد.. فلا يكاد يخلو من الإشارة إليها مرجع من المراجع التى بحثت هذا الموضوع ومحاولة استبعاد النبوة المذكورة عن سيدنا محمد ﷺ.. إلا أن ما أجراه القس السابق بنيامين كلدانى من أبحاث لغوية تقطع الشك باليقين. وكل ما تكشّف له من تحريف وحقائق هو الذى دفع به للإسلام. ولقد كرس كافة أبحاثه للتعريف بالحق، والكشف عن كل ما لحق بالإنجيل من تحريف، ومن أهم ما كتبه: محمد فى الكتاب المقدس Mohammad in the Bible، حيث جمع وأوضح بالدراسة اللغوية كل ما يشير إلى محمد ﷺ، وكم من برهان أورده مصحوبًا بعبارة «أتحدى بجسارة دارس اليونانية القديمة».

ولا يسع المجال هنا لعرض الكتاب بأسره، وإنما سنعرض منه ما يؤكد يقينًا تحريف كلمة «الفريقليط» التى تعنى «أحمد»، وينتهى به الأمر بعد إثبات صحتها إلى أن يقول: «أتحدى بجسارة كافة الباحثين الضالعين فى اللغة اليونانية القديمة أن يعارضونى عندما أعلن أن مترجمى النص السريانى واللاتينى قاموا بأخطاء فادحة فى ترجمتهم» (**محمد فى الكتاب المقدس** صفحة ١٤٦)، وأن «إنكار النبوة والتبشير عن رسالة محمد ﷺ يعد إنكارًا أساسيًا لكل الرسالة الإلهية برمتها ولكافة الرسل الذين بشروا بها. وذلك لأن كافة الأنبياء مجتمعين لم يتموا العمل العملاق الذى قام به نبى

مكة بمفرده فى فترة وجيزة ليست إلا ثلاثة وعشرين عامًا هى فترة رسالة النبوة» (المرجع السابق صفحة ١٦٧).

وقبل تناول الأمر بالإيضاح، نبدأ بكتابة الآيات فى شكلها المتداول حاليًا فى إنجيل يوحنا وهى: «إن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى، وأنا أطلب من الأب يعطيهم معزيًا آخر ليمكث معكم إلى الأبد.. وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى هو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم» (١٤ : ١٦، ٢٦)؛ «ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى» (٢٦ : ١٥)؛ «لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم **المعزى** ولكن إن أذهب أرسله إليكم. ومتى جاء ذلك يبكّت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة... وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، **لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية**» (١٦ : ٧-٨، ١٣).

وكلمة «المعزى» هى آخر تحريف لكلمة «الفريقليط» التى شاع معناها المحرّف على مر العصور. إذ يورد الطبرى: «أن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى باسمى يعلمكم كل شىء.. أن الفارقليط لن يجيئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه شيئًا لكنه يسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب... إنى سائل أن **يرسل إليكم فارقليطًا** آخر يكون معكم إلى الأبد» (**الدين والدولة** صفحة ١٨٤).

وما نخرج به من هذه الآيات أن كلمة «فارقليط» قد تحولت فى الطبعة العربية الحديثة إلى «معز». وفى طبعات أخرى إلى «مواس»، بينما تم تحريفها فى الطبعات الفرنسية والإنجليزية من Periklytos إلى Paraclet. كما نخرج من نفس هذه الآيات بتعبير «معزيًا آخر» أو «فارقليطًا آخر» بأن المسيح ﷺ كان يعتبر نفسه «معزيًا» أو «فارقليطًا» وأنه سيسأل الله أن يرسل معزيًا أو فارقليطًا آخر غيره ستوحى إليه الرسالة بالسمع، ويبلغها هو

بالكلمة. وهو نفس المعنى الذى ورد فى العهد القديم الذى أشرنا إليه آنفًا، حينما قال الرب: أقيم لهم نبيًا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيلكمهم بكل ما أوصى به» (تثنية ١٧ : ١٨).

وهنا يضيف الطبرى: «فأما تأويل قوله أنه يرسله باسمى، فإنه لما سُمى المسيح بفارقليط، وسُمى محمد ﷺ بهذا الاسم، لم ينكر من المسيح قوله: إنه يرسله باسمه، أى أن يكون سميَّه، فقلّ ما يوجد المسيح عليه السلام فى باب من كتب الأنبياء - عليهم السلام - إلا كان ذكر النبى ﷺ متصلاً به، يتلوه ويشفعه لأنه جاء بعده» (**الدين والدولة** صفحة ١٨٥).

ويبدأ عبد الأحد داود بإثبات أن الفارقليط ليس الروح القدس، ثم قام بتفنيد كلمات المعزى والمواسى والمدافع والشفيع، التى ظهرت كتحريف للكلمة الأصلية، والتى تعنى فى أصلها قبل التحريف «أحمد».

ويرجع إلى الأصل العبرى لكلمة معز، مواس وهى «مناحم» وترد فى مراثى إرمياء (١ : ٢، ٩، ١٦، ١٧، ٢١ إلخ). ولقد تمت ترجمتها قديمًا إلى كلمة Parakaloon اليونانية المشتقة من Parakaloo، وتعنى ينادى، يدعو، يحث، يرجو، وإن كان المعنى الأكثر شيوعًا هو الرجاء لصيغة الأدب. ثم يوضح كيف أن هناك كلمات أخرى فى اليونانى للمعزى أو المواسى وهى Parygorytys. أما كلمة المدافع باليونانية فهى Sunegorus، والشفيع هى Meditéa. ثم يقوم بإعادة صياغة الآية بعد تعديل الكلمات المحرفة وإضافة ما حذف منها لتصبح: «سأذهب إلى الآب وهو سيرسل لكم رسولاً آخر اسمه فريقليطوس، حتى يبقى معكم إلى الأبد» (صفحة ٢١١). وبعد التأكيد على استحالة المعنى الذى يفرضونه راح يوضح كيف أن كلمة Periqlytos لغويًا وحرفيًا تعنى: الذائع الصيت، الحميد، المجيد، وهى مشتقة من Kleos وتعنى المجد، الشهرة، الصيت، مستعينًا بأكبر قاموس يونانى فرنسى وهو: Dictionnaire Grec-Français: Alexander. وأن هذه الكلمة مركبة من Peri ومن Kleotis

وهى مشتقة من الحمد، ويحمد؛ لأن أصلها الآرامى يعتمد على أحرف حَ مَ دَ. ثم يقول: «وبذلك فإن الاسم الذى أكتبه بالأحرف الإنجليزية Periqleitos أو Periqlytos يعنى بالتحديد «أحمد» باللغة العربية... وهو ما يتفق مع ما جاء فى القرآن ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (الصف:٦) صفحة ٢١٥. ثم ينتقل ببحثه بعد ذلك للتأكيد على أن محمدا ﷺ رسول حقًا وأن القرآن منزل إلهيًا، إذ «لم يكن بوسع محمد أن يعرف أن كلمة الفريقليط تعنى أحمد، إلا من خلال الوحى والإلهام.

إن حجة القرآن قاطعة ونهائية لأن المعنى الحرفى للكلمة اليونانية تعنى تمامًا وبلا أى جدال أحمد ومحمد» (صفحة ٢١٦)، الذى هو «روح الحق الذى كشف تزييف اليهود والمسيحيين وكيف أنهم حرَّفوا كتاباتهم... وبصفته روح الحق فقد شهد بحقيقة يسوع، الإنسان، النبى، وخادم الله؛ وجعل من المحال أن يصبح المسلمون عبدة أوثان وسحرة، أو أن يؤمنوا بغير الله (صفحة ٢١٨).

أما فى كتاب الخرزجى (**مقامع الصلبان** صفحة ١٢٦) فنجد النص على النحو التالى: «وكذلك قال المسيح فى الإنجيل الذى بأيديكم: اللهم ابعث الفارقليط ليعلم الناس أن ابن الإنسان بشر»، ويعلق محقق الكتاب، عبدالمجيد الشرفى، قائلاً: لم أعثر على هذا النص فى الأناجيل التى بين أيدينا»! وهذا يعنى أن هذه الفقرة قد حذفت بعد القرن الثانى عشر.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قد قال عن «الفارقليط» إنها تعنى «الحامد أو الحماد، أو الحمد، أو المعزى. وهذا الوصف ظاهر فى محمد ﷺ فإنه وأمته: الحمادون، الذين يحمدون الله على كل حال، وهو صاحب لواء الحمد، والحمد مفتاح خطبته، ومفتاح صلاته. ولما كان حمادًا جوزى بوصفه، فإن الجزاء من جنس العمل، فكان اسمه: محمدًا وأحمد. أما محمد فهو على وزن مكرَّم ومعظَّم، وهو الذى يحمد حمدًا كثيرًا مبالغًا فيه، ويستحق ذلك، فلما كان أحمد، كان محمدًا.

وأما أحمد، فهو أفعل، هو أحمد من غيره، أى أحق بأن يكون محمودًا أكثر من غيره، يقال هذا أحمد من هذا، أى هذا أحق بأن يحمد من هذا، فيكون فيه تفضيل له على غيره فى كونه محمدًا، فلفظ محمد يقتضى فضله فى الكمية. ولفظ أحمد يقتضى فضله فى الكيفية» (**الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، وارد فى الاعلام صفحة ٢١).

ومما تقدم نخرج بأن هذه الآيات التى تثبت بالقطع و«التحدى الجسور» على حد قول عبدالأحد داود، أن كافة الكلمات التى وُضعت تباعًا كتحريف لكلمة «فريقليطوس» لا تتفق والمعنى الأصلى الناجم عن الأصل الآرامى حَ مَ دَ، وإذا ما كان الأمر كذلك، فإن ما يعرفه كافة رجال الكهنوت على مر العصور وكافة دارسى هذه القضايا التاريخية العقائدية، هو أن السيد المسيح قد بشر برسول يأتى من بعده اسمه أحمد ومحمد..

وهنا نورد ما يؤكده زخارى بشرى ميخائيل قائلاً: «ويشهد التاريخ أن من أسلم من علماء اليهود والمسيحيين فى القرن الأول قد شهد بوجود البشارات المحمدية فى كتب العهدين القديم والجديد مثل عبد الله بن سلام وابنى سعيد، وبنيامين، ومخيريق، وكعب الأحبار. وغيرهم من علماء اليهود ومثل بحيرا ونسطور الحبشى وضغاطر وهو الأسقف الرومى الذى أسلم على يد وحيد الكلبى وقت الرسالة، والجارود بن العلاء والنجاشى والقسس الرهبان الذين جاءوا مع جعفر بن أبى طالب من الحبشة وغيرهم من علماء المسيحيين..

فإذا ما انتقلنا إلى الأشخاص الذين تولوا التبشير بمجىء محمد ﷺ نجد منهم الكثير، ونذكر منهم على وجه الخصوص بحيرا الراهب الذى كان من أعظم من تولى تبشير الناس أن نبيًا من بنى إسماعيل حان أن يبعث بالاسم والصفات وحدد له مكان المطلع والمهجر، ولم يكن من شأن التوراة الأصلية أن تخفى أو تنكر، ولا من شأن رهبان الصوامع أن يضلوا أو يحسدوا

لأن الله هو الذى قال الكلمة فى التوراة «ولأن القسيسين والرهبان لا يجحدون ولا يستكبرون» (**هكذا بشرت الأناجيل** صفحة ١١٣ - ١١٦).

من هذا العرض الذى أوضحنا خلاله كلا الخطين الأساسيين لعملية تحريف نصوص الإنجيل بعهديه، منذ حقبة باكرة لم تتوقف، وذلك فى خطين متواكبين، أحدهما لتغيير معالم المسيحية الأم، التى بشر بها السيد المسيح، وإعادة نسجها لأغراض سياسية اقتصادية واجتماعية؛ والآخر بغية استبعاد النبوة، عن سيدنا محمد ﷺ وطمس معالم أى نسب يربطه ويربط المسلمين بسيدنا إبراهيم، وهو ما قمنا معه بإثبات التزييف المتعمد للنصوص، إلى استبعاد متعسف لإنجيل برنابا بأن إسماعيل هو الابن البكر لسيدنا إبراهيم الذى تزوج هاجر وحملت منه «بالموعد» الوعد كما أن العهد قد تم بين الله وإبراهيم الذى قام بتنفيذه هو وابنه إسماعيل، كان فى الثالثة عشرة حينما ختن هو وأبوه وجميع أهل البيت الذكور. كما أوضحنا كيف أن الشريعة اليهودية تنص صراحة على أن الابن البكر حتى وإن كان من الزوجة «غير المحبوبة» فليس من حق أبيه أن يحرمه حق البكورة، بل ويحق له ضعف ما للأبناء الآخرين.

وهنا لابد من الإشارة إلى مُعْطٍ تاريخى آخر، قلما أغفله مرجع من المراجع على مر العصور، وهو «أن اليهود تقر بأن السبعين كاهنًا اجتمعوا على اتفاق من جميعهم فى تبديل ثلاثة عشر حرفًا من التوراة. وذلك بعد المسيح فى زمان القياصرة» (**مقامع الصلبان** صفحة ١٤٧).

وقبل التعليق على وقفة التحريف هذه، والثابتة تاريخيًا لابد أولاً من توضيح معنى كلمة «حرف» فى هذا النص، وأن المقصود به ليس أحد حروف المبانى الثمانية والعشرين التى تتركب منها الكلمات، وتسمى حروف الهجاء كما أن حروف الهجاء فى العبرية أو اللاتينية لم تنقص حرفًا، مما يشير إلى أن المقصود بالحرف هنا إنما هو المعنى الآخر لها وهو: «الكلمة». إذ يقال

مثلاً: هذا الحرف ليس فى لسان العرب. أى إن هذه الكلمة ليست فى لسان العرب، وبذلك تتضح حقيقة ما قام به «السبعون» من تزييف وتبديل لثلاث عشرة كلمة، بعد وفاة السيد المسيح بكثير..

ولاشك الآن فى أن هذه الكلمات الثلاث عشرة كانت تتضمن اسم سيدنا محمد ﷺ أو علها كانت فى جلها تشير إليه بوضوح من قبيل ما رأيناه فى بعض النماذج التى أوردناها فى هذا السبيل.. وهو ما يتفق وما جاء فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع عندما يكشف تزييفهم وتحريفهم وعبثهم: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦)؛ و﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (المائدة: ١٣)؛ و﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥).

إن الكهان اليهود يحرفون العهد القديم ويكتبونه بعد وفاة موسى بعدة قرون، والعهد الجديد يتعرض لتحريفات أوردنا مجرد طرف منها، ومع ذلك، فها هو كتاب التعليم الدينى الكاثوليكى الجديد، الصادر فى ١٨ من ديسمبر عام (١٩٩٢م)، يصر على اعتبار الإنجيل بعهديه «كتابًا منزلاً».. الأمر الذى يؤكد الخلاف المستمر بين التعصب الأكمه والعلم الذى يكشف يومًا بعد يوم عن وثائق ومعطيات وإدانات وتحريفات جديدة.. ولا يبقى لنا إلا أن نقول للقائمين على مثل هذا التعصب وتغذيته بدأب: «اختتنوا للرب وانزعوا غرل قلوبكم يا رجال يهوذا.. (وكفوا عن) شر أعمالكم»!! (أرمياء ٤ : ٣-٤).

الفصل الخامس

محاصـــرة وإبـــادة

محاصرة وإبادة

«إن كانت الحقيقة التاريخية أسطورة، فإن الكذب التاريخى هو الحقيقة الوحيدة التى يمكن إثباتها» بهذه الكلمات الواقعية ينهى «أندريه جيلوا» A. Gilois كتابه عن الكذب التاريخى.. عن ذلك الكذب الذى دأبت الحكومات والمؤسسات السياسية أو الدينية على الاستعانة به، فلقد جرى العرف على عدم إطلاع الجمهور على أسرار الدولة. وأنه عادة ما يتحدث المسئولون لكى يقولوا شيئًا.. وتمتلئ الجرائد والمجلات بالتصريحات والعبارات الرسمية المليئة بالجمل الطنانة والوعود أو بالألفاظ التى أجهضت معانيها.. وبذلك يصبح الإعلام الموجه من أكبر وسائل الضغط على الشعوب ومن أكبر مجالات التواطؤ الرسمية.. الأمر الذى يؤدى إلى تحويل الحقائق التاريخية إلى أساطير، والكذب التاريخى إلى واقع معاش لا يقل رهبة عن منطق الدولة التى تحذر من تناول القضايا الرئيسية للحفاظ على النظام والسيطرة عليه.

وإن كان هذا المبدأ لا ينص عليه أى تشريع يسمح للجهاز السياسى بالدولة بالإفلات من مسئولياته، فإن تقبله يمثل العبودية بعينها أو أحد جوانبها.. لذلك تنبثق الحقائق دومًا بفضل بعض الأمناء؛ لتكشف عن الأحداث ووقائعها مهما طال التعتيم، ومهما امتدت عمليات التمويه..

ومن أهم القضايا التى انبثقت من غياهب القرن العشرين قضية

اغتيال الشعوب وإن لم تكن قاصرة على هذا القرن وحده.. وتمتد سلسلة الاغتيالات الفردية أو الجماعية منذ الأساطير القديمة، وإبادة الآلهة للمردة والأشرار، حتى الاغتيالات السياسية والثأرية أو الإجرامية، مرورًا بالإبادات الجماعية الاستيطانية أو تلك الناجمة عن الحروب السياسية الدينية.

وعلى الرغم من أن الديانة المسيحية تنص صراحة فى وصاياها: «**ولن تقتل أبدًا**»، ذلك لأن الذى يتم قتله هو مخلوق من مخلوقات الله، وجزء من نوره إلاّ أن تاريخ الغرب مثقل بأنهار من الدماء التى انسابت باسم الدين حينًا، وباسم التطهير العرقى حينًا آخر، وكلاهما باسم نفس ذلك الرب الذى حرم القتل.

ولا يسع المجال هنا لتناول مجازر الحروب الصليبية والحروب الطائفية أو اغتيالات عصر الرعب أيام الثورة الفرنسية، كما لا يسع لسرد قوائم الإبادة الجماعية التى يذخر بها تاريخ الاستعمار فى القارة الأمريكية والقارة الاسترالية أو فى غزوه للقارة الأفريقية واحتلاله لجزء كبير من آسيا، فكلها مذابح تمت فى الماضى، وإن لم يزل بعضها قائمًا، فهى برمتها تمثل أكبر عمليات إبادة جماعية فى التاريخ. إلاّ أن المرير فيها أن تقرأ عنها: «**ولقد كانت الإبادة مستمرة، تتم فى وضح النهار، مع مباركة كافة الكنائس**» (روجيه كاريتانى R. Caritani: **قوة الضعفاء صفحة ٢٠٧**).

وما يعنينا فى عمليات الإبادة هذه هو ما يتم حالياً من محاولات دائبة متواكبة فى كافة القارات لمحاصرة الإسلام وإبادته بصورة لا تخطئها العين.. بل والأكثر غرابة أن يتم ذلك - فى كثير من الأحيان - بأيد عربية مسلمة!! وإن كانت الغارة على الإسلام قد بدأت منذ بداية انتشاره، أو هى للحق قد بدأت قبل مجىء سيدنا محمد ﷺ ودعوته للإسلام، ووصلت هذه الغارة إلى ذروتها قديمًا - فى محاكم التفتيش التى قامت أساسًا لإبادة المسلمين فى جنوب أوروبا وإسبانيا والبرتغال حيث لم يبق مسلم واحد، لذا فإن ما يدور

حاليًا من محاصرة الإسلام على الصعيد العالمى إنما هو عود على بدء لم يتوقف، ويحتاج إلى وقفة حاسمة لا هوادة فيها.. فالأمر لا يتعلق بإبادة شعب مسلم فى البوسنة مثلما أبيد الإسلام فى إسبانيا، وإنما هى عملية إبادة للإسلام برمته أينما كان، وإبادة لا رحمة فيها للشعوب الإسلامية أينما كانت. وإن كان ذلك يتم بمسميات مختلفة، وبمحاولات وأساليب متنوعة.

بل لقد أعلن أكثر من مسئول فى الغرب ومنهم «نيكسون» أن العدو الباقى والذى يتعين مواجهته الآن إنما هو الإسلام وذلك بعد انهيار الاتحاد السوفيتى بتضافر جهود المخابرات المركزية الأمريكية والجهاز السياسى الدينى للفاتيكان، وهى نفس الأجهزة التى تتصدر العمليات حاليًا، وهو ما سنعود إليه بعد قليل.. وإن لم ينف ذلك عوامل موضوعية فى الواقع الاجتماعى الاقتصادى - السياسى للمجتمع..

وقبل أن نتناول هذا الوضع بشىء من التفصيل، لابد من الإشارة إلى معاهدة «جنيف» للحد من جريمة إبادة الجماعات الإنسانية، والتى تدرج تحت مسمى Génocide. ويبدو أن الضمير الغربى لم يكن ليعبأ بجرائم الإبادة، التى يقوم بها تحت مختلف المسميات، ذلك أن كلمة «إبادة جماعات إنسانية» (génocide) لم تكن موجودة قبل عام (١٩٤٤م) ولم يكن هناك أى عرف دولى يعاقب على عملية القتل أو الاضطهاد حتى الموت لجماعة عِرْقِيَّة أو لغوية أو دينية. ذلك أن قوانين الحرب، كانت تحرم ضرب الأحياء السكنية بالقنابل، واغتصاب النساء وغيرها من بشاعات، ولم يتم اتخاذ أى قرار بشأن هذه الجرائم ولم يستيقظ الضمير الغربى الممثل فى الأمم المتحدة إلاّ عام (١٩٤٨م)، حينما اتخذت هذه الهيئة قرارها فى التاسع من شهر ديسمبر، بتحريم الإبادة الجنسية أو العرقية..

ومما تجدر الإشارة إليه توافق هذا التاريخ مع إنشاء الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة!!.

ويشير روجيه كاريتانى إلى أن بنود هذه المعاهدة تتضمن مغالطات غريبة إذ إنها لا تعتبر ضرب المدن من أشكال الإبادة الجماعية، وإنما تهتم بالإبادة المتعمدة العامة أو الجزئية. كما إن الإبادة العامة أو الجزئية لجماعة سياسية لا تُدرج تحت بند الإبادة، وبالمثل إبادة ثقافة شعب ما!!.

ومن أكثر الأمور غرابة فى هذه المعاهدة المتناقضة الفحوى أنها تنص على ضرورة وجود «نية مبيتة» لاعتبار الجريمة جريمة إبادة!! مما يسمح للحكومات بالاختباء خلف أدلة قانونية لتبرير ما تقترفه من اغتيالات جماعية أو فردية، ولا أدل على تلاعب الحكومات بالمسميات القانونية من المجازر الناجمة عن الغزوات الاستعمارية أو ما أعقبها من احتلال ومذابح – وإن كانت هذه المذابح تتم تحت زعم السيطرة على السلطة أو الصراع عليها بين فصيلتين عرقيتين.

وهناك نمط آخر للإبادة غير مدرج فى بنود معاهدة (١٩٤٨م) هذه، وهو يتعلق بالجماعات السياسية وعمليات الطرد الجماعية أو القتل التى تدفع إليها السلطات الحاكمة، من قبيل طرد الفلسطينيين من أراضيهم والعمل على إبادتهم ببطء، ومثل تلك المجازر الدائرة فى البوسنة والهرسك، والتى تجمع بين طياتها كل المحرمات اللاإنسانية.

وينص البند الثالث على اعتبار إبادة «جماعات إنسانية» فعلاً إجراميًا إذا ما كان هناك «اتفاق مسبق» أو «نية مسبقة» للقيام بها أو لتنفيذها! كما أن المعاهدة تنص على معاقبة الإجراءات الاستعدادية لهذه الجرائم.

ولم يمنع النص على عقاب القائمين بأمر جريمة الإبادة هذه من اقترافها لأن قمعها يرتطم بعقوبات قانونية وسياسية وتتلخص فى فجوات ومسالب فى قانون العدل الجنائى الدولى. فمن الوهلة الأولى يبدو أن كل شىء قد تم بحثه فى هذه المعاهدة إذ أن البند الرابع منها ينص على أن كافة الأشخاص الذين ارتكبوا هذه الجريمة لابد من عقابهم أيًا كانت صفتهم:

حكامًا أو موظفين أو أفرادًا عاديين.. وبذلك تم استبعاد المسئولية القضائية للدول والحكومات فى حين أن هذه الاغتيالات مرتبطة بالدولة بشكل معلن أو ضمنى.. وبما أن جريمة إبادة جماعات إنسانية تعد جريمة سياسية من الدرجة الأولى، فإن مرتكبها يكون لديه دائمًا فرصة الإفلات من العقاب. ومما له مغزاه أن العديد من الدول لم يوقع على هذه المعاهدة، ومنها الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة البريطانية!.

ولم نشر إلى هذه المعاهدة إلاّ لتوضيح عدم جدوى محاولة اللجوء إلى المؤسسات الدولية الغربية، فكلها متواطئة بصورة أو بأخرى فى تلك اللعبة الدائرة حاليًا من محاصرة مميتة للإسلام والمسلمين، يتوقع لها البابا يوحنا بولس الثانى أن تتم قبل الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر عام ألف وتسعمائة وتسعة وتسعين!! (جوردون توماس وماكس مورجن ويت: فى **دهاليز الفاتيكان** ١٩٨٣م). وعدد من السنوات من تاريخ صدور ذلك الكتاب، وتضافر الأحداث وسرعة إيقاعها حتى يومنا هذا غنية عن أى تعليق..

وبصرف النظر عن ردود الأفعال المختلفة حيال هذا التنبؤ، واندلاع الهجمات الضارية على الإسلام فى كافة البلدان، تعد من المؤشرات التى لها مغزاها كما أن تتبعها فى أهم أماكن الصراعات الدائرة حالياً تكشف عن ترابط ابعاد هذا المخطط. ولن نتناول هنا إلاّ أهمها باقتضاب حيث إنها تعد من أحداث الحياة اليومية، ووقائعها مطروحة على الملأ بالرغم من عمليات التعتيم والتمويه.. وإن كان الغرض منها واحدا ألاّ وهو: فرض الوصايا الغربية المسيحية على العالم الثالث، الذى وصموه بتعبير: «البلدان النامية» متناسين أن تخلفه ناجم عن استعمارهم له، وامتصاصهم لثرواته البشرية والطبيعية والاقتصادية بعامة.. وهنا يقول رنيه ديمون R. Dumont: «فى العشرين سنة الماضية تم استخراج ثروات من العالم الثالث أكثر مما تم استخراجه طوال القرن الماضى (**تلك الحرب التى تغزينا** ١٩٩٢، صفحة

١٨٠).. وكلها مخططات تتم بواسطة تعديل البنيات الاقتصادية، التى يفرضها «صندوق النقد الدولى» و«البنك الدولى»، إلى جانب الإجراءات السياسية والعسكرية والتبشيرية.. وخاصة تلك الحروب والقلاقل التى لم تهدأ فى العالم العربى منذ غرس الكيان الصهيونى الاستيطانى فى قلب فلسطين المحتلة عام (١٩٤٨م).

لقد بدأت حرب العراق - إيران يوم (١٩٨٠/٩/٢٢م) واستمرت ثمانية أعوام، لم تكف خلالها فرنسا عن إمداد العراق بالسلاح «بموجب أكبر اتفاقية عسكرية عرفها القرن العشرين» (المرجع السابق صفحة ٢٥). وقد ساند الغرب والمؤسسات البترولية العالمية هذه الحرب التى لم يكف البترول خلالها عن التدفق إليها.

وإذا ما كان الغرب قد استخدم صدام حسين لضرب لبنان قبل ذلك، فها هو يسانده مرة أخرى طالما أن الضارب، والمضروب بلدان مسلمة!.

واستغلت إسرائيل هذه الأحداث لضرب المفاعل النووى العراقى فى يونيو عام (١٩٨١م)، ثم لتغزو لبنان فى العام التالى.. وأيًا كانت الأسباب والمزاعم فالنتيجة هى إبادة وجرح ملايين من العرب، وهدم القوى العسكرية التى تجاور إسرائيل.. وتكديس الثروات فى خزائن الغرب..

وفى الثانى من أغسطس (١٩٩٠م) اندلعت حرب العراق / الكويت. ولم يتح للعقل العربى أن يتروى الأمر إذ إن الولايات المتحدة بادرت بإرسال قواتها لتفرض ما أطلقت عليه «عاصفة الصحراء».. تلك العاصفة التى تضافر فيها الغرب لاغتيال الشعب العراقى البرىء من حرب، أجمع كل المعلقين السياسيين فى الغرب على أنه كان من الممكن تفاديها بل كان لابد من ذلك.

وكانت صرخة قائدها المسعورة لقواته: «دكّوهم حتى يعودوا إلى العصر الحجرى» (المرجع السابق).

وتم دك البنية الأساسية للعراق وكافة مؤسساته ومنشآته المدنية. وذلك بواسطة تسعين ألف طن من القنابل، التى تولى قادة الولايات المتحدة العسكريون توجيهها بغل عشوائى متعمد لا تفسير له إلاّ الرغبة الدؤوب فى إبادة شعب من الشعوب العربية، والتخلص من أية إمكانيات عسكرية تجاور إسرائيل.

ولا يمثل الحظر الجوى والعقوبات التى كانت مفروضة على العراق إلاّ امتدادًا مُقنعًا لحالة الحرب واستمرارًا للقتل البطىء لشعب بأسره، فأيًا كان الموقف من حاكمه، فهو فرد واحد، ولم تكن الولايات المتحدة بكل جبروتها ومخابراتها لتعجز عن التخلص منه - الأمر الذى يكشف حقيقة الموقف.. ذلك الموقف الذى يقول عنه «رنيه ديمون»: «أن حرب العراق عبارة عن تحذير لبقية البلدان العربية فى المنطقة؛ لتذكرها بأنه لا يمكن تحدى القوى العظمى الأولى العسكرية الصناعية، وإلاّ لواجهت نفس المصير»!، ذلك إذا غضضنا الطرف عن اللعبة القذرة التى باتت أوراقها مكشوفة عن الدور الأمريكى فى تحريك صدام حسين للاستيلاء على الكويت.. مع الإصرار على تقسيم العراق بشكل مقنّع بضرب الجنوب حينًا وتوصيل المعونات للشمال حينًا آخر.

وها هى نفس عملية الموت البطىء تُفرَض على ليبيا منذ شهر أبريل عام ١٩٩٢ بسبب حادثة طائرة مشكوك فى مصداقية التهمة الملصقة بفاعليها، وليس الدليل الذى وجده الغرب فى «زرار بدلة» وسط أنقاض الطائرة المتفحمة المتناثرة، ليتعرف من خلاله على شخصين ليبيين إلا ذريعة رخيصة ساخرة لفرض الحظر على الشعب الليبى، ليعانى نفس المصير بصورة مختلفة.. مع فرض تأكيد قوة النظام العالمى الجديد بزعامة أمريكا وتواطؤ منظماتها المتعددة..

أما عن حرب الإبادة الدائرة فى البوسنة، أو تلك الفضيحة الدولية التى تعجز الكلمات عن وصفها، التى لا تشهد على تواطؤ الغرب فحسب،

وإنما على امتداد تواطئه إلى بعض حكام أمة الإسلام الخاضعين له، لتصفعهم فردًا فردًا.. فقد أعلن «ليفنستون» الرئيس السابق لمفوضى الأمم المتحدة لشئون اللاجئين فى البوسنة: «أن اغتصاب النساء المسلمات لم يعد نوعًا من الجرائم التى يرتكبها الأفراد على نطاق واسع فحسب، وإنما أصبح جزءًا فى السياسة الصربية، وأحد المحاور الأساسية لعملية التطهير العرقى.. الذى يجرى تنفيذه ضمن الأساليب الأخرى المعروفة: الفصل من العمل والقتل فى الشوارع والإعدام على الملأ، فضلاً عن ترويع الناس بإحراق البيوت وهدمها.. إن مسألة الاغتصاب المنتظم يجب ألاّ ينظر إليها منفصلة عن سياق التطهير العرقى التى عمد إليها الصرب أو استهدفوا إجلاء أكبر عدد من السكان المسلمين من الأراضى وتدمير معنوياتهم» (**الأهرام** ١٩٩٣/١/٥م) نقلاً عن جريدة **الجارديان** البريطانية فى ٩٢/١٢/٢٧). ولن يتمكن إدراج كل ما تقدم - علمًا بأنه يدور على الملأ وفى وضح النهار - لإدانة قائد الصرب بموجب معاهدة جنيف، فلن تخرج الإجابة عن أنه لم يكن فى «نيته» أن يقوم بما اقترفه!..

وفى خطابه السنوى بمناسبة الاحتفال بعيد الميلاد المجيد، فى الرابع والعشرين من ديسمبر (١٩٩٢م)، أعلن نيافة البابا يوحنا بولس الثانى إدانته للمعارك الدائرة فى يوغسلافيا ثم ناشد المسئولين السياسيين فى العالم بأسره «أن يسمعوا لصوت المسيح فى السهر على مصير الشعوب.. اسمعوا صوت الحب الحنون القوى يا من تشهرون أسلحة العنف والقتال»!!! (**جريدة ليموند** ٢٧- ١٩٩٢/١٢/٢٨م).. وكان سكرتير الدولة الفاتيكانى قد أعلن «أن الفاتيكان سوف يؤيد نوعًا من الإجراءات لوقف القتال فى البوسنة».

وقبل ذلك بيومين كان «سفاح صربيا يعلن رفض العالم قيام دولة مسلمة فى البوسنة قائلاً: إنه من غير المقبول وجود دولة مسلمة فى قارة أوروبا كلها» (**الوفد** ٩٢/١٢/٢٧م) وكان قد أعلن ذلك مرارًا من قبل.

ولا تعليق لنا على تلك الأنشودة التى ترنم بها نيافة البابا، ولا على «صوت الحب الحنون» الذى يواجه به عمليات القتل والإبادة الدائرة باسم المسيحية، واغتصاب خمسين ألف مسلمة، أعمارهن ما بين سن السادسة إلى ما فوق الستين، واغتيال الأطفال فيما فوق العاشرة أو تنصيرهم جماعيًا.

ترى هل نسى نيافته مساعيه وتصريحاته للحد من الصراع الدائر فى إيرلندا عندما زارها عام (١٩٧٩م)؟ أم أن رفضه للعنف ومساعيه للسلام التى تتجاوز دور الكلمات قاصرة على النزاع بين دولتين مسيحيتين؟!

ولا تعليق لنا إلى كافة المسلمين الأجباس القُعود، المتواطئين بالصمت إلاّ أن نقول لهم: إن الإسلام يُغتصب فى مسلمات البوسنة ورجولتكم تُنتهك فى صمتكم البهيم.

ولا يمثل تدخل الغرب فى مجاعة الصومال ومنازعاتها التى تم تدبيرها منذ أعوام، إلاّ ستارًا يتلفع «بعودة الأمل» لإقامة قاعدة عسكرية جديدة فى أفريقيا عند مدخل البحر الأحمر، يستكمل بها قواعده الحربية التى تمثل استعمارًا جديدًا «يدك» به أية محاولات استقلالية، أو إسلامية فى المنطقة؛ وليعود بها إلى العصر الحجرى.. إلى جانب قيام أشهر أربع شركات أمريكية بنهب أكبر مستودع بترولى تم اكتشافه فى تلك المنطقة!

وها هى الحقيقة تتكشف سريعًا: فما كاد العراق يوم (٩٢/١٢/٢٧) يخترق مجاله هو - نفسه الجوى -، والمحظور عليه اختراقه منذ ٢٧ أغسطس (١٩٩٢م)، ويخترقه لأول مرة، حتى تم «دك» الطائرة وإسقاطها فورًا، وبادر «بوش الأب» فى اليوم التالى (١٩٩٢/٢٨) بإرسال حاملة طائرات أمريكية من طراز: «س س هوك» عليها أكثر من سبعين طائرة حربية، قادمة من الصومال - ولا نعتقد أن مجاعة الصومال كانت بحاجة إلى كل هذا الحشد العسكرى - وهى حاملة طائرات «على استعداد للرد حسبما تأتى التطورات»!!

ولا نملك إلاّ أن نسأل السيد «بوش الأب» - الذى قام «رمزى كلارك»، وزير العدل الأمريكى الأسبق، باتهامه كمجرم حرب، ووجه إليه تهمة «جرائم ضد السلام، وجرائم حرب، وجرائم ضد الإنسانية، وأفعال أخرى إجرامية تمت، وتعد خرقًا لميثاق الأمم المتحدة، والقانون الدولى، ودستور الولايات المتحدة والقوانين التى تتبناها سياساتها» (**تلك الحرب التى تخزينا** صفحة ٩٩) - ترى أين حماسه الحاسم الباتر، وضميره المتيقظ حيال العدد الذى لا يحصى لاختراق الصرب المجال الجوى للبوسنة؟! أو اختراقهم قرارات الأمم المتحدة؟ ومواصلة ارتكاب إسرائيل لمختلف أنواع جرائم الحرب، التى تحتم محاكمة مرتكبيها، واستمرارها اختراق قرارات الأمم المتحدة باحتلالها القدس وفلسطين والأراضى العربية؟!

إن كل ما نطالعه أنه «ما زال يفكر.. وساسة الغرب مازالوا يفكرون».. وها هو وزير خارجية فرنسا يعلن أن تحذير «بوش الأب» للعراق «يمكن» أن يكون «ذات يوم» تحذيرًا للصرب فى الأيام القادمة.. وما زال الكل يفكر ويسوّف، والسيد «الأمين» العام يحذر من اتخاذ اى قرار أو من محاولة استخدام القوة ضد الصرب!!.. وبين التخاذل والتسويف والتلويح والتشدق بالعبارات، تتم إبادة أمة بأسرها ذبحًا واغتصابًا.

وها هو خليفة «بوش الأب» الجديد يسارع بالتعهد - حتى قبل أن يتولى مهام منصبه رسميًا - بتنفيذ الحظر، والتوعد الذى تم فرضه على العراق، ومواصلة نفس النهج فى استنفاد موارد الدول العربية، وامتصاصها حتى لا تترك إلاّ وهى نخرة!.

أما عن بؤرة الصراع الجديدة القديمة الدائرة فى الهند،تلك الهند، التى قسمها الاستعمار البريطانى تقسيمًا يرمى إلى عزل المسلمين وإقامة الحروب العرقية، التى لا تكف عن التطاحن.

فليست مسرحية هدم مسجد بابرى الاستفزازية إلاّ من قبيل ما يطلق

عليه الموسيقيون «البروفة جنرال» أى البروفة العامة الأخيرة. وذلك فى ظنى الذى أتنبأ به - لجس نبض المسلمين ودراسة ردود أفعالهم عندما يقوم الغرب الصهيونى بهدم المسجد الأقصى!!. فلقد أعلن كلينتون فى حملته الانتخابية أنه سيعترف بالقدس رسميًا عاصمة لإسرائيل على الرغم من أنها جزء لا يتجزأ من الضفة الغربية، وعلى الرغم من قرارات الأمم المتحدة.. كما تسربت الأخبار - سواء من باب الخطأ أو العمد - بأن هيكل سليمان قد تم بناؤه بنظام المبانى السابقة التجهيز، حتى لا تستغرق إقامته إلاّ سويعات!.. وهو ما يتفق مع استمرارهم القيام بتقويض بنيان المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة.

ولا تأتى الإشارة إلى الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة إلاّ لمواكبته بأفعاله المتواصلة فى هذه الأحداث، وقيامه منذ عام (١٩٤٨م) بعمليات القتل والقمع والتطهير العرقى والاغتصاب المادى والمعنوى، وأخيرا وليس آخرا ما قام به من طرد ٤١٨ فلسطينيًا انتقامًا لمقتل ضابط واحد من جنود احتلاله.. بينما محادثات السلام المزعومة تترنح. وهؤلاء المبعدون وهم من صفوة الفلسطينيين، من أساتذة الجامعات والأطباء والصيادلة والمهندسين أو - حتى على حد زعمهم - من النشيطين الحركيين البارزين، ملقون فى العراء وتَمنَع عنهم المعونات، ويحرمون قهرًا من العودة إلى ديارهم.. وما زال الغرب يفكر والمستعمر الصهيونى يتعنت، بينما يفوت الوقت، والمبعدون محاصرون بالبرد وبنيران القذائف وبالصمت المهيب.

ومن الطريف أن نطالع أن مجلس الأمن قد أدان إسرائيل بالإجماع لطردها ٤١٨ فلسطينيًا، وذلك بقراره رقم ٧٩٩ موضحًا أن هذا التصرف يخالف الاتفاقية الرابعة لجنيف.. وعلى الرغم من هذه الإدانة الجماعية «فإن إسرائيل لم تعبأ كثيرًا بهذا القرار؛ **لأنه صدر بدون تحديد أى التزام أو أية عقوبات**»! (**ليموند** ١٩٩٢/١٢/٢٠م).

وليست هذه إلاّ شذرات لذلك التعصب المقيت، فقرار طرد الفلسطينيين الأربعمائة وثمانية عشر يمثل جزءًا لا يتجزأ من تلك المذابح الجماعية، التى ترتكبها إسرائيل منذ غرسها لاحتلال الوطن العربى، ومنها مذبحة الفلسطينيين فى ساحة المسجد الأقصى عام (١٩٩٠م)، وهى جزء من المخطط الذى أعلنه «موشى ديان» **للصنداى تايمز** فى ١٩٦٧/٩/١٠م إذ يقول:

«إن هناك مليون يهودى جاءوا محل العرب، وسواء اعتبر هذا العمل أخلاقيًا أم لا، **فالحقيقة هى أنه لا يوجد مكان للعرب فى إسرائيل**»!!

وكيف لنا أن ننسى «دير ياسين» و«كفر قاسم» وكل ما يتم من قتل جماعى؟

وإذا ما ربطنا المشروع الإسرائيلى الذى تم إعداده فى الثمانينيات، على أيدى مجموعة من خبراء الأمن والسياسة العسكريين، والذى كان يرمى إلى تفتيت العالم المحيط بها إلى دويلات صغيرة، وذلك عن طريق استغلال النزعات الاستقلالية الإقليمية العرقية والدينية والطائفية، وتشجيعها إن لم يكن تحريكها، لأدركنا المغزى الحقيقى لما دار من أحداث ولا يزال يدور فى العالم العربى..

بل وإذا ما ربطنا كل هذا بما أعلنه البابا يوحنا بولس الثانى عام ١٩٨٥م عن القضية الفلسطينية، وأن الشرق الأوسط يمثل جزءًا من الاهتمامات الرئيسية للكرسى الرسولى «وأن البابا ودبلوماسيته سيواصلون البحث بحيوية عن وطن لمنظمة التحرير الفلسطينية»!!! **(رسل الفاتيكان**، ١٩٨٥م صفحة ٣٧٢) لأدركنا حقيقة المخطط: فإلى أن يتم البحث عن وطن آخر للمنظمة لن يكون هناك ما يطلق عليه «الشعب الفلسطينى»!..

ولا نملك إلاّ أن نذكر تعليقًا صحفيًا يجمع بين الحديثين السابقين يقول: «لقد أثار طرد ٤١٨ فلسطينيًا قلق البابا يوحنا بولس الثانى، الذى كان

يأمل فى مباحثات السلام فى الشرق الأوسط إذ كانت ستسمح له بالاعتراف الكامل القطعى بدولة إسرائيل، والحد من العداء اليهودى المسيحى الذى دام ألفى عام، وأن يحمى مصالح الأقليات المسيحية فى البلدان العربية بشكل أفضل... **إن الاعتراف الكامل بإسرائيل من قبل الكنيسة الكاثوليكية يعد حدثًا له اعتباره من الناحية الرمزية والسياسية**.. وقد تم إنشاء لجنة ثنائية بين الكرسى الرسولى وإسرائيل.. وبإعلانه الذهاب إلى السودان فى شهر فبراير القادم (١٩٩٣م) فإن الباب يتحدى الأصوليين الإسلاميين.. وإذا ما كان لاعتراف البابا بدولتين كاثوليكيتين هما: سلوفينيا وكرواتيا له ثقله فى تفتيت الاتحاد اليوغسلافى، فإن البابا يجاهد حاليًا فى ربط الحوار مع الصرب الأورثوذكس..»!! (**ليموند** ٢٧-١٩٩٢/١٢/٢٨م) وما نود التأكيد عليه هنا أن الاعتراف الكامل بإسرائيل لم يكن «دينيًا بحتا» كما أكدوا للحكومات آنذاك، وإنما هو اعتراف سياسى من الدرجة الأولى.

ومن سياق الأحداث السابقة ندرك مدى تدخل البابا فى الساحة السياسية العالمية، على الرغم من أن الديانة التى يترأسها أخروية لا علاقة لها بالشئون الدنيوية. لذلك نتناول باقتضاب ذلك الدور الذى تقوم به الكنيسة بعامة، والدور الذى يقوم به قداسته بصفة خاصة.. فمن المعروف أنه منذ أن تولى الأسقف البولندى «كاول فويتيلا» رئاسة الفاتيكان تحت اسم «يوحنا بولس الثانى»، فإن ذلك لم يضع حدًا للسيطرة الإيطالية على البابوية منذ أكثر من أربعة قرون فحسب، وإنما يكشف عن مدى توغل المخابرات الأمريكية وسيطرتها على الكرسى الرسولى الذى له علاقات سياسية دبلوماسية فى جميع أنحاء العالم.

ويقول جوردون توماس وماكس مرجان - ويت فى كتابهما الثانى المشترك عن **رسل الفاتيكان** (١٩٨٥م): «إن العلاقات مع الأمريكان قد تحسنت. وأن رجال الكهنوت الأمريكان قد أقاموا علاقات وطيدة مع «يوحنا

بولس الثانى» لم تكن قائمة مع سابقيه» (صفحة ٩).

وعلى الرغم من إعلان الصحفيين عدم توغلهما فى تفاصيل الفضيحة المالية الماسونية التى ألقت بظلالها على نيافته، وعلى علاقات الكنيسة بالدولة وبالماسونية (صفحة ٩)، فهما يؤكدان على الدور السياسى الدبلوماسى، الذى يقوم به نيافته بدءًا برئيس حرسه الرسمى، وهو من رجال الدين الذى يحمل جهازًا للإنذار، أحد أزراره الثلاثة متصل بالبوليس، والآخر متصل بمسئول المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) بالسفارة الأمريكية فى روما (صفحة ١٣)، وأن جهاز المخابرات المركزية يمثل أحد أهم مستشارى الفاتيكان فى شئون المعلومات بالإضافة إلى تعاونهما مع جهاز الموساد!!.

ولقد تأصلت العلاقات وتوطدت بين الكيانين (الأمريكى والفاتيكانى) لضرب عدوهما المشترك فى بولندا أولاً ثم فى عقر داره، حيث انتهى الأمر بانهيار الاتحاد السوفييتى فى أواخر عام (١٩٩١م).

ولا يسع المجال هنا لتناول الدور الذى لعبه البابا فى قلب نظام الحكم فى بولندا، ولا تدخله شخصيًا للإفراج عن «ليخ فاونسا» عندما اعتقل فى بداية مشواره السياسى عام (١٩٨٢م) تحت راية حزب (التضامن).. وهو الاسم المأخوذ من إحدى خطب البابا بعد استئذانه - وكانت تدور حول ضرورة «التضامن الجماعى».. وبذلك قد أعلن نيافته عن موافقته على تدخل الكنيسة فى الشئون السياسية الخارجية (صفحة ٣٦ - ٣٧).. وكانت بولندا آنذاك بمثابة حقل التجارب أو التجربة العامة قبل تطبيقها على البلدان السوفيتية فيما بعد.

ثم يتناول الصحفيان التدخلات السياسية فى البلدان الأخرى مرورًا بلبنان، حتى يصلا إلى القارة الأفريقية قائلين: «إن الولايات المتحدة لن تسمح أبدًا بالحد من سيطرة البيض علي جنوب أفريقيا فهى وحدها التى تسمح بحرية تحرك الأساطيل الغربية فى هذه المنطقة» ولا ننسى أن الكتاب صادر

عام ١٩٨٥م).

وبالتضافر مع جهود «الموساد» تم اتخاذ قرار اندلاع الثورة فى جنوب أفريقيا. ولا نذكر ذلك إلاّ للإشارة إلى الدور الذى يمثله تواجد القوات الأمريكية فى الصومال حاليًا و«عودة الأمل» إلى مصالحها ومخططاتها الاستعمارية فى شكله «الإنسانى» الجديد الذى بدأت «إنسانيته» تنعكس على العراق، وتتقاعس عن البوسنة والهرسك!!

وتدفعنا مقولة «البحث عن وطن آخر لمنظمة التحرير الفلسطينية»، على الرغم مما بها من إجحاف لإغفال حتى اسم الشعب الفلسطينى، أن نعود إلى تناول دور ذلك التعصب الأكمه، وتقاربه المغلوط من الإسرائيليين، وتعنته الدءوب ضد الإسلام والمسلمين.. وذلك بتناول الموقف غير الرسمى أو غير المعلن للمجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى، واللقاءات التى سبقته أو أعقبته.

ونبدأ بما يتضمنه الكتاب المعنون «**فاتيكان اثنين**» (١٩٦٦م) الذى يتضمن الجلسات التمهيدية لإعلان موقف الكنيسة وعلاقاتها بالديانات غير المسيحية.. ومن اللافت للنظر أن تأتى دراسة الدين الإسلامى، من حيث الترتيب، بعد الديانة الهندية والبوذية.. بل والأكثر سخرية أن يقول الأب كاسبار Caspard فى مطلع بحثه: إن دراسة الإسلام فى هذا المجمع لم تطرح إلاّ بشكل عرضى وغير متوقع.. أى إنه لم يكن فى الحسبان.. بل لقد هاله صمت ممثلى الكنائس الشرقية، وعدم قيامهم بالإشارة إلى الإسلام فى اجتماعهم، وكأنهم لا يعيشون فى تواجد متواصل مع الإسلام والمسلمين!.

والأب «روبير كاسبار» هو أستاذ علم الدين الإسلامى فى المعهد البابوى للدراسات العربية فى روما، ومستشار السكرتارية لغير المسيحيين. وأثناء انعقاد جلسات المجمع كان عضوًا فى اللجنة الفرعية الخاصة بالإسلام فى سكرتارية وحدة المسيحيين.

وبدأ الآب «كاسبار» بتوضيح الحذر الشديد أو القدر الشحيح فى تناول قضية الإسلام فى دورته الثانية عام (١٩٦٢م) ثم أخذ يوضح كيف بدا الأمر وكأن الدين الإسلامى لا يدخل فى اهتمامات الأساقفة، وكيف أن المسئولين منهم عن عمليات التبشير، لا يتحدثون عنه إلا فيما ندر ذلك لأنهم يعتبرون: «أن الإسلام خطأ مطلق لابد من رفضه؛ لأنه يمثل خطرًا بالنسبة للكنيسة ولابد من محاربته» (صفحة ٢٠٢).. ولو أن البعض يرى أن هناك شذرات من الحقائق وأوجه الشبه بين المسيحية والإسلام، ولابد من تنميتها.. ولقد أثيرت قضية الإسلام؛ لأن البطريارك ماكسيموس الرابع قد أوضح أنه لا يمكن للمجمع أن يتحدث عن اليهود دون أن يتناول الديانات الأخرى وخاصة الإسلام.

وبدأت أولى المبادرات الفعلية المتعلقة بالإسلام فى دور (١٩٦٤م)، وعهد إلى لجنتين كتابة فقرة خاصة بالإسلام لتدرج فى الوثيقة الرسمية للمجمع، وتناولت إحدى اللجان الموضوع، وعلاقة الكنيسة مع «الذين لم يتقبلوا الإنجيل بعد»!.. وجاءت صياغة الفقرة على النحو التالى: «وأبناء إسماعيل ليسوا غرباء أيضًا على الرسالة التى نزلت على الآباء؛ لأنهم يعترفون بإبراهيم كآب لهم، ويؤمنون أيضًا برب إبراهيم» (المرجع السابق صفحة ٢٠٣).. وكان النص مصحوبًا بهامش يوضح أن «أبناء إسماعيل» هؤلاء هم المسلمون.

وفى أثناء انعقاد هذه الدورة وقعت ثلاثة أحداث لفتت أنظار العالم إلى الديانات الأخرى غير المسيحية وخاصة الإسلام، وهى زيارة البابا «بولس السادس» للأراضى المقدسة، والتى أرسل أثناءها أكثر من تحية للمسلمين ثم تشكيل السكرتارية الخاصة بدراسة الأديان غير المسيحية عام (١٩٦٤م) وقد أضيفت لها لجنة فرعية عام (١٩٦٥م) خاصة بالإسلام ثم نشر بيان بولس السادس فى ١٩٦٤/٨/٦م الذى أقر فيه الحوار مع الديانات الأخرى غير المسيحية وخاصة مع الإسلام.

وعلى الرغم من قصر النص الذى أشاروا به إلى الإسلام إلاّ أنه قوبل

باعتراض جامح من أغلبية الحاضرين عند التصويت عليه فى المجمع.. وذلك اعتراضًا على أن تعبير: «ليسوا غرباء على الرسالة التى نزلت على الآباء» قد يفهم منها «حل للمسائل الصعبة والتى دار حولها الجدل طويلاً من قبيل: سلالة العرب من إسماعيل وخاصة ربط الإسلام بالرسالة الإنجيلية» (صفحة ٢٠٥) «ولكى لا يبدو الأمر وكأن الله قد خاطبهم أيضًا»!! مما يؤكد كل ما قاموا به من تحريف متعمد يتنصلون منه شكلاً أو ظاهريًا..

وتم تعديل النص حتى تستبعد الإشارة إلى أن العرب من سلالة إسماعيل وبالتالى استبعاد قرابتهم السلفية لإبراهيم وللمسيحيين أو أنهم أبناء عمومة.. واعترض البعض ثانية عند التصويت على الصياغة التى تم تعديلها، وفى الجلسة الرابعة تم الاقتراع بعد التعديل النهائى بموافقة ٢٢٢١ أسقفًا، واعتراض ثمانية وثمانين أسقفًا.

والتعديل الأخير يضع سيدنا إبراهيم فى موضع «النموذج الذى يحتذى به المسلمون فى إيمانهم لخضوعه لرغبة الله، ولا يضعه فى أصل سلالتهم ولا فى موضع جدهم الأول، على عكس الصياغة الأولى، التى كانت تبدو تأكيدًا لانحدار العرب من ابنه البكر المفدى، إسماعيل، وتأكيدًا لشخصيته كما وصفها القرآن (صفحة ٢٢٠).

ولقد حاول الأب روبير كاسبار «تبرير موقف المعترض قائلاً: إن لقاء الإسلام والمسيحية قد وقع منذ البداية فى سوء فهم، وقد استمر لمدة قرون طويلة فى عداء سافر، وعلى أصوات السلاح والمناقشات الدينية العنيفة الناجمة عن الانتشار السريع للإسلام فى عصوره الأولى.. الأمر الذى أدى إلى تراجع المسيحية فى كثير من البلدان». وأوضح كيف أنه بعد الحروب الصليبية قد «عاد الغرب إلى الهجوم، واحتل معظم البلدان الإسلامية تحت شكل الاستعمار المباشر أو الحماية، وأن المرحلة الأخيرة، والتى لم تنته بعد هى مرحلة التحرر من الاستعمار بشكل متدرج أو عنيف، الأمر الذى أدى إلى

تحرير معظم البلدان الإسلامية»! (صفحة ٢٠٩).

ثم يوضح «كاسبار» أن كل محاور المناقشات الجانبية للمجمع تدور حول كيفية الإحاطة أو كيفية الاستحواذ على الإسلام وامتصاصه أو إذابته داخل المسيحية. ولم يتغير هذا الموقف الذى بدأ منذ ظهور الإسلام، بل ومن قبل ظهوره - كما سبقت الإشارة لذلك - عندما كثر الكلام بين الأحبار ورجال الكهنوت على السواء، عن اقتراب مجيء الرسول الذى بشر به السيد المسيح، فقام مجمع «نيقية» - كما رأينا - بتأليهه لوصد الباب نهائيًا أمام سيدنا محمد ﷺ.. فبعد الله ومنزلته الجليلة لا يوجد أى شيء.

وها هو الكتاب الدينى الجديد، الصادر فى نوفمبر ١٩٩٢م يؤكد حقيقة هذا الموقف.. ففى البند التاسع من «عقيدة الإيمان بالكنيسة الكاثوليكية المقدسة»، فى النقطة الثالثة التى تنص على أن الكنيسة كاثوليكية، وأن كل كنيسة خاصة هى كاثوليكية، يأتى الجزء الذى ينص على موقف الكنيسة من غير المسيحيين ويبدأ بالعبارة التالية: «أما فيما يتعلق بالذين لم يتقبلوا الإنجيل بعد، بأشكال مختلفة، فهم أيضًا مأمورون بأن يصبحوا شعب الله (صفحة ١٨٤):

علاقة الكنيسة بالشعب اليهودى

إن الكنيسة، شعب الله فى العهد الجديد، اكتشفت علاقتها بالشعب اليهودى «الذى تحدث الله إليه أولاً» **وذلك بالتقصى، فى أسرارها الذاتية**، وعلى خلاف الديانات الأخرى غير المسيحية، فإن العقيدة اليهودية تمثل إجابة لما أنزله الله فى العهد القديم. ذلك لأن «الذين هم إسرائيليون، ولهم التبنى والمجد والعهد والإشراع والعبادة والمواعيد ولهم الآباء، ومنهم المسيح **حسب الجسد** (رومية ٩: ٤-٥) لأن «هبات الله ودعوته هى بلا ندامة» (**رومية** ١١: ٢٩).

وقبل الانتقال إلى النقطة التالية التى تتعلق بعلاقة الكنيسة مع المسلمين، لابد من وقفة نشير خلالها إلى الآية الواردة فى النقطة السابقة، والتى تنص على أن «**لهم الآباء ومنهم المسيح حسب الجسد**» التى يؤكد بها بولس الرسول قرابة اليهود وانتماءهم للسيد المسيح «حسب الجسد».. فبعدها بآيتين اثنتين من نفس الإصحاح التاسع نراه يستبعد إسماعيل ونسله من نسل سيدنا إبراهيم لنفس ذلك السبب قائلاً وبإصرار: «لا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولاد. بل بإسحاق يدعى لك نسل أى ليس أولاد الجسد هم أولاد الله بل **أولاد الموعد** يحسبون نسلاً!!.

ولا نملك إلاّ أن نتساءل بكل أسف: أما من نهاية لهذا التحريف وهذا التلاعب بالألفاظ؟! كيف يمكن التأكيد على قبول اليهود «حسب الجسد» واستبعاد إسماعيل، لأنه ابن إبراهيم «حسب الجسد»؟!».

ومن المعروف والثابت فى سفر التكوين أن إسماعيل أتى بالموعد والبشارة قبل إسحاق بأربعة عشر عامًا، وقد أتى إسحاق أيضًا بالموعد والبشارة مثلما أتى «يوحنا المعمدان» بالموعد والبشارة وبعده بستة أشهر أتى المسيح أيضًا بالموعد والبشارة، وقد كلمه الله «ثانيًا» مثلما كلم موسى «أولاً».. فلماذا استبعاد إسماعيل، والنبى القادم من نسله والذى كلمه الله ثالثًا وأخيرًا؟! لماذا هذا الاستبعاد وأنتم تعرفونه علم اليقين؟!.

أما فى النقطة التالية التى تتعلق بعلاقات الكنيسة مع المسلمين فنقرأ منها: «إن هدف الخلاص يتضمن أيضًا من يعترفون بالخالق، وأولاً المسلمون الذين يؤمنون بإبراهيم ويعبدون معنا الله الواحد، الرحيم، حاكم الناس فى اليوم الآخر».

وتعترف الكنيسة للديانات الأخرى ببحثها عن الله وهو بحث «مازال فى الظل وتحت الصور».. لذلك تعتبر الكنيسة كل ما هو طيب وحقيقى فى هذه الديانات «بمثابة إعداد إنجيلى وهبه من الذى يغير كل إنسان لكى يحصل،

أخيرًا على الحياة» (صفحة ١٨٥) و«هدف الخلاص» هذا يعنى ضرورة فرض المسيحية الكاثوليكية على الإسلام وعلى العالم أجمع!!.

ثم يوضح الكتاب كيف أنه لا يوجد خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكية، وأنه من واجبها المقدس تبشير كل الذين مازالوا يجهلون الإنجيل (صفحة ١٨٦)، وكيف أن المجهود التبشيرى يتطلب صبرًا (صفحة ١٨٧)، «وأن عملية التبشير تبدأ بالتبشير بالإنجيل إلى الشعوب والجماعات التى لا تؤمن بعد بالمسيح، وتستمر بإقامة جماعات مسيحية تعد بمثابة «علامات على وجود الله فى العالم»، وفى إقامة كنائس محلية، وبدء عملية محو ثقافى لتجسيد الإنجيل فى ثقافات الشعوب... وفيما يتعلق بالناس والجماعات الإنسانية والشعوب، فإن الكنيسة لا تصل إليهم، ولا تتوغل فيهم إلاّ بالتدريج، وبذلك تستحوذ عليهم فى شمولية الكاثوليكية»!! (الفقرتان رقم ٨٥٤، ٨٥٥ صفحة ١٨٧- ١٨٨).

ذلك هو المخطط المعلن فى كتاب «الكنيسة الكاثوليكية» الصادر فى نوفمبر (١٩٩٢م)، والذى يعد بمثابة توجيه إجبارى يتعين على كافة الحكومات المسيحية أن تتبعه سواء أرادت أم لم ترد على حد قول «ميشيل ليجرى» فى مجلة **أكسبريس** (المشار إليها سابقا).

ولا يمثل ذلك أية صعوبة، إذ يكفى أن نرى كيف واجهت الكنيسة ومؤسساتها حركة العصرية، وإن كان اللفظ العربى المستخدم فى المجال الدينى هو: التجديدية.

والتجديدية هى «ذلك الاتجاه الذى يدفع المسيحى إلى محاولة التوفيق ما بين العقائد الدينية والحقائق العلمية، ويطالب بحق تفسيرها بصورة مختلفة عن تلك الصورة الحرفية الممتدة على طول تاريخ الكنيسة» (**موسوعة بورداس** صفحة ٢٣٢).

وبرز هذا التيار حوالى عام (١٨٦٠م) نتيجة للدراسات التى تمت فى مختلف بلدان أوروبا وخاصة «ألمانيا» وجامعاتها اللاهوتية وكلية «توبنجن» بصفة خاصة، والتى راحت تؤكد أن الإنجيل بعهديه لم يكتبه الأشخاص الذين يزعم التراث الكنسى أنهم كتبوه، ولا فى الظروف التى يفترضونها. وراحت هذه الأبحاث تؤكد أنه لا توجد اختلافات واضحة بين الأناجيل فحسب، بل إن هناك متناقضات شديدة، وأنه لا بد من إعادة النظر بشكل علمى فى هذه الأناجيل.

فما كان من البابا بيوس التاسع إلاّ أن أصدر قراره فى (١٨٦٢/١٢/١١م) وذلك فى إحدى رسائله (وهى بعنوان gravissima) جاء فيها: «لا يمكننا قبول قيام العقل بغزو المجال المخصص لشئون الإيمان ليزرع فيه الاضطراب».

وتوارثت البابوية محاربة تيار التجديدية للحد من انتشار موجة الإلحاد الناجمة عن مزيد من كشف المتناقضات الواردة فى النصوص الإنجيلية، وكل ما أجراه التعصب من نسيج مفرض وتحريف للعقيدة الأصلية فقامت الكنيسة الكاثوليكية، باستحداث وسائل جديدة، تزعمها كل من البابا ليون الثالث عشر، وبيوس الحادى عشر الذى تولى البابوية من (١٩٢٢م إلى ١٩٣٩م)، وهو الذى أنشأ دولة الفاتيكان، واستقلال الكرسى الرسولى عن الحكومة الإيطالية. ففى حربه ضد التجديدية اعتمد على تجنيد المدنيين للعمل على نشر الدعوى الكاثوليكية إلى جانب رجال الدين الأصليين، كما استعان بالعمال كمبشرين - وهو ما لجأ إليه البابا يوحنا بولس الثانى فى بولندا، واستعانته بليخ فاونسا عامل الموانى زعيمًا للعمال.

ومن أهم المنظمات التى تم خلقها للتصدى للتجديدية والإلحاد منظمات تسمح بتجميع الجماهير مثل: منظمة الشباب العمالية والجامعة العمالية الكاثوليكية والشباب الزراعى الكاثوليكى والشباب الطلابى

الكاثوليكى وشباب المستقبل الكاثوليكى والشباب البحرى الكاثوليكى. وذلك بالإضافة إلى بعض الحركات والأنشطة مثل حركة الكشافة للبنين، وأخرى للبنات، والمعتزلين القدامى، ورحالة التجارة الكاثوليكية، ورابطة القلب المقدس، والرابطة الكاثوليكية النسائية والشفاعات والجهاد الدينى القربانى، وجمعيات السيدة العذراء، وفيلق مريم، والحركة المسماة «باكس رومانا» أى السلام الرومانى نسبة إلى روما.. إلخ وكلها من المنظمات والهيئات التى تكشف عن مدى التخطيط، والتضافر لمحاصرة أى خلاف أو تهديد من العلمانية، ثم يفرضونها على الإسلام!!.

أما عن اللقاءات التى تلت مجمع الفاتيكان الثانى، فلقد تم أحدها فى شهر يوليو عام (١٩٧٤م)، بين عدد من الشخصيات المسيحية والمسلمة، فى مدينة قرطبة. وبعد ذلك بعدة أشهر التقى عدد من الجامعيين المسلمين والمسيحيين فى تونس بمدينة القيروان، فى مؤتمر بعنوان: «الوعى المسيحى والوعى الإسلامى فى مواجهة تحدى التطور». وكان ذلك بناء على مبادرة من مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية التابع لجامعة تونس. كما تم تنظيم حوار إسلامى مسيحى فى مدينة طرابلس فى فبراير عام (١٩٧٦م)، بالتنسيق المشترك بين الجماهيرية الليبية وسكرتارية الفاتيكان للعلاقات مع الديانات غير المسيحية، حضره مائتا مسلمٍ ومائتا مسيحى جاءوا من مختلف بقاع العالم.

ويقول الأب ميشيل ليلونج M.Lelong فى كتابه الذى اتخذ له عنوانًا: «**ما أنزل الله**» وهو جزء من الآية ٤٨ من سورة المائدة. إن هذا المؤتمر كان أكثر حظًا من قِبل الإعلام: «إن الصحافة، والإذاعة والتليفزيون قد تحدثوا كثيرًا عن هذا اللقاء - وإن لم يكن بشكل موضوعى باستمرار. إذ اهتمت هذه الوسائل بالتأكيد على المتناقضات، وكثيرًا ما قدموها على أنها مجرد فشل» (صفحة ١٢).

وبعد لقاء طرابلس بعام تقريبًا، تم لقاء له أهمية خاصة، إذ قامت بتنظيمه اللجنة البابوية للعلاقات الدينية مع الإسلام في مدينة «فيينا بالنمسا». كما قامت هذه اللجنة التي يرأسها «الكاردينال بنييدولي» Pignedoli بدعوة كافة لجان أسقفيات أوروبا، والمجمع الكنسي في مدينة «جنيف»، وعدد من الشخصيات الإسلامية لدراسة العلاقات بين المجتمعات المسيحية والإسلامية في البلدان الأوربية. وعقب هذا اللقاء تم تبادل الأمنيات واتخاذ القرارات خاصة أن الفاتيكان قد حث الأسقفية الأوروبية على «تكثيف جهودهم لكي يتخذ المسيحيون من المسلمين وعقيدتهم وأمتهم موقفًا يتسم بالاحترام والصداقة والأخوة وفقًا للتوجهات التي حددها هذا المجمع» (**ما أنزل الله** صفحة ١٣).

وإذا ما كان تبادل الزيارات بين المسئولين من رجال الدين على الجانبين يشير إلى بداية تغيير في العلاقات والمواقف، فقد انعكس ذلك أيضًا بعض الشيء في المجلات الدينية الكاثوليكية أو البروتستانتية، وخاصة التابع منها لإرساليات المبشرين. وهنا يقول الأب ليلونج: «بينما كانت تتحدث في مطلع هذا القرن عن الإسلام والمسلمين بصورة سطحية، وغير عادلة بدأت تكرس لهم المقالات والأعداد الخاصة المدعمة بالوثائق الأخوية الطابع» (المرجع السابق صفحة ١٤).

إلاّ أن كل ذلك أدى بالبعض، في مختلف الأوساط الكاثوليكية والبروتستانتية إلى التساؤل عما إذا لم تكن الكنيسة تنساق بعيدًا في هذا المجال، أو بقول آخر: «ألن يؤدي احترام عقيدة الآخرين، واحترام قيم الإسلام إلى مجازفة نسيان الخاصية المسيحية، وأن ذلك قد يؤدي إلى التراخي بعض الشيء في ديناميية المبشرين الذين هم رسل الإنجيل؟ وهل يتعين على هؤلاء تجاهل وعدم ملاحظة التوسع الحالي للإسلام، وتأثيره المتزايد في أفريقيا السوداء؟ وهل لا يمثل هذا التأثير تهديدًا للكنيسة؟»

(المرجع السابق صفحة ١٤ - وهو صادر عام ١٩٧٧م).

ولعل هذه التساؤلات - على حد قول الأب ليلونج - ترجع إلى أن معظم الكاثوليك والبروتستانت الذين مازالوا يحتفظون بأفكار خاطئة مسبقة عن الإسلام كاستمرار للموقف العدائى المتوارث من القرون الماضية، لا يرون جدوى للحوار المسيحى - الإسلامى.. ومن ناحية أخرى فإن التقارب فى هذا الحوار «يثير قلقًا ما فى الأمة اليهودية» وهو قلق يفسره الأب ليلونج على أنه يمكن فهمه على ضوء المحن الماضية والمصاعب الحالية ومجازفة الوصول إلى صراع سياسى - دينى قد يقع فيه أتباع الديانات التوحيدية الثلاث.

ثم يشير الأب ليلونج إلى أن القرآن والإنجيل يتحدثان عن سيدنا إبراهيم كأب للمؤمنين، ويتحدثان عن سيدنا موسى ويوسف ويوحنا المعمدان وكثيرين غيرهم، إلاَّ أنهما يختلفان فى بعض النقاط الأساسية حول شخصية وتاريخ ورسالة هؤلاء الرسل، موضحًا اختلاف العقيدتين فيما تقولانه عن السيد المسيح، وعن سيدنا محمد قائلاً: «إن نبى الإسلام، الذى أتى بعد خمسة قرون من وفاة آخر الرسل، الذى تعتبره الكنيسة تراثيًا - نهاية النبوة - قد أسيئ الحكم عليه لفترة طويلة من قِبَل المسيحيين بصورة سلبية بحتة، عدوانية وصراعية، ويشهد على ذلك بكل أسف، ذلك الكم الوفير من المؤلفات.

«لقد حان الوقت ليحدث تغيير عميق فى وجهة النظر حيال هذه النقطة الأساسية».

وأثناء المؤتمر الإسلامى - المسيحى، المنعقد فى فبراير عام (١٩٧٦م)، قام المتحدث الرسمى للوفد الكاثوليكى بالاعتذار رسميًا لممثلى الأمة الإسلامية عن الجور البالغ الذى قامت به الكنائس المسيحية منذ قرون ضد الإسلام والمسلمين».. ثم يختتم الأب مقدمة الفصل الثانى من كتابه الذى قام خلاله بتناول الآيات التى تتشابه بين الإنجيل والقرآن قائلاً: «إذا ما كنا ندين بالعقيدة المسيحية فلا يمكننا أن نتقاسم إيمان المسلمين حول نبى الإسلام.

ولكن إذا ما كنا مسيحيين حقًا، فيجب علينا أن نتخذ حيال القرآن، ومحمد موقفًا محترمًا، دينيًا وقائمًا على المعطيات التاريخية الموضوعية» (المرجع السابق صفحة ٦٧).

والأب ليلونج يعتبر من الآباء الذين يتبنون موقفًا يتسم بالموضوعية إلى حد ما، وقد تم اختياره عضوًا فى «جمعية الحوار الإسلامى المسيحى» التى أنشئت فى أواخر شهر ديسمبر (١٩٩٢م) بباريس. وهو من الذين يعتبرون بيان مجمع الفاتيكان الثانى نداءً لمزيد من التقارب.. إلا أن مجريات الأحداث، منذ عام (١٩٦٥م) حتى أوائل أيام يناير عام (١٩٩٣م)، تؤكد أننا لسنا بحاجة إلى محاولات تقارب أو إلى مزيد من المحاولات السطحية، وإنما نحن بحاجة إلى وقفة أمينة جادة وصادقة. وقفة لا نتبرأ فيها عما يواجه رجال الدين الأجلاء من صعوبة لتخطيهم مغالطاتهم وفرياتهم فى حق الإسلام، «خاصة وأنها قد دامت طويلاً».. وقفة لا يتمسكون خلالها إلاّ بالصدق والأمانة التى طالبهم بها السيد المسيح - علاوة على أن موقفهم من اليهودية يختلف تمامًا عن موقفهم من الإسلام. ومثلما عرفوا كيف يجتازون حقبة امتدت إلى ألفى عام من الوقائع والأحداث الثابتة المعاشة بغية تبرئة اليهود من قتل المسيح، ولم يكن ذلك إلا من أجل أغراض سياسية بحتة، وها نحن نقرأ عن واقعة الاعتراف باليهود وتبرئتهم فى موسوعة **أونيفرسالين**: إن السكرتارية الخاصة بالوحدة بين الكنائس نجحت بعد حملات مكثفة من جمع المعلومات **فى إقناع الحكومات العربية بالمرمى الدينى البحت، فيما يتعلق بالإعلان الخاص باليهود**»!! (المجلد ١٦).

ولا تعليق على مثل هذا الاستشهاد إلاّ بالتأكيد على مدى التلاعب بالألفاظ والخداع والكذب. فإذا ما كانت التبرئة دينية كما يزعمون، لصدر بيان بإلغاء كافة الخلافات الدينية التى لا تزال قائمة، خاصة أن السيد المسيح الذى لم يُرسل «إلاّ إلى خراف بنى إسرائيل الضالة» (متى ٢٤: ٢١ -

٢٥). قد قال «لا تظنوا انى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض، بل لأكمل» (متى ٥: ١٧).. ولا نذكر من هذه الخلافات إلاّ اعتراف اليهود بالسيد المسيح إلهًا - وفقًا للتحريف المسيحى الذى تم فى مجمع نيقية الأول، وقيام الكنيسة بتوحيد عيد الفصح والالتزام بالختان، والاعتراف بقدسية يوم السبت، واعتباره إجازة رسمية كما جاء «اذكر يوم السبت لتقدسه» (خروج ٢٠: ٨) بدلاً من التحايل والتمسك بيوم الأحد على أنه اليوم الثامن، ويمثل صبيحة السبت «أى أول يوم لكل شىء». ويوم بعث السيد المسيح! (**كتاب التعليم الدينى الكاثوليكى** صفحة ٤٤٦).

بل إن العقاب الذى نجم عن «صلب» السيد المسيح «هو تدمير الهيكل فى القدس تعبيرًا عن رفض الله لشعب إسرائيل الذى يعانى تيهًا وذلاً فى الأرض، نتيجة غلظة قلوبهم، وسيظلون كذلك آية لنقمة الله حتى يعود المسيح فى مجيئه الثانى» وهذه النقطة الثالثة من النقاط الأربع التى التقت فيها جميع الكنائس المسيحية بكافة أنواعها فى خلافها مع اليهودية (**إسرائيل فتنة الأجيال** صفحة ٢٠٨ - ٢٠٩).

ولم تتحقق نبوءة خراب الهيكل آنذاك فحسب، ولكن القدس كلها دمرها الإمبراطور هدريان سنة (١٣٥م) إخمادًا لثورة «باركوبيه» وطرد منها اليهود جميعًا، وبنيت مكانها مدينة جديدة وحرّم على جميع اليهود دخولها.

وقد دامت الإمبراطورية الرومانية أكثر من ستمائة عام (**إسرائيل والتلمود** صفحة ١٦٥).

ولسنا هنا بصدد تحركات اليهود وطردهم أو فترات بقائهم، فكلها أحداث تغص بها الكتب والأبحاث، وإن ما نود التأكيد عليه هنا هو عدم أحقية اليهود فى هذه الأرض أصلاً وعلى عدم أحقيتهم فى إقامة دولة عرقية دينية. وذلك لأن دولة إسرائيل - على حد قول الأب جان مارى لامبير Jean-Marie Lambert. أبعد ما تكون عن أنها وعد الله، أو شعب الله المختار الذى يعود إلى

أرضه بعد ألفى عام، وإنما هى ثمرة الصراعات السلطوية بين فرنسا وبريطانيا العظمى فى المنطقة، ثم إنها رأس الحربة التى يوجهها الغرب فى قلب الشرق الأوسط بالمساندة الكاملة من الولايات المتحدة وبالاتفاق الكامل المؤكد مع الأحزاب الحاكمة فى إسرائيل وهما حزب الليكود وحزب العمل (**المنظمات غير الحكومية حيال المشكلة الفلسطينية** صفحة ١٥١).

وفى المائدة المستديرة التى تلت مؤتمر «مسيحيو العالم العربى» قال المهندس «بول أبيلا» P. Abela «هناك العديد من الفقرات الشديدة الحرج والتناقض فى الإنجيل حتى إن بعض القسس لم يعد بمقدورهم قراءتها فى قداساتهم (فيما يتعلق بالشعب اليهودى).. وأن الإنجيل يستخدم كدعامة أيديولوجية من الصهيونية السياسية».. أما الأب ميشيل جوندو M. Jondot فيقول عن إسرائيل إنها طردت الشعب الفلسطينى من أرضه للاستيلاء على أرض بلا شعب تحت زعم العصرية والديمقراطية والعدالة «قد فرضت على وجه ضحيتها قناع الفسق والفجور، فالفلسطينى الذى يقاوم، هو الإرهابى الذى لا إيمان له ولا قانون، ويرفضه العقل والمنطق».

وإذا ما جمع عدد لا حصر له من الآباء على عدم أحقية إسرائيل فى هذه الأرض وعلى التلاعب السياسى بالعبارات الإنجيلية، بل وهناك العديد من الأبحاث والرسائل الجامعية التى تمت فى هذا الصدد، فإننا نلخصها جميعها فى حقيقة واحدة هى: إنه ما من عهد أو وعد قد أنزل الله على ذلك الشعب اليهودى إلاّ وكان مشروطًا بالصلاح والاستقامة والخضوع لله وتعاليمه وعدم الشرك به وإلاّ تحق عليه اللعنة. وتفضيل الله لليهود آنذاك كان مشروطًا إذ يقول: «فالآية أن سمعتم لصوتى وحفظتم عهدى تكونون لى خاصة من بين جميع الشعوب، فإن لى كل الأرض، وأنتم تكونون لى مملكة كهنة وأمة مقدسة» (خروج ١٩: ٥-٦).

وكان التفضيل المرتبط بالالتزام والطاعة فى أن يكونوا رجال دين وليس

قتلة آثمين.

ولا يسع المجال هنا لكتابة كافة التحذيرات والشروط التى واكبت أى وعد ومنها: «فأحبب الرب، إلهك واحفظ حقوقه وفرائضه وأحكامه ووصاياه كل الأيام.. فاحفظوا كل الوصايا التى أنا أوصيكم بها اليوم لكى تتشددوا وتدخلوا وتمتلكوا الأرض التى أنتم عابرون إليها، ولكى تطيلوا الأيام على الأرض التى أقسم الرب **لأبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم**... فإذا سمعتم لوصاياى التى أنا أوصيكم بها اليوم لتحبوا الرب إلهكم، وتعبدوه من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم.. فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم. وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون فى بيوتكم وحين تمشون فى الطريق، وحين تنامون وحين تقومون. واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك... **انظر. أنا واضع أمامكم اليوم بركة ولعنة:** البركة إذا سمعتم لوصايا الرب إلهكم، التى أنا أوصيكم بها اليوم. واللعنة إذا لم تسمعوا لوصايا الرب إلهكم وزغتم عن الطريق التى أنا أوصيكم بها اليوم لتذهبوا وراء آلهة أخرى لم تعرفوها» (تثنية ١١: ١-٢٨)..

وكانت نفس الشروط واضحة صريحة بالنسبة لسليمان: «إن كنتم تقلبون أنتم أو أبناؤكم من ورائى، ولا تحفظون وصاياى وفرائضى التى جعلتها أمامكم بل تذهبون وتعبدون آلهة أخرى وتسجدون لها، فإنى أقطع إسرائيل عن وجه الأرض التى أعطيتها إياها، والبيت الذى قدسته لاسمى أنفيه من أمامى ويكون إسرائيل مثلاً وهزأة فى جميع الشعوب، وهذا البيت يكون عبرة كل من يمر عليه يتعجب ويصفر ويقولون: لماذا عمل الرب هكذا لهذه الأرض ولهذا البيت؟ فيقولون: من أجل أنهم تركوا الرب إلههم، الذى أخرج آباءهم من أرض مصر وتمسكوا بآلهة أخرى وسجدوا لها وعبدوها، لذلك جلب الرب عليهم كل هذا الشر» (الملوك الأول ٩: ٦-٩).

وأخطأ سليمان ولم يلتزم كما أخطأ اليهود من قبله ومن بعده وكلها آيات ما زالت فى الإنجيل، إلى أن أتى السيد المسيح مرسلاً من أجل هذه «الخراف الضالة».

وما نخرج به من هذا التاريخ هو ما نخرج به من أى اتفاق آدمى، فما بالنا وهو من أقوال الله: إن أى عهد أو أى وعد قد تم بين الله قد فسخ، والغيت شرعيته، ولا يحق لهم أى زعم فيه، وإلاّ لما لعنهم السيد المسيح أربع عشرة مرة، ولما لقبهم: بالحيات أولاد الأفاعى المراؤون، ولما اختتم قوله: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك، كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها. ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابًا؛ لأنى أقول لكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب» (متى ٢٣ : ٢٧-٢٩). أى إن السيد المسيح لم يلعنهم لقتلهم الأنبياء ولانحرافهم فحسب، وإنما اشترط عليهم الاعتراف به والتبرك بمجيئه لأنه مرسل إليهم، ونخرج من كل ما تقدم بالنقاط التالية:

١ - كافة رجال الكهنوت يعرفون حقيقة تزييف وتحريف الكتاب المقدس بعهديه على مر العصور.

٢ - لا يوجد فى الكتاب المقدس بعهديه أية آية تنص صراحة على مقولة «شعب الله المختار أزليًا وإلى الأبد» كما يزعمون وأنه **منذ البداية كان اختيارًا مشروطًا** ولم يلتزموا به، فأى حق يطالبون به؟.

فلقد عاش موسى فى مصر وتعلم حكمة التوحيد من ديانة أخناتون وحينما انحرف المصريون القدماء بدينهم بعد وفاة أخناتون وعادوا لتعدد الآلهة، أنقذ الله موسى وشعبه على أن يكونوا من الصالحين.. وكلم الله موسى، وأنزل إليه الوصايا العشر ولم يلتزموا كما رأينا وكما يعلم الكافة.

٣ - وعد الأرض كان لكافة نسل إبراهيم، وأولهم إسماعيل.

٤ - أن اعتراف الفاتيكان باليهود وتبرئتهم لم يكن اعترافًا دينيًا على الإطلاق، كما خدعوا بعض الحكومات العربية، وإنما هو اعتراف لمبررات سياسية بحتة، من أجل تضافر الجهود لمجابهة العدو، الذى اختلقوه ظلمًا وتزويرًا، فالإسلام ليس عدوًا لليهودية أو للمسيحية، وإنما أتى مكملاً وخاتمًا للرسالة التوحيدية، بل إن الاعتراف بالديانتين السابقتين يمثل جزءًا من العقيدة الإسلامية.. ومنها أيضًا لتنفيذ مخطط الاستيلاء على منابع البترول والسيطرة عليها.

٥ - أن كل ما يدور حاليًا على الصعيد العالمى من تضافر جهود مختلف سلطات الغرب المسيحى، وعلى رأسه جهاز المخابرات المركزية والتعصب الكاثوليكى، يمثل تضافرًا حميمًا من أجل محاصرة الإسلام والشعوب الإسلامية والعربية، وانتزاع الإسلام من جذوره أو إبادتها مباشرة أو بواسطة أفراد أو حكومات - عميلة متواطئة.. وهو ما يتفق وما جاء فى كتاب الأب «زويمر» الشديد العداوة للإسلام: «إن تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها» (**مهد الإسلام**).. فالتضافر خارجى وداخلى لتوجيه هذه الضربة العاتية للإسلام.. ولا نقول «الضربة القاضية» لأن الله أنزله وهو حافظه..

لكننا لا نملك إلاّ أن نتساءل: لم كل هذا الغلّ العارم حيال الإسلام والمسلمين؟ لم هذه الرغبة اللحوح والعداوة الشحناء التى يبثها الغرب رياح سموم كاسحة؟! «إن الشرق لم يضمر للغرب الإساءة.. مع أن الشرق قد عرف كل دخائل الغرب، وانه مع ذلك لا يحمل له إلاّ السلامة» على حد قول «اتيين دينيه» أو «نصر الدين دينيه» بعد أن أسلم - وقد توفى عام (١٩٢٩م).

ومهما قيل عن أن كافة أجيال الغرب شبّت على كره الإسلام بسبب كل ما تتشربه من تشويه له فى كافة مجالات العلم والدين والتنشئة، فإن ذلك لا

يبـــرر هذا الـرعب الدفــين، الذى يكمن فى أعــمــاق الغــرب، وفـى حنـايا لا شعوره.. ولا تفسير لذلك إلاّ أن الإسـلام والمسلمين يمثلون جسم الجريمة التى ارتكبها التعصب اليهودى والمسيحى.. جريمة لابد من إبادة معالمها - فى نظرهم - حتى لا تظل ماثلة تؤرق وتدين فعلتهم.. جريمة تمت عمدًا بإسقاط سيدنا إسماعيل، الابن البكر، من نسل سيدنا إبراهيم، وكأنه لم يكن، إذ نقرأ: «ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم. إبراهيم ولد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب».. إلخ (متى ١: ١-١٧).

وإغفال أن العهد قد تم كما أوضحنا أيام كان طفلاً.

وغلق باب النبوة فى وجه سيدنا محمد بتأليه السيد المسيح.

ومحو وتحريف أو تزييف ما استطاعوه من إشارات تدل على مجىء سيدنا محمد فى الإنجيل بعهديه..

ذلك هو العمل المشترك بين متعصبى اليهودية والمسيحية، وذلك هو الدافع الحقيقى لتضافر جهودهما لضرب ما يهدد مصالحهما... فقد تم ضرب الشيوعية بزعم الإلحاد، والشيوعية لم تقم فى واقع الأمر إلاّ بفصل الدين عن الدولة بحسم باتر: فليصلّ من يشاء، لكنه ليس من حق أى إنسان اتخاذ الدين ذريعة لتحقيق مكاسب أو أغراض سياسية. فالإلحاد الناجم عن الكفر بسبب التزييف الكنسى وواقعه الذى فرض على البلدان الاشتراكية، إنما مثله مثل الستار الحديدى، كان ذريعة لضرب هذه البلدان نفسها؛ لأنها تمثل نظامًا اقتصاديًا مغايرًا، يهدد دعائم نظام رأسمالى آيل للسقوط. بينما يمثل الإسلام الملجأ الذى يستكين إليه الفارون بصدمتهم - عند اكتشافهم تزييف دينهم الذى يُفرض عليهم قهرًا فعليهم أن يؤمنوا به، وبكل متناقضاته بلا تفكير، وإلاّ أصبحوا كفرة تحق محاربتهم!!.

ولما كان الحال كذلك - بلغة رجال القانون، كان لا بد للفاتيكان من

تدبير حملة صليبية جديدة، على حد قول جاك ديكورنوا J. Decornoy فى مقال له عن ازدياد توغل البابا يوحنا بولس الثانى فى المسرح العالمى السياسى والدينى أكثر من أى وقت مضى.. حملة صليبية ضد الإسلام تتخذ شكل الكاسحة الدولية أو «وابور الزلط» الدولى كما أطلق عليها: «خاصة بعد أن تم السيطرة دينيًا على أمريكا اللاتينية، بالاتفاق مع واشنطن، ومنع أية منظمات ذاتية حرة فى أفريقيا السوداء، وسحق الشيوعية أخيرًا فلا يبقى أمام البابا إلا توجيه المد الكاسح إلى الأصوليين الإسلاميين، ليقوم بعدها بمهمته الأخيرة وهى دمج الكنائس المسيحية بأسرها تحت لواء روما الكاثوليكية (**ليموند دبلوماتيك** سبتمبر ١٩٩٢م).

ذلك هو ما يقوم به رجال السياسة الاستعماريون ورجال الدين المتعصبون.

لذلك لا نملك إلا أن نتوجه إلى البابا يوحنا بولس الثانى، إلى من يؤمّ الصلاة فى العالم باسم السيد المسيح، لكى لا نقول إلى - من يبارك القتل والطرد ومجازر الاغتصاب المنسق وزرع أجنة الكلاب فى أرحام البوسناويات، نقول مع السيد المسيح: «ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات، بل الذى يفعل إرادة أبى الذى فى السموات، كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يا رب يا رب أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا الشياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة. فحينئذٍ أصرح لهم أنى لم أعرفكم قط. اذهبوا عنى يا فاعلى الإثم» (متى ٧: ٢١ - ٢٣).

ذلك هو ما قاله السيد المسيح بعد أن قام بتقديم وشرح الوصايا التى تمثل الشريعة. و«إرادة أبى الذى فى السموات» هنا تمثل ذلك الدين الحنيف الذى أنزله الله فى الوصايا العشر على سيدنا موسى وهى إجمالاً: التوحيد وتحريم الوثنية، وصنع الإحسان، وعدم نطق اسم الله باطلاً، وذكر يوم السبت وتقديسه والراحة طواله، وإكرام الأب والأم، وعدم القتل والزنا

والسرقة والشهادة الزور أو اشتهاء بيت الجار بكل ما فيه.

وبعد ضلال اليهود مرارًا وتكرارًا أتى السيد المسيح مكملاً وليس ناقضًا. واتبع الوصايا مع تغيير ترتيبها وزيادة النزعة الإسانية لكل بند من بنودها إلى درجة جد كريمة تجعل البشر جديرين بإنسانيتهم.. ثم اختتم وصاياه قائلاً بعد أن حذر من الصلاة الزائفة: «فكل من يسمع أقوالى هذه، ويعمل بها أشبه برجل عاقل بنى بيته على الصخر، وجاءت الأنهار، وهبت الرياح، ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط، لأنه كان مؤسسًا على الصخر. وكل من يسمع أقوالى هذه، ولا يعمل بها يُشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وجاءت الأنهار، وهبت الرياح، وصدمت ذلك البيت فسقط. وكان سقوطه عظيمًا» (متى ٧: ٢٤-٢٧).

وضل المسيحيون بتعصبهم وتزييفهم للدين الحنيف، وكان سقوطهم عظيمًا وإثمهم أكبر وأعظم.

وبعد هذه الآيات الكريمة وهذه الوصايا التى تمثل جوهر الدين الحنيف، الذى أنزل على موسى وعيسى عليهما السلام، قبل أن ينزل على سيدنا محمد ﷺ، لا نجد ما نختتم به هذا الجزء إلاّ أن نسأل نيافة البابا يوحنا بولس الثانى: ترى هل ما يدور من تدبير لسحق الإسلام والمسلمين واقتلاعهم من أراضيهم ونهب ثرواتهم وامتهان كرامتهم يتفق وأقوال السيد المسيح والوصايا التى جاء من أجل ترسيخها؟!.

سؤال نترك الرد عليه لأعماق ضمير نيافته الإنسانى، وليس لما يمثله كرسيه الرسولى من تعصب دنيوى.. سؤال موجه إلى ذلك الضمير الذى سَيَمْثُلُ به أمام الله سبحانه وتعالى..

وهنا لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل الأمناء فى الغرب والشرق، سواء أكانوا من رجال اللاهوت أم من العلماء والباحثين.. أن نضمه إلى كل

الشرفاء الذين أبوا التواطؤ على مر العصور أو الاشتراك فيه، وراحوا يكشفونه آملين الحد من طغيانه الجارف، لنناشد صوت العقل والعدل الإنسانى، فالعدل هو الناموس الأعلى.

والحب هو الإضافة الحقيقية التى أتى بها السيد المسيح، ويعتبرها الوصية العظمى.

والحب عطاء.

والعطاء الذى نطلبه ونطالب به ليس استجداءً، وإنما هو حقنا ولا شىء سواه.

لذلك نناشد الضمير الحى فى الفاتيكان، ذلك الضمير الذى راح يبحث فى «أرشيفه السرى» لتبرئة «جاليليو» والاعتذار له ورد اعتباره بعد ثلاثمائة وخمسين عامًا من حرقه حيًا (**مجلة القاهرة** عدد ديسمبر ١٩٩٢م)، وكان قبلها قد قام «بالتنقيب فى أسراره الذاتية؛ ليكتشف قرابة اليهود، ونسبهم إلى السيد المسيح «حسب الجسد» وتبرئتهم من قتله (**الكتاب الدينى الجديد** صفحة ١٨٥)، وبذلك تخطى كل ما كان يفصل بينهما من أحقاد ومجازر، امتدت إلى ألفى عام نناشد نفس ذلك الضمير الحىّ فى كنيسة الفاتيكان أن يلجأ إلى «أرشيفه السرى» وأن «ينقب فى أسراره الذاتية» ليكتشف علاقته بالإسلام والمسلمين وتبرئتهما من كل ما فرض عليهما على مر العصور ليعلن:

- الكشف عن كل ما تم من تحريف وتزييف فى الإنجيل بعهديه عبر المجامع وخارجها.

- الاعتراف بالسيد المسيح نبيًا من الأنبياء - وهو ما تؤكده وثائق «قمران» وغيرها وأقوال السيد المسيح نفسه.

- الاعتراف بإنجيل «برنابا» النبى المختار، الذى تم استبعاده لمخالفته تيار التعصب.

– الاعـتـراف بإسـمـاعـيل الابن البكر لسـيـدنا إبراهيم، والكف عن استبعاده كابن «سفاح» فهو الذبيح، وهو الذى تم العهد فى صباه، كما أنه جد العرب أجمعين..

– الاعتراف بهاجر، زوجة إبراهيم كما ورد فى نص سفر التكوين، وكما تم فى الواقع، والكف عن اتهامها بتهمة لا تليق بأبى الديانات التوحيدية الثلاث.

– الاعـتراف بالإسـلام وبسيدنا محمد خاتم المرسلين، فقد أتى الوحى فى سيناء ولاح فى ساعير وتلألأ فى فاران.. كما أنه «روح الحق» الذى بشر به السيد المسيح والذى يمتلئ الإنجيل بعهديه بالتبشير بمجيئه.

– الحد من تحريف اسم سيدنا محمد وتزييف سيرته، واتهامه بكل باطل والحـد من كل مـا يكيله الغـرب له فى كافـة المجـالات والمنابر الدينية والتعليمية والإعلامية.

– الحد من تحريف ترجمة معانى القرآن الذى أنزله الله وحيًا، وتم حفظه بلا تحريف وعدم التشكيك فيه.

– الحـد من سب المسلمـين والعـرب، والحـد من تقليل شـأنهم وشـأن حضارتهم – فالغرب لم يقم إلاَّ على حضارة المصريين القدماء كأصل سابق على الحضارة اليونانية والرومانية، وعلى حضارة العرب والإسلام، التى قام على أكتافهما عصر النهضة.. فالعرب والمسلمون ليسوا «زبالة العالم» كما يقول الغرب، وإنما هم دليل الجريمة التى اقترفها الغرب فى حقهم وحق دينهم. فإن ما وصل إليه المسلمون من تخلف وفقر ليس إلاَّ نتيجة استنزاف الغرب له ولموارده بالحروب المتواصلة، والاستعمار، والتبشير، والتفتيت، وبكافة أنواع المغريات والصراعات المفتعلة والثورات، وامتصاص موارده وثرواته البشرية والمادية والطبيعية، وأولها النفطية.

– الحد من افتعال صورة «الإرهاب» على الساحة العالمية لوصم المناضلين

المدافعين عن حقوقهم، والحد من وصم المسلمين بها، واتخاذها ذريعة لقمعهم وإبادتهم، ووسيلة من وسائل ضربهم من الداخل وبأياد مسلمة أحيانًا.

- نزع رأس الحرية التى غرسها الغرب الصهيونى فى قلب الشرق الأوسط وقلب العرب وإعادة فلسطين للفلسطينيين. فلا يوجد فى الإنجيل بعهديه أى دليل على أحقية اليهود فيها.. فما من وعد إلا وكان مشروطًا، وما من وعد إلا وأخلوا به، وبالتالى فلا تحق لهم المطالبة به..

- الحد من استغلال العالم العربى، وامتصاص ثرواته وخاصة ما يمتلكه من بترول.

- الحد من تقسيم العالم وافتعال هذا التقسيم إلى سادة وعبيد وإلى شمال وجنوب. إن المشاكل الإنسانية والطبيعية والبيئية التى تواجه العالم بحاجة إلى تضافر الجهود والميزانيات فبدلاً من المحاصرة والإبادة القائمة على الزيف والظلم الأسود، ليكن السلام الإنسانى القائم على العدل والمساواة هو القانون.. فليس المطلوب من أحد أن يغير عقيدته إذ ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦) لكن المطلوب هو أن نعى درس التاريخ، ودرس الحياة، فكلنا عابرو سبيل فى تجربة قائمة على الاختيار والعطاء والالتزام.. ولا يبقى منا إلا العمل الذى قمنا به والعطاء الإنسانى الذى بذلناه فى سبيل الله والحق وفى سبيل الآخرين.

لقد عانت الشعوب كافة من القتل والصراع والاضطهاد آلاف السنين، وآن لها أن تعيش فى سلام فى ظل العدل والحب والخير للجميع، ونبذ ذلك الشر المتعصب الذى فرض قهرًا.

وبعد أن تناولنا جذور وأبعاد مخطط التعصب الدينى - السياسى، منذ أولى خطواته، وكشفنا عما يدور وعما تتم محاولة تنفيذه، ومناشدتنا صوت العقل والضمير، وبقى لنا أن نسأل ذلك الغرب نفسه: ماذا لو واجه مسيحيو

الشرق عين المصير؟! ماذا لو تعرضت هذه الأقليات لنفس التعذيب والقتل والطرد؟ ماذا لو تعرضت مسيحيات الشرق لاغتصاب متتابع وعلنى أمام آبائهن وأزواجهن وأبنائهن؟! ماذا لو تعرضن لبقر البطون وبتر الأطراف وتقطيع الأثداء وجذ الشعر وغيره كثير.. كل ذلك على قارعة الطريق؟ وفى معسكرات التعذيب وما يتبعه من تجاوز لكل الحرمات والمحرمات حتى العبث بالجثث وتقاذف الرؤوس بالأحذية؟! ماذا لو تعرضن لزرع أجنّة كلاب فى أرحامهن، أو لكل ما تتعرض له المسلمات من جرائم، لم يكشف عنها النقاب بعد فى البوسنة والهرسك وفى فلسطين المحتلة وكافة البلدان المسلمة على الصعيد العالمى، والتى تدور عليها رحى هذه الوحشية فى آن واحد وفى تضافر غريب؟؟.

إن هذا السؤال الطويل المرير لا نوجهه للغرب وحده، وإنما للكنيسة الشرقية بعامة، تلك الكنيسة التى يتبعها الصرب الأرثوذكس، والكنيسة المصرية بصفة خاصة - لذلك الدور الذى تلعبه بأشكال متعددة - كمصيدة لضرب المسلمين تحت زعم التطرف.. والتطرف، كما يقال «على الجانبين» على حد قول بعض الأمناء من الإخوة الأقباط، وما أكثر الأشكال الاستفزازية التى يقوم بها المتطرفون من الجانبين... الأمر الذى يعيد إلى الأذهان كثيرًا من أصداء أيام الاحتلال البريطانى وما بعدها.. فالغرب دائمًا يستعين بأبناء عقيدته حتى وإن اختلفت طوائفهم.

كما أننا جميعًا نعلم بمخطط «فرّق تسد» الذى فرض على المسلمين والعرب أيام الاستعمار وبعده، وكلنا نعلم بذلك المخطط الرامى إلى تفتيت الدول إلى دويلات.. فما تم فى الهند وفى الاتحاد السوفيتى، وفى غيرها من بلدان مثلما تم فى يوغسلافيا السابقة، وهو بعينه ما يحاول الغرب تنفيذه فى مصر والعراق وتونس والجزائر منذ سنوات.. وليس ذلك بسر دفين، فقد تم اكتشاف عديد من المخططات التى تطل برأسها من حين لآخر فى مصر،

مثل حادثة قطار الصعيد أو فتنة مطلع السبعينيات، ومنها أحداث الخانكة، وتقرير لجنة تقصى الحقائق عنها.. وما أحداث عام (١٩٥٤م) واقتحام مقر البابا آنئذٍ والتنظيمات السرية المتعددة التى ينضوى بعض المتعصبين تحت لوائها غير مثال، علينا أن نعمل معًا مسلمون وأقباط على نبذها.

وحقنًا لمزيد من الدماء، نقول إن مثال: «عماد الدين زنكى» الذى بدأ الجهاد بتوسيع الجبهة الإسلامية، وتوحيد صفوف أمة الإسلام؛ وابنه: «نور الدين محمود» الذى كان أول من جعل من الجهاد نظرية كاملة، تعكس خطًا سياسيًا واضحًا، ذلك لأنه أضاف مفهومين جديدين لمضمونه هما: قداسة القدس كأرض مقدسة، وضرورة إقامة الوحدة السياسية للإسلام فى الشرق الأوسط كقاعدة أولية للجهاد ضد الجيوش الصليبية، ثم «صلاح الدين الأيوبى» الذى جمع قوات مصر والحجاز وسوريا وما بين النهرين ليحرر القدس عام (١١٨٧م) وليرد جحافل الصليبيين.

كلها حقائق تاريخية لاتزال حية فى الأعماق.. ومهما استطاع الغرب بتعصبه الدينى السياسى الأسود أن يخدع أو يقنع بعض الحكومات العربية والإسلامية، أو أن يشترى ذممها بلوى الأعناق، فلن يستطيع أن يمنع كل قطرة دم أهدرها من أن تتحول إلى قلب ينبض بالحياة ليقاوم ويكافح، ولن يستطيع أن يمنعها عن أن تتلألأ فى أمة الإسلام ليشرق منها عماد الدين... ونور الدين.. وصلاح الدين.



خــاتمـــة

بعد أن أوضحنا موقف الغرب من الإسلام، بالوثائق الغربية الرسمية، والاستشهادات الدينية والعلمية، وكيف أنه على الرغم من الشعارات الدارجة والأحاديث السيارة التى يضحك بها على الشعوب والحكومات أو يقنعها بها بالخدع والتحايل.. فحقيقة الموقف هى:

أن الغرب لا يعترف بالإسلام وأنه لا يأخذ فى الاعتبار أية ديانة بعد المسيحية. بل إنه يعتبر «الإسلام خطأ مطلقًا لابد من رفضه؛ لأنه يمثل خطرًا بالنسبة للكنيسة ولابد من محاربته» - على حد قول الأب روبير كاسبار فى الجلسات التمهيدية لمجمع الفاتيكان الثانى.. كما أوضحنا كيف أن قرار هذا المجمع العالمى فيما يتعلق بالمسلمين قد تمت صياغته بحيث «لا يعتبر حلاً للمسائل الصعبة والتى دار حولها الجدل طويلاً من قبيل سلالة العرب من إسماعيل وخاصة ربط الإسلام بالرسالة الإنجيلية»!.

وبذلك تم غلق باب النبوة أمام سيدنا محمد ﷺ بتأليه عيسى ابن مريم وجعله هو الله أو مساويًا له.. فبعد الله لا يمكن لإنسان أن يتبوأ أية مكانة.. ومن هنا كانت ضرورة استبعادهم للآيات التى تشير إلى محمد ﷺ أو إلى مجيئه..

كما رأينا كيف قام التيار المتعصب بتزييف الإنجيل بعهديه على مر العصور حتى يتفق وما يضمره من أطماع سياسية وسلطوية، وكيف أصبحت المجامع أدوات هدم مزدوج: هدم المسيحية الأصلية التى بشر بها السيد المسيح لنسج تعاليم جديدة أبعد ما تكون عن تعاليم السيد المسيح لكنها تتفق

والأغراض السياسية التوسعية؛ وهدم الإسلام الذى أتى مكملاً وخاتمًا للرسالة التوحيدية بعد انحراف المسيحيين عنها.. وبذلك أصبح هذا الهدم المزدوج مخططًا يتوارثه الغرب عبر العصور ويقوم بتنفيذه من خلال كافة المجالات وبشتى الوسائل، بغية ضرب الإسلام من الداخل وضرب جوهره وكيانه المنزّل بفرض العلمانية على القرآن لفصل الدين عن الدولة.. والغريب أن ترفض الكنيسة هذه العلمانية وتمنع تطبيقها على نصوص قامت هى بنسج خيوطها وتفرضها قهرًا على أتباعها رغم تناقضها..

بل وها هو كتاب تعليم الدين الكاثوليكى الجديد، الصادر فى نوفمبر (١٩٩٢م)، والذى يعد بمثابة توجيه عام للحكومات المسيحية، يتضمن كيفية ضرب الشعوب التى لم تعتنق المسيحية بعد، وكيفية التوغل فيها بصبر وأناة.. وذلك بتضافر جهود المتعصبين والسياسيين وتداخل جهودهم لتوجيه ضربة تتزامن على الصعيد العالمى لاقتلاع الإسلام.

كما أوضحنا ما تم من تحريف فى الإنجيل بعهديه وما تم استبعاده من نصوص أساسية لاستبعاد إسماعيل وإنكار أنه الابن البكر لإبراهيم، لاستبعاد العرب من نسب إبراهيم ونسله واستبعادهم عن جوهر ديانة التوحيد، وعن أية شرعية لهم خاصة حقهم فى ضعف الميراث.. ميراث الأرض التى وعد الله بها إبراهيم ونسله - حينما كان يحق للإسرائيليين نصيب فى الوعد قبل أن يحنثوه وقبل أن يلعنهم الله ويشردهم.. وبالتالى لم يعد لهم أى حق فيها فلا يوجد أى دليل دينى على استمرارية مقولة «شعب الله المختار» وعلى زعم «أرض الميعاد».. فما من وعد أتى إلاّ وكان مشروطًا بالالتزام والاستقامة والابتعاد عن الوثنية.. وما من مرة إلاّ وحاد اليهود عن هذا الشرط.. وكيف أن الغرب وأتباعه يتناسون هذه الحقيقة الجوهرية ويكسبون الوقت لاستتبابها بالتفاوض فى تفاصيل تعد هامشية بالنسبة للموضوع الذى هو: اغتصاب أرض لا حق لهم فيها؟

ولقد أوضحنا زيف موقف الفاتيكان المتواطئ مع المخابرات المركزية الأمريكية لتبرئة اليهود من قبل المسيح للاعتراف بالكيان الصهيونى الاستيطانى فى فلسطين المحتلة والتحالف معًا لضرب الإسلام والعرب.. وتم تبرير هذا الاعتراف على أنه دينى بحت، فى حين أنه تم لأغراض سياسية بحتة، ففى واقع الأمر، لم يتم أى تقارب دينى بين العقائد المسيحية واليهودية.. وإنما المطلوب هو إبادة شعب لاستيطان شعب آخر، وأنه على حد قول ديان: لا مكان للفلسطينيين فى فلسطين.. بينما يعد البابا بالبحث عن بلد آخر لمنظمة التحرير الفلسطينية - مع إغفاله أو إسقاطه الشعب الفلسطينى من الحساب..

ولقد دأب الغرب على غرس كراهية العرب واحتقارهم بفضل تلاعبه فى الألفاظ، وتعريف العرب بأنهم «أولاد الجارية» أو «أولاد سفاح».. وهو ما تتشربه أجيالهم من كافة الوسائل التعليمية والدينية.. على الرغم مما فى ذلك من ظلم حقير ومن مساس بمكانة سيدنا إبراهيم عليه السلام بوصفه أبًا لأنبياء التوحيد.. ويعد هذا التجريح المهين من السمات الرئيسية التى لا يكاد يخلو منها مرجع من المراجع التى تتناول القضايا العربية والإسلامية. وهو ملمح من ملامح الاستعمار الذى يمثل بديلاً شكليًا واستمرارًا للحروب الصليبية.. لذلك يقوم الغرب بضرب محاولات الاستقلال بشراسة ولا يغادر مستعمراته إلا بعد غرس المؤسسات الاقتصادية والتبشيرية التى يواصل تواجده من خلالها.

ومما تقدم أوضحنا السبب الحقيقى لذلك الغلّ الدفين والعنف اللحوح فى كراهية الغرب للمسلمين والعرب، لأنهم - فى واقع الأمر - يمثلون جسم الجريمة التى اقترفها ذلك الغرب المتعصب: جريمة استبعاد إسماعيل من نسل إبراهيم، وجريمة غلق باب النبوة أمام سيدنا محمد ﷺ.. ومن المعروف أن أى جريمة تتم لا يهدأ بال مرتكبها إلاّ بإبادة معالمها وبخاصة أن الإسلام

أتى بمفاهيم سمحة تصحح وتعيد للسيد المسيح إنسانيته ونبوته، وإن خالفت حشدًا من التحريفات التى زيفوا بها أباطيلهم.. وهذا هو التفسير الحقيقى، المخزى والمرير، فى موقف الغرب من الإسلام، وفى كل ما يدور حاليًا من تضافر بمختلف الأسباب والأساليب والحجج لضرب الإسلام والمسلمين على الصعيد العالمى وامتصاص ثرواتهم والتحكم فى مخزونهم النفطى.. وهو ما يفسر كل ما يدور من تضافر شرس ومن صمت متواطئ بلا ضمير للعمل على تدمير أمة الإسلام، واغتصاب المسلمات باستيلاد أطفال من صلب الصرب ومن نطفة التعصب.. الأمر الذى يتوافق مع ما يقوم به البابا يوحنا بولس الثانى من فرض لمنع الإجهاض على المسيحيات ومن تحريم لوسائل منع الحمل عليهن لتعمير الأراضى المسلمة بعد إخلائها من المسلمين!! ولعل ذلك ما يحلم به نيافته.

فالأرض بلا شعب هى المطلوبة لمخطط الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة وهو ما دار فى البوسنة والهرسك، وهو نفسه ما يدور فى الهند وبورما والفلبين وغيرها من البلدان: تقسيم الدولة، ثم القتل والطرد والإبادة مع فرض تغيير العقيدة، وامتصاص الهوية فى غياهب التعصب.. وهو ما تم مع البوسناويات اللاتى «أنقذهن» الصليب الأحمر فى لندن - الأمر الذى أعلنته شبكة ال CNN مساء يوم السبت ١٩٩٣/١/٩م. وهو ما تحاول فرنسا القيام به تحت لواء وزيرها لوبن أو جان كلود بارو وغيره لامتصاص هوية المسلمين المقيمين بها، وتغيير دينهم أو المطالبة بطردهم.

لقد تضافرت جهود الثلاثى الاستعمارى عام ١٩٥٦م لضرب مصر وحماية إسرائيل، كما تضافرت جهوده لدكّ العراق.. ولا يسع المجال هنا لسرد كل ما قاموا به من مواقف عنصرية مخزية، ولا كل ما يقومون به حاليًا.. فقد تسابقت التصاريح فى أولى لحظات حرب العراق الأولى، التى يصوبونها مع سبق الإصرار.. وها هو الزعيم الأمريكى الجديد يعلن عن

تأييده وتدعيمه الكامل لقرار جورج بوش الأب وتصميمه على سحق العراق، بل ويعلن فى نفس هذا التصريح عن مزايداته بتصرفات أكثر حسمًا عند توليه مهام منصبه فى (٢٠/١/١٩٩٣م)!!.

ولا يحق لنا أن نسأل أعضاء هذا الثالوث الفاشم الظالم المتعصب: أين ضميركم وعدلكم من انتهاكات الصرب وانتهاكات كل من تحركونهم، ومن انتهاكات رأس الحرية التى زرعتموها منذ عام (١٩٤٨م) فى فلسطين المحتلة ومئات المرات التى تم فيها عدم الانصياع لقرارات الأمم المتحدة أو مجلس الأمن أو غيرهما من المنظمات؟! أين هذا الحسم الباتر من ذلك التخاذل المائع الذى تواجهون به بجاحة الصهاينة وطردهم ٤١٨ من صفوة الفلسطينيين أوائل ديسمبر (١٩٩٢م) وذلك الوعد المتبلّد بمحاولة حل قضيتهم قبل العشرين من شهر فبراير ١٩٩٣. أى بعد أن يكون البرد والجوع والمرض قد أتى عليهم بعد ثلاثة أشهر فى العراء.. بينما «الأمين» المتخاذل المتواطئ يصمت ويرفض التعليق على هذه الغارة الأخيرة على العراق بزعم أنه لم يتلق أية معلومات رسمية بشأنها. مثلما ظل يتملص ولا يزال أو يحذر من اتخاذ أى قرار لوقف مجازر الصرب ومذابحها.. بل ها هى فرنسا تمنحه درجة الدكتوراه الفخرية وكأنها تكافئه على مواقفه المخزية.

لا يحق لنا أن نتساءل.. لأن جزءًا مما يقوم به الغرب المتعصب يتم اعتمادًا على ما اتخذه من قرارات تبشيرية «لضرب الإسلام من الداخل» و«أن قطع الشجرة يجب أن يتم بمعرفة أحد أفرادها».. وضرب الإسلام من الداخل يعنى الاعتماد على بعض حكومات عميلة تحت أى مسمى، وعلى وسائل إعلام متواطئة، وعلى أفراد ومؤسسات مختلفة، سواء أكانت تبشيرية أم اقتصادية أم مدنية لهدم الإسلام أخلاقيًا وعقيديًا وتشريعيًا وسياسيًا.. وكل ذلك لم يعد خفيًا على أحد، فالمراجع والأبحاث والتقارير بل ووسائل الإعلام تتناقلها شرقًا وغربًا.. لكننى هنا لا أملك إلاّ أن أتوجه إلى المسلمين

أينما كانوا.. وإلى بعض المسلمين الذين أفقدهم الغرب البصر والبصيرة وجرفهم فى زيف حضارته المنهارة وإفلاسه الذى يداويه ويداريه ببيع أسلحة مكدسة تمتص ثروات العرب وتحرث أبناءهم..

وهنا لا بد من وقفة قصيرة نوضح فيها باقتضاب ما قام به علماء الغرب من تحريف لكلمات أساسية فى القرآن، وفى التراث الإسلامى عندما قام بترجمتها فريق مستشرقيه.. ومن أهم هذه الكلمات كلمة الإسلام ذاتها، وكلمة الحمد التى منها أحمد ومحمود ومحمد، وكلمة الجهاد التى قصروها على معنى القتل فحسب لتأكيد معنى العداوة فى القرآن، وكلمة الكفر التى قصروها على اليهود والمسيحيين وحدهم لتأكيد معنى الكراهية ضدهم، وفى حين أنها تنطبق على أتباع الديانات التوحيدية الثلاث الذين أتاهم الكتاب ثم كفروا به أو حادوا عنه.. وكلها وغيرها كلمات بحاجة إلى دراسات لغوية لتصويب معانيها فى عيون الغرب، لكنا لن نتناول هنا إلاّ معنى كلمة الإسلام لتصويب المنظار الذى ينظر منه الغرب إلى المسلمين، بعد أن زيف نسبهم، وابتلع حقهم وشرعهم، وها هو يحاول إبادتهم أو امتصاصهم!.

فلقد دأب الغرب على ترجمة كلمة إسلام بكلمة Soumission، والتى لا تقف عند معنى الاستسلام والخنوع فحسب، بل وتتضمن معنى من فجر وأتى أمرًا قبيحًا فخجل منه ونكس رأسه، إنه الخنوع والخضوع ذلاً ومهانة.. فى حين أن كلمة إسلام مشتقة من سَلِمَ، أى برئ وخلص، ومنها أسلم أى أخلص، ومنها السلام، وهو أحد أسماء الله الحسنى، وهو التحية عند المسلمين، وهو الوفاق الذى يجب أن يسود العالم ومنها السلامة أى البراءة من العيوب والأمان والصلح.. وكلمة «أسلم» لغويًا هى أفعل تفضيل من سلم وسلام، وتعنى فى الشرع قبول ما أنزله الله من تعاليم بصدق وإخلاص.. ومنها قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (البقرة: ١١٢) أى من أخلص لله وحده. فمن أسلم وهو من أخلص.. ذلك لأن للعمل المتقبل شرطين كما يقول

ابن جبير: أن يكون خالصًا لله وحده وأن يكون صوابًا موافقًا للشريعة..

وانطلاقًا من هذا المفهوم الكريم الحقيقى لكلمة إسلام نورد آية: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران ١٩).

أى إن الإسلام هو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به فى كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ. فالإسلام عقيدة ليس إلا الحلقة المتممة والأخيرة للرسالة التوحيدية التى جاءت فى سيناء ولاحت فى سعير قرب القدس، وتلألأت فى جبال فاران بمكة.. وهو ما يتفق وآية: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨). أى إن الذين اتبعوا ما أنزل إليهم على يدى موسى من توحيد بالله فى وصاياه العشر بصدق وإخلاص، ابتغاء مرضاة الله وحده هم مسلمون لله مخلصون له. ومن اتبعوا ما أنزل اليهم على يدى عيسى من توحيد فى وصاياه العشر التى زاد من تساميها الإنسانى، بصدق وإخلاص ابتغاء مرضاة الله وحده فهم مسلمون لله مخلصون له. ومن اتبع ما أنزل إليه على يدى محمد من توحيد بالله وتفضيل صنع الخير بعشرة أمثال والتزموا بشرعه وتعاليمه بصدق وإخلاص ابتغاء مرضاة الله وحده هم مسلمون لله مخصلون له..

وبهذا المعنى يمكن فهم آية: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران: ٦٧).. فهو أول من حطم أصنام والده وابتعد عن الوثنية وأخلص لله وحده.. لذلك كان على المسلمين أن يقولوا: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٨٤) أى إن المسلمين يؤمنون بكل ما أنزل من توحيد قبلهم وهم لله مخلصون.. فهم يؤمنون بالله وما أنزل على أنبياء التوحيد كما يؤمنون بيوم الحساب واليوم الآخر.. ويطلق عليهم «أهل الكتاب».

لذلك نتوجه إلى المتعصبين والمنحرفين من أهل الكتاب أينما كانوا، قائلين: لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون... لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون.. لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون؟!.

لقد تكشفت اللعبة بكل أبعادها وخباياها دينيًا وسياسيًا.. لذلك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل الأمناء المخلصين فى الغرب الذين طالبوا الفاتيكان بالاعتراف بكل ما قام به من تزييف كما نطالب الكنيسة الشرقية بالانضمام لهذا المطلب فإن ما يتهددها ليس بخفى على أحد فهو الخطوة الثالثة فى مخطط البابا يوحنا بولس الثانى بعد أن ضرب الشيوعية ويقوم حاليًا بضرب الإسلام. نطالب الكنيسة الشرقية وخاصة أقباط مصر باتخاذ موقف إيجابى فعال بدلاً من الصمت أو رفع الشعارات غير المجدية، أن يتخذوا موقفًا إيجابيًا برفضهم أن يكونوا رأس حربة أخرى فى الوطن العربى.. وليس المطلوب من أحد أن يغير دينه فسماحة الإسلام معروفة على مر التاريخ ومعروفة خاصة لأقباط مصر فهو الذى حماهم من مذابح التعصب الغربى، ومعروف أن من مبادئه: ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)..

إن تضامن المسلمين والمسيحيين ليس قاصرًا على مصر وحدها. فها هو المطران إيليا خورى - راعى الكنيسة الأسقفية فى «رام الله» والذى اعتقلته السلطات الإسرائيلية عام (١٩٦٩م)، قد انضم لمنظمة التحرير الفلسطينية وأصبح عضوًا باللجنة التنفيذية ليكافح ضد أعمال القهر والقمع وانتهاكات الكيان الصهيونى لمقدسات القدس المحتلة.. وهو الذى أطلق صيحته الشهيرة فى مؤتمر «حماية المقدسات فى فلسطين المحتلة» المنعقد فى القاهرة فى نوفمبر (١٩٨٨م) قائلاً: «ما أحوجنا اليوم إلى صلاح الدين لكى يقف المسلمون والمسيحيون جنبًا إلى جنب ضد الغزوة الصهيونية الاستعمارية البشعة لتحرير المقدسات من الظلم».. وما أكثر النماذج الوطنية المشرفة والتى لا يسع المجال هنا لعدها..

ولقد جاهد أنبياء الرسالة التوحيدية الثلاثة ليضعونا على الصراط المستقيم، ألاّ نعبد إلاّ الله، وألاّ نكفر بنعمته علينا.. فإذا ما كنا - بعد كل ما توصلنا إليه من فهم وعلم، وبعد كل ما تكشف لنا ما زلنا غير قادرين على مواجهة التعصب الغربى والحد من أنانيته لنتعايش سلميًا، فتلك هى الساعة الخامسة والعشرون، الساعة بعد الأخيرة، التى يستحيل معها وبعدها أى صلاح!! لذلك لا نملك إلاّ أن نضم صوتنا إلى كل المؤمنين المخلصين فى أنحاء العالم، لنصيح بكل ما أوتينا من قوة: يا أيها المسلمون يا أصحاب الحق.. يا من يساء لدينكم وشرعكم ومقدساتكم وتنتهك أعراض نسائكم.. يا من تستباح أراضيكم وتضربون بأيديكم، بل وتتخذ من بقاعكم قواعد لضرب إخوة لكم فى الدين.. ليس أمامكم إلاّ أن تنسوا خلافاتكم المفتعلة التى يوقعكم فيها الغرب.. يا أيها المسلمون.. يا أصحاب الحق. جاهدوا لرؤية ما أنتم فيه وما أنتم مساقون إليه.. فليس أمامكم مرة أخرى إلاّ ما فعله عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين.. ليس أمامكم إلاّ توحيد صفوفكم سياسيًا لفك الحصار المضروب حول الإسلام على الصعيد العالمى ولصد الهجوم الضارى الذى يرمى إلى إبادته.. لا تطيعوا المتعصبين الكافرين وجاهدوهم ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ﴾ (الشورى: ٤٧).

المـــراجـــع

١ - أهم المراجع العـربيـة

إبراهيم خليل أحمد: **(إسرائيل فتنة الأجيال)** مكتبة الوعى العربى.

د. إبراهيم مدكور: **(فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه)** دار المعارف ١٩٨٣ جزئين.

ابن الخطيب **(هذا هو الحق! رد على مفتريات كاهن كنيسة)** - المطبعة المصرية ومكتبتها، طبعة ثانية

ابن هشام: **(السيرة النبوية)** - مكتبة الحلبى ١٩٥٥ طبعة ثانية

أبو الفداء بن كثير: **(قصص الأنبياء)** - دار الكتب الحديثة ١٩٦٨

أحمد بن عبدالصمد الخزرجى: **(مقامع الصلبان)** - مركز الدراسات والأبحاث (الاقتصادية والاجتماعية، الجامعة التونسية) ١٩٧٥.

الإمام القرطبى: **(الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام)** - دار التراث العربى ١٩٨٠.

البيهقى **(دلائل النبوة)** - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٩٦٩

بشرى زخارى ميخائيل: **(محمد رسول الله: هكذا بشرت الأناجيل)**. عالم الكتب ب. ت

د. توفيق الطويل: **(قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام)** دار الفكر العربى ١٩٤٧

حاى بن شمعون: **(الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية للإسرائيليين)** - مطبعة كوهين روزنتال بمصر ١٩١٢.

د. خليل سعادة **(إنجيل برنابا)** - مطبعة محمد على صبيح القاهرة: ١٩٥٨.

شموئل بن يحيى بن عباس المغربى: **(بذل المجهود فى إفحام اليهود)** - مطبعة الفجالة الحديثة ب. ت.

محمد السماك: **(الأصولية الإنجيلية أو الصهيونية المسيحية)** مركز دراسات العالم الإسلامى ١٩٩١.

طارق البشرى: **(المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية)** الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٠.

عبدالصمد صارم السهوارى: **(البشائر)** - مطبعة حجازى القاهرة ب. ت.

د. عبدالعزيز كامل: **(الإسلام والعروبة فى عالم متغير)** - كتاب العربى ١٩٨٩.

على بن ربَّن الطبرى: **(الدين والدولة فى إثبات نبوة محمد ﷺ)** دار الأفاق الجديدة بيروت ١٩٧٣.

عمر لطفى العالم: **(المستشرقون والقرآن)** - مركز دراسات العالم الإسلامى ١٩٩١.

محب الدين الخطيب: **(ترجمة عن الفرنسية، الغارة على العالم الإسلامي)** (أ. ل شاتليه) نشر قصى الخطيب ١٩٢٧.

محمد صالح البنداق: **(المستشرقون وترجمة القرآن)** - دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٥٨.

محمود على قراعة: **(الثقافة الروحية فى إنجيل برنابا)** - دار مصر للطباعة ١٩٨٣.

منصور حسين عبدالعزيز: **(دعوة الحق أو الحقيقة بين المسيحية والإسلامية)** مكتبة الدين، الطبعة الثانية ١٩٧٢.

٢ - أهم المراجع الأجنبية

AMIOT,F: **Evangiles Apocryphes**,Paris,Fayard, 1952.

Assfaly, J&KRUGER,P **Petit Dictionnaire de L'Orient Chrétien**, Belgiun, Brépols. 1991

BADAWI,Abdurrahman : **Défense de la vie du Prophéte Mohammad contre ses détracteurs**, éd Afkar Paris, 1990.

BALTA,Paul Islam **et Civilisation**, éd. du Rocher, Paris 1991.

BARREAU,Jean-Claude: : **De L'Islam en général et du Monde Monderne en Particulier**, éd, Le Pré aux Clercs, Paris 1991.

BERQUE,Jacques: **Le Coran**, Sindbad, paris, 1990

BIBLE de Jérusalem, éd, du Cerf, paris

BIBLE, éd 1860, 1931 et 1986.

BLACHERE,Régis **Le Coran,** P.U.F., Paris 1969.

BREHIER,L: **La Querelle des Images**

BRUNO,Eitenne: **L'Islamisme Radical**, Hachette, Paris, 1987.

BUCAILLE,Maurice **LaBible, le Coran et la Science,** Séghers, Paris 1978.

BULTMAN,R,: **Histoire de la tradition Synoptique**, Seuil, Paris 1973.

CARITANI,Roger (sous la direction de): **BORDAS** Encyclopédie, Philosophie - Religion, 1980.

CARITANI,Roger: **La force des Faibles,** Larousse Paris, 1987.

CARRE,Olivier: **L'Utopie Islamique,** Paris P.F.N.S.P. 1991

CATECHISME de L'EGLISE CATHOLQUE, Mane-Paris 1992.

CHEVALLIER, D: GUELLOUZ: MIQUEL, A: **Les Arabes, L'Islam et L'Europe,** Paris, Flammarion, 1991

COLLOQUE 1987 **Les Chrétiens du Monde Arabe** Maisonneuve&Larose, Paris, 1989.

COMTE, Fernand: **Les Livres Sacrés,** Compactes - Bordas Paris 1990

CONGAR Yves: **Vocabulaire Oecuménique,** éd. du Cerf, Paris 1970

CORM, Georges: **L'Europe et L'Orient,** La Découverte Paris 1991.

CORBAGE, Y.& FARGUES, PH: Chrétiens et Juifs dans L'Islam Arabe et **Turc,** Fayard, Paris, 1992.

DAGRON, CH. & KANCINI, H: **Arabes, vous avez dit Arabes?** Balland, Paris, 1990.

DAWUD, Abdul-Ahad: **Muhammad in the Bile,** Doha, 3ed. ed., 1980.

DUPONT-SOMMER,A: **Trente années de recherches sur les manuscrits de la mer Morte** (1947-1977) Institut de France Académie des Inscriptions et des belles-letters, 1977.

ENCYCLOPEDIE UNIVERSALIS. France, 1980, 20 vol

FLICHE&MARTIN: **Histoire de L'Eglise,** Bloud & Gay Paris, 1974. 27 vol.

FREMEAUX, Jacques: **La France et L'Islam depuis 1789** P.U.F. Paris 1991.

GEORGES, P: **l'Immigration en France :faits et problémes.** Paris, A. Colin, 1986.

GILLOIS, André: **Le Mensonge Historique,** Robert Laffont, Paris 1990.

HALEVI, Ian: **Israel, de la terreur au massacre d' Etat,** Paris, Spag-Papyrus, 1984.

HALEVI, Ian: **Sous Israel la Palestine,** Paris, Le Sycomore, 1978.

LECLERCQ, Hefelé: **Histoire des Conciles,** Letouzey & Ane Paris 1907, 8 vol.

HENRY, A-M. (sous la direction de): **Vatican II, Les Relations de L'Eglise avec Les religions nonchrétiennes**, éd . du Cerf, Paris, 1966.

KEPEL, Giles: **Les Banlieus de L'Islam,** Paris, Seuil, 1987.

LELONG, Michel: **Le don qu'il vous a fait,** textes du Coran et de la Bible, le Centurion, Paris, 1977.

LEON-DUFOUR (sous la direction de): **Vocabulaire de Théologie Biblique,** éd. du Cerf, Paris, 1988.

LEVEAU,R. & KEPEL, G: **Les Musulmans dans la Socitété Française** référances, Paris, 1988.

LIGUE INTERNATIONALE (LIDPL)	**Le Dossier Palestine,** Paris, la Découverte, 1991.
MASSON, Denise:	**Monothéisme coranique et Monothéisme** biblique, Desclée de Brouwer, Paris, 1976.
MESSADIE, Gérald:	**L'Homme qui devint Dieu**, Robert Laffont, Paris. 1988, 2 vol.
METEZ, M:	**Histoire des Conciles,** Paris, P.U.F., 1964.
POULET, E:	**L'Eglise, C'est un monde,** Paris, Casteman, 1986.
RENAN, Emest:	**Les Evangiles,** Calman-lévi, Paris, s. d.
RODINSON, Mazime:	**Mahomet,** Seuil-Politique, Paris, 1968.
ROYSTONPIKE, E:	**Dictionnaire des religions,** P. U. F. Paris 1954.
SCHWEITZER, A:	**Le Secret historique de la vie de Jésus,** Albin Michel, Paris, 1961.
SIBONY, Daniel:	**Les trois monothéismes,** Seuil, Paris, 1992.
TATE, Georges:	**L'Orient des Croisades,** Découvertes Gallimard, Paris, 1991.
THOMAS, G & MORGANWITTS:	**Dans les couloirs du Vatican,** Stock, Paris, 1983.
THOMAS, C & MORGANWITTS:	**Les Emissaires du Vatican**, Stock, Paris, 1985.
WOLTON, D:	**L'Information et la guerre,** Flammarion, Paris, 1992.

فهرس المحتويات


دار القبس
للطباعة وفصل الألوان
ت: ٣٦٤٠٨٣٥ - ٣٦٨٥٦٢٨ - ٥٣٤٣٣١٤

صليبية
الغرب
وحضارته
3

موقف الغرب من الإسلام

هذا الكتاب

■ في زمن أصبحت فيه الأحداث كاشفة، تتحدث عن نفسها دون الحاجة إلى مستندات لإثباتها، لم يعد خافيًا على أحد ـ اليوم ـ أن القضية ليست مجرد صراع العالم الغربى ضد العالم العربي والإسلامي فحسب، وإنما هى أيضاً بكل أسف صراع التعصب الكنسى ضد الإسلام..

إنها قضية تعصب دينى وسياسى بعيدة المدى، قضية متعددة الأشكال والجوانب، استخدم فيها الغرب كل ما يمكن وما لا يمكن تصوره من وسائل لتحقيق أغراضه وأطماعه..

ولن نبدأ بسرد كل ما تعرض له الإسلام منذ بداية انتشاره من حملات تشويهية في مختلف المجالات وصلت إلى حد الكذب والتلفيق أو إلى محاولة تشوية القرآن بترجمات مغلوطة لمعانيه.. وإنما يكفي أن نضرب مثلا لموقف الغرب المتعصب بآخر الأحداث التي تشغل الساحة العالمية، ومنها:

- غرس الكيان الصهيونى في فلسطين المحتلة.
- القضاء على الشعب الفلسطينى أو اقتلاعه من أرضه وتقويض المسجد الأقصى.
- حرب الخليج المفتعلة.
- حرب الإبادة للمسلمين التى بدأت بالبوسنة.

الناشر

